

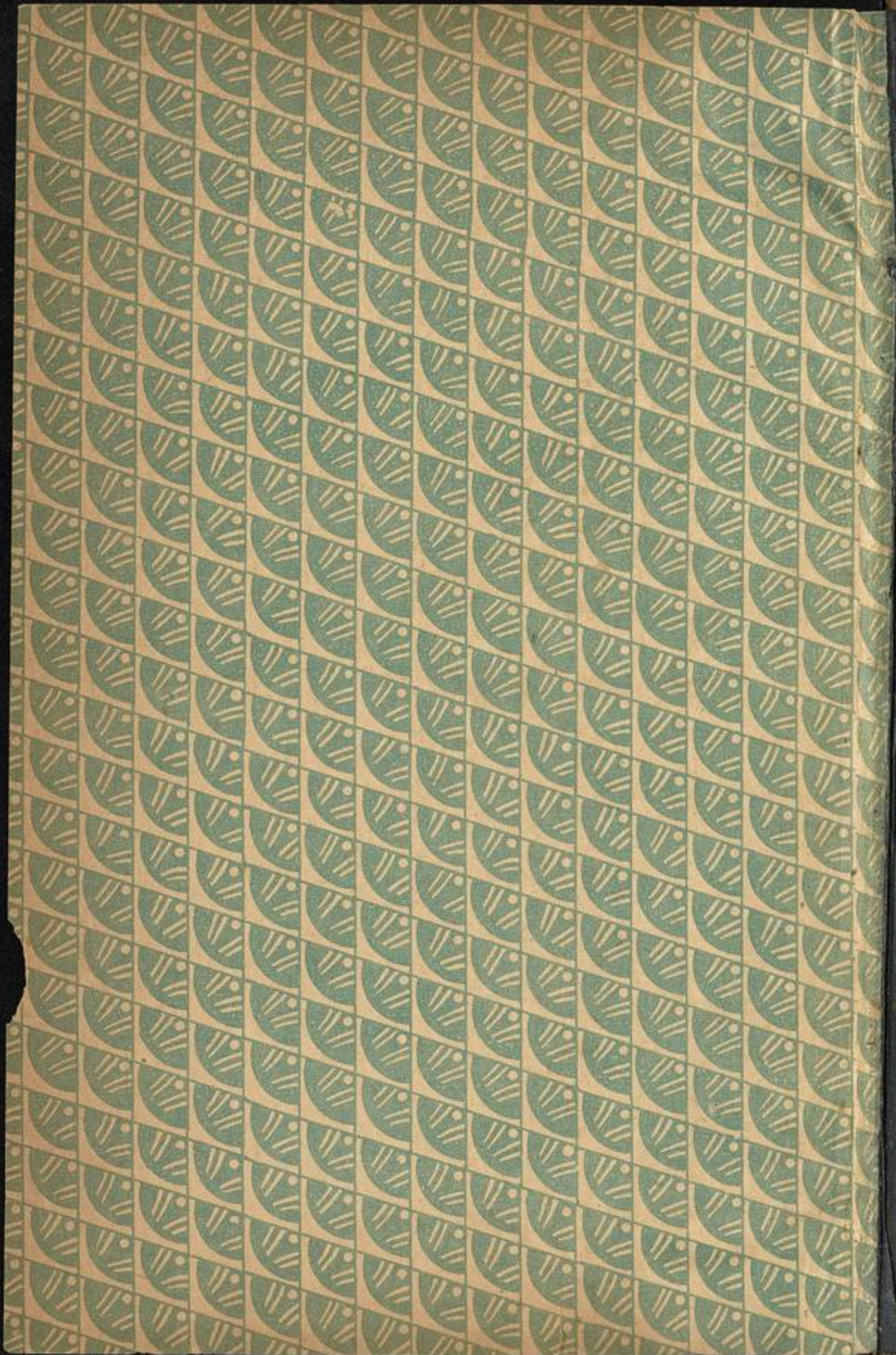


Columbia University  
in the City of New York

THE LIBRARIES









893.712

K5293

2 v. in 1

39141



PT 100 - 1070 Khanji 12/2/45  
2 vols  
Binding 40

©  
44

# محاضرات

## تاريخ الإسلام

تأليف المؤلف

السيد محمد الحضري بك المستشار بوزارة المعارف  
ووزير تاريخ الإسلام بالهند الحضرية

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصره  
اصحابها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

( جميع الحقوق محفوظة )

مطبعة الانتفاضة  
شارع النهضة رقم ١٤ بدمشق



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فقد عهد إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الإسلامية فقامت بما عهد إلى به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وها هي ذى تعرض على المؤرخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه .

هذا وإني أعلن شكري الوافر وثنائي العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلت من ثقته حتى اعتمد عليّ في أداء هذه المهمة وأخص بثنائي وإخلاصى رجل الهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوة عزمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدده فى القول والعمل إنه نعم المجيب .

محمد الخضرى

---

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبقاه ذخرا لأمر خاصة والإسلام عامة وأقر عينه بولى عهد المحبوب سرتوالامير فاروق



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المحاضرة الأولى

### في التاريخ الإسلامي

مباحث التاريخ الإسلامي - ما يلزم المؤرخ - جزيرة العرب  
ووصفها - شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذي جاء به سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب فأصبح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهياها لأن تسيح إلى ماجاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين فؤرخ الإسلام يرجع بحته إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضا الأول - الدين الإسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثاني - تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ماجاورها من الأقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا إلى سلطان الدين

الثالث - ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التي دانت بالإسلام وما كان الدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الأمم التابعة لسلطانها

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثير به لا أول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالمهم قبل مجيء الإسلام لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أننا نقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيق به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيئته . وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستبسط من الخير شرا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جدا . وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجدها لا تحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ما تستحق قرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جميلا والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغبته ولأنابه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمة بأنه مرأه يجب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرستاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض

### جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها «جزيرة العرب» مع أنها لم تتم لإحاطتها بالماء كما قال ياقوت (١) في معجم البلدان نقلا عن هشام (٢) بن محمد السائب عن ابن عباس (٣) إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

---

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي الاصل أسر من بلاداه صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة في التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة في النقل توفي سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسبة عربي له كتاب الجهرة في النسب وله مصنفات كثيرة كلها في أخبار العرب توفي سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب جد الملوك من بني العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفي في خلافة ابن الزبير سنة ٦٨



جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن  
الفرات (١) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين (٢) ثم انحط على أطراف  
الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة (٣) والابلة (٤)  
وامتد إلى عبادان (٥) وأخذ البحر في ذلك الموضوع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً  
عليها فأتى منها على سفوان (٦) وكاظمة (٧) إلى القطيف (٨) وهجر (٩) واسياف  
البحرين (١٠) وقطر (١١) وعمان (١٢) والشحر (١٣) ومال منه عنق إلى حضرموت (١٤)  
وناحية أيبن (١٥) وانعطف مغرباً منصباً إلى ذلك (١٦) واستطال ذلك العنق فظعن

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قارب  
البصرة اتحد بدجلة وصامعاً في خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبي حلب  
وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ

(٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب في خليج عمان مصرت  
أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ

(٤) بلدة على شاطئ البحرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة  
(٥) مدينة في الجزيرة المتسكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة إلى عباد  
ابن الحصين وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف وتون إلى آخر المنسوب إليه  
(٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين  
(٧) جوق على سيف البحر وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة  
بالبحرين وهي قصبها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهي اسم كورة من كور البحرين  
قصبها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي  
وعمان في أيام بني العباس عملاً واحداً. وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف  
الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند  
وتنتهي إلى البحرين وقصبها مدينة سحار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت  
وعمان (١٤) ناحية واسعة في شرقي عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى  
شيام (١٥) مخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة في بحر اليمن وهو من بين بلاد اليمن  
والحبشة وكانت منى في زمن نبي أمية

في تهاثم اليمن بلاد فرسان<sup>(١)</sup> وحكم<sup>(٢)</sup> والاشعريين<sup>(٣)</sup> وعك<sup>(٤)</sup> ومضى إلى جدة<sup>(٥)</sup> ساحل مكة والجار<sup>(٦)</sup> ساحل المدينة ثم ساحل الطور<sup>(٧)</sup> وخليج ايلة<sup>(٨)</sup> وساحل رايه<sup>(٩)</sup> حتى بلغ قلزم<sup>(١٠)</sup> مصر وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين<sup>(١١)</sup> فتربعسقلان وسواحلها وأتى صور<sup>(١٢)</sup> ثم سواحل الأردن<sup>(١٣)</sup> وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة<sup>(١٤)</sup> إلى سواد العراق

وهذا التحديد وإن كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فإنهم

- (١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي
- (٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاة ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمي
- (٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعري بن ادد من كهلان بن سبا ينسب إليها أبو موسى الأشعري
- (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الأزدي ثم من كهلان
- (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة
- (٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع
- (٧) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم وهي كورة مصر
- (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجماعة بين مصر ومكة
- (٩) كورة من كور مصر البحرية
- (١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المتدنى من المنذب وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التي كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى في مكان السويس
- (١١) الثانية في مكان بورسعيد
- (١٢) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبها البيت المقدس ومرؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان
- (١٣) مدينة من أعمال الأردن على ساحل بحر الروم بينها وبين مكة ستة فراسخ
- (١٤) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والأردن نهر يصب في بحيرة طبرية



يحتدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءاً مهماً من بلاد سوريا كما سكنوا أجزاء من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول أن هناك تسامحاً في إطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية

### أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :  
تهامة - الحجاز - نجد - اليمن - العروض

فأما تهامة ويقال لها الغور فهي الأراضي التي على شاطئ بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحز إذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام <sup>(١)</sup> يزيد كسريوم في بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقي عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيه يبتدئ جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة وينتهي من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهامم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسائل أودية فيه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ ك تقريباً

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحار  
جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها لحم محترق ويتخلل هذه الجبال  
كثير من الوديان أهدتها السيول ليجري فيها ماؤها والصحارى الرملية  
المتراصة الأطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلاب والمرعى فتمكن  
أهله من الإقامة فيه حيث يجدون ما يشربون ويسمنون فيه أنعامهم وما بعد عنها أقفر  
ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد بلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد ابنى تميم ببادية  
البحرة يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو  
أول نجد . ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب والعرب تقول  
على لسان الرمة

كل بنى فإنه يحسنى • إلا الجريب فإنه يروئى

ثم يمر فى بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طيء ثم يمر فى بلاد كلب  
فيسمونه قراقر ، ثم فى بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى اليهم عطف إلى بلاد  
كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخارج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل فى  
سواد الكوفة ومتى أخضبت الدهناء ربت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ،  
طيبة التربة ، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة حتى ينتهى إلى البحر ومنها ما هو  
على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه  
فى العظم وبعد المأى وادى زيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن  
الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع  
السدسد مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة فى الجوف بين الجبلين  
العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضوا وهو جمع روضة وذلك الاسم



خاص بما يكون في الأرض الواطئة فإن كانت في أعلى البراق (١) والقفاف (٢) فهي السلقان واحدها ساق وإذا جاءت المياه أنبتت ضروباً من العشب والبقول لا يسرع اليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمى (٣) ربت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلافى ميل فإذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما في روض وإما في واد. وحدائق الرياض ماء عشب منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فنعتته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السماء ثم أن تنشفه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسدحاج الجزيرة كان الجذب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يفيض في باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجارى الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبنى سدّاً محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويفيض في الأرض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعمدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهلها على العيون الضئيلة التي لا تروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلاب في بعض سهولهم القريبة من الوديان - وأما نجد والعروض ففيهما وادى الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً (٣) وسمى أول مطر يصب الأرض والثاني يسمونه الولي

مائه يفيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل  
ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وإنما يتبعون مواقع  
القطر أنى كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها  
وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه  
ذلك من كثرة شد الرحال والتنسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد  
على ما تنبته الأرض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للإنسان كان جل اعتماد  
أهل البادية على إنعامهم ولا سيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسبون  
بوبرها وتحمل أقطامهم في تلك الصحارى المقفرة إلى ما يرومون من الجهات أما بلاد  
اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر  
من أى جهة أخرى في الجزيرة لأن تمدن المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على  
المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

### جق البلاد

أما ما كان من الجزيرة تها ميا يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان  
البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحز في الجبال إذا صهرتها الشمس بحراراتها خصوصاً  
الحرار منها السواد لونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمال  
أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسابل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً  
وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهو أوه معتدل في فصل الشتاء والخريف ، أما الربيع ففيه المطر الكثير  
والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

### محاج الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى  
محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب  
فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على  
جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر إلى البصرة أو الكوفة فإن لم يكن للطلع علم  
بذلك كانت جدواه قليلة



وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك . ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة إلى مكة وهي تفارق الأولى من معدن النقرة في الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذي يلي منزلة النجاج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ : وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عشر بعد سير ١٦ منزلة ولخضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء في تباله وتمر على نجران  
ومنها محجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

### (الشعوب العربية)

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها إلى شعبين عظيمين الأول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجهمور وقضاة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيه ومدحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنه ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التي اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذ في الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الأرض أوفى البحر فأقاموا بمأرب سداً

وصفه يا قوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠٠م كما قاله العالم سيديو وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن يهدم السد ، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعززت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزراع كما كانت

ونحن نرجح الرأي الأخير لسببين

الأول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته ليجرد خبر لا يقطع أملاً خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما تص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسيا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا للبلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها ومن سار على هذا الرأي العالم سيديو كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزقياً سيد ولد الأزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكنائهم فصاروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال



فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ونها ناس من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغريخيل ، والنو من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة وتخرج عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقراض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه

ومن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أدد بن زيد قبيلة لحم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو ابن عدى بن نصر الذي ملك بعد جزيمة الواضح

ومنهم طيء . ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجأ وسلى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائنين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر : قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة ه إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد  
أي وعدني والرمل بيني وبينه ؟ ه تأمل رويدا ما أمامة من هند  
ومن أجأ حولي رهان كأنها ه قبائل خيل من كبت ومن ورد  
ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاة أقامت بيادية السماوة وهي في آخر شمال نجد  
وتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب  
وبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد  
ومنهم الملوك والأقيال .

## المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه - معيشة العرب من بدو ومن حضر

حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فهده مكة وماجاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان -  
باجماع كلمة المؤرخين من العرب - ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة  
وساكن جرم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه وإلى آبيه بناء البيت الحرام (وإذ يرفع  
إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل  
أبناء إسماعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب  
العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فنه أباد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان  
كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا  
يناصون مضر في الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام  
ومن ربيعة عبد القيس ابن أنصى ومنها بكر وأغلب ابناوائل . ومن بكر حنيفة  
وعجل ابنا لجم

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس  
ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو ساييم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان  
ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وعتى بن أعتصر  
وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن  
خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر  
ابن كنانة

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمع ومنهم ابنا حصيص بن كعب



وعدى بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتميم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبدالدار  
ابن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم . وبيت  
هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، والعباسيون  
أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب

### مساكن العدنانية

لما تكاثروا أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهاجرونها  
متبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبدالقيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى البحرين فأقاموا  
بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء  
الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم  
وخرجت بنو حنيفة بن صععب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبه اليمامة وكان  
أميرهم عند مجيء الإسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعشى

من ير هوذة يسجد غير منئب إذا نعم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لا ترى عيبا ولا طبعها

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتزوج معدى قط وإنما كانت النيجان ليمن فسأله  
أبو عبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يبحر لطيمة كسرى  
في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة  
إلى البحر فأطراف سواد العراق فالابتلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها  
بطون كانت تسكن بكرأ وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب  
من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي  
إلى الحرة فتلك ديارهم لا يخاطبهم إلا بضم الانصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهو ازن في شرقى مكة بنواحي أوطاس - وهي على

الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرق تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بختر من طيء  
ويينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقى بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة  
وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لأجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن  
كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

### بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة إلى مساكنهم - إلى حضروهم سكان المدن . وبدو : وهم  
الذين يقيمون في البادية . إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم إلا في ذلك  
الجزء القليل - لا يحب فيهم عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجوزور :  
وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب ، وهو ما استبعه . ويغلب على خلق  
هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنجهية

أما الحضرة : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن  
فكان فيها مأرب وصنعا . ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض :  
وفيها زيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفي شمال اليمن مكة : وهي تهامة  
والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفي نجد حائل وفي العروض حجر -  
قصة اليمامة - والقطيع بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء

### تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها  
من كل صوب لشراء ما يبيعون ويبيع ما تحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لسكسرى  
والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحمها من غارات الأعراب كبير  
من كبار العرب تحمل البز والثياب وما يحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان  
إحدهما للشتاء في زمن الصيف . والأخرى لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت  
تتجر بمحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافق تجارية كبيرة ولم  
يعرف اللامة العربية نفود كان بها التعامل ، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين  
المجارتين لها وهما الفرس والروم



صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى أن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من نميم لانيجه أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن الفرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعملها فيها تصلح من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل - وكانوا يرجعون في صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء السكبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

( أحوال العرب )

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبنى عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعني بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعية لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله - ونريد بالأهل خصوص الزوج  
يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإننا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هوديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقانه إلا المرأة التي إن رقى في نظرها فقد رضى الناس كلهم عنه ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العبسي شيخ الشجعان ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفخر إلا

حدثنا امرأة من قومه بأنه المدافع عن الحرّيم الحامى للحقيقة ،  
تراه إذا عدلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيها بأرقّ ماتجيب به  
مخالف في الرأى

ألم تعلمى يا عمرك الله أنى • كريم على حين الكرام قليل ؟  
أولاترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون بمعامد قومهم وعظيم  
مقاصدهم - لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسب  
يروون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وترام حينها مخاطبونها وهي ذات  
زوج يلقبونها بخير الألقاب فيقول أحدهم

ياربة البيت قومي - غير صاغرة • ضنى إليك رجال القوم والقربا  
فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة وما أحلى  
احتراسه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجها

سلى الطارق المعترى يا أم مالك • إذ ما أتانى بين قدرى ومجزرى

أيسفر وجهى وهو أول القرى • وأبذل معروفه له دون منكرى

فلا يناديها إلا بكينها وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتمّ منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة  
وفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبتهم إلى آبائهم وكانت المرأء فيهم إذا أرادت  
فرقت ، وإن شئت جمعت فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت وإن  
وجهتها لإرادة الانتقام إلى الشر أشعلت النار بين الأحياء

قال الحارث بن عوف المرى لخارجة بن سنان - في إبان الحرب بين عبس وذبيان  
أترانى أخطب إلى أحد فيردنى قال نعم : أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال الحارث  
لغلامه هي لي مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة ، حتى أتيا أوساً فوجداه  
في داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن مجيئه ، فقال جيشك خاطباً فقال أوس :  
لست هناك فأنصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس  
فقال من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال : ذاك سيد العرب الحارث بن  
عوف قالت فما لك لم تسنزله قال إنه استحمق جاءنى خاطباً قالت أفتريد أن تزوج  
بناتك قال نعم قالت فإدالم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان



منك فالحق له انك لقيتني مغضبا بأمر لم تقدم مني فيه قولا فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندي كل ما أحببت فإنه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجي ادع لي فلانة لسكبرى بناته فأتته فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءني طالبا خاطبا وقد أردت أن أزوجه منك منته فقالت لا تفعل لأنني امرأة في وجهي ردة في خاقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما فيه ، قال قومي بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت إنني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، ثم دعا الثالثة وهي هيممة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك فأخبرها يا بيا أختها فقالت لكنني والله الإنجليزية وجها الصانع يدا الرفيعة خلقا الحسبية أبا فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهبت إليه في بيت أبيها فلما خلاها وأراد أن يمديه إليها قالت مه أعند أبي وإخوتي . هذا والله ما لا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت أكبا يفعل بالامة الجليلة أو السبية الاخذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج إلى هؤلاء القوم فأصاح بينهم ثم ارجع إلى أمك فان يفونك نخرج الحارث مع خارية بن سنان فأصلحا بين القوم وحمل الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكن أن ندعي أن هذا كان أمرا عاماعندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الامة لأن وجود أفراد هذه معاماتهم لا يحتمل أن يكون برهانا على أن هذا خلق عامتهم كيف ونحن في بيئتنا لانعدم فيها من يرفع زوجه إلى أعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستتج من وجودهم أن احترام المرأة خاق عام للبيئته كلها ولكن الذي يمكننا أن نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على السنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعا من العمل بل كان شيئا لا تنفر منه طباعهم يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماعاً ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة

يوما فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى في زواج بنتى فكان منى  
ومنها كيت وكيت لوقال هذا القابله النفوس بالاستنكار لأنه ليس من مألوف عادات القوم  
من ذلك يمكننا أن نقول إن علاقة الرجل العربي بأهله كانت على درجة من الرقي  
أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمر  
بكم كثير من آثارها الكبيرة في الإسلام وهي مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأي إلا أن  
الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط  
بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاه أولياؤها ولم يكن من حقها أن تفتن عليهم بذلك وهذا  
الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان  
الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان  
ولم يكن ذلك أمراً مستحسنًا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربي من غيرته على أهله  
ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه  
الأنواع تلك المساحات

وكانوا يعددون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حد معروف إليه ينتهى الأمر  
في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح أن غيلان الثقفي أسلم وتحتة عشرة نسوة  
وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن  
فكنن يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد  
منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فإذا قهر  
صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون  
هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه  
حرة نسبية لا سبية تجلية وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة  
في نفي العار عنه كما قال عنتره :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل  
وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون



لم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا في أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم  
وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يجرهون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنات والاخت والعمة والحالة  
ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشرف بني تميم أنه تزوج بنته  
دختوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند  
المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه في غزواته  
أمامعاملتهم لا بناتهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا حصينة يتقى  
بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل  
ذلك وكان لهم من الخلق على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يشدون بناتهم ، وإذا بشر أحدهم  
بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه  
على هون أم يدسه في التراب ، ولم يكن هذا في جميع العرب بل كان في بعض بطون من  
تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا في طبقة منحطة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله  
منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة في قول الكتاب (ولا تقتلوا أولادكم خشية  
إملاق نحن نرزقهم وإياكم)

وكان هناك من أشرف تميم قبل الإسلام من كره الواد وعابه وكان يشتري  
البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن  
غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الواد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة  
العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها انصر أخاك  
ظالماً أو ظلوماً ، وكانوا يسرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء  
به الإسلام لأن الإسلام فسّر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أمامه فكانوا ينصرون  
لأخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم  
والذي يتأخر منهم عن هذا الاتصاف تقابله السنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها  
ببصر أحدكم كقال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا  
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا  
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحدا  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في الثائبات على ما قال برهانا  
لكن قومي - وإن كانوا ذوى عدد - ليسوا من الشر في شيء وإن هانا  
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا  
كأن ربك لم يخلق لحشيتيه سواهم من جميع الناس إنسانا  
وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على  
أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل  
والأمر واحد في الحلفين

بيننا هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس  
بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقعت  
لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العمداء قد  
بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين  
بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة  
وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها  
العصية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في  
حروبهم والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول - التنافس في مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فإننا نعلم أن حياة العرب  
كانت على مراعيهم التي يسمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون وهي  
محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلال والماء  
وأكثر ما يبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القاطنين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فيمن  
يرد الماء أولاً أو في نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من  
الافتراق بدأ فينزع أحد الأخوين عن داره مرغماً إلى مكان آخر هو وأولاده ومن



يلوذه ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزع وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى : وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعي ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الاسنان منهم عن سببه فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني - تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما الآخر فيورثهما ذلك تباعضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمرأ في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأميه بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف إنما كانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مرديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراما

وإذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهما حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فإنه قال لها أتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجده شاعراً بلبه ويزيد

في نفسه نكرة الجاهلية كما فعل الأعشى في هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها  
عامراً ويزعم أن الحكم قضى له وبما كان يزيد في هذه النيران شدة السنة الشعراء فقد  
كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها ما خسر قبيلته ومثالب القبيلة  
الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسمها بتلك  
السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص  
لأن كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادى قبيلته المعترف لها بالتبذير في السيادة  
وفيهما البيوتات الكريمة قد سمت على لسان شاعر بما يستحى الإنسان من إنشاده  
ولم تسلم من ذلك الشريفة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شوب نار الحرب بينهما  
إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أسير النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشوب  
نار الحرب وتقييم الأبطال وتأيم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب  
والمنازعات قلما تخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها  
في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب التجار وفي البعض الآخر تراها أموراً  
يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذيان وبين بكر وتغلب ولكن  
الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه





## المحاضرة الثالثة

### حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى ساطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني : رؤساء عشائرهم ما الملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج

### القسم الأول

#### الملوك المتوجون

#### ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المولعين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فإنهم يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئاً يقولون إن قحطان بن عابر المعبر عنه في التوراة يقطن هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة أنه كان ملكاً على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لاتزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطاتهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طي ثم على الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم -

ويروون عن ابنه ذى منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادى الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادى وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى وليس وراءه مذهب فلا يتكلمن ذلك أحد . وإن تبعنا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالبت اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبدالرحمن بن خلدون المغربى (المتوفى سنة ثمانمائة وثمانية) في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر ، وكذلك على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسا على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فإن نزاع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطن ولا آباءه ولا لابنائه ولكن كالذى يكون من بعض من يشردون من المنلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمتز به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعا إلى محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدى له خرجا

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخرفترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخرف ، إذ لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شيء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره في الموضع الذى هو به لا يملك بنفسه اه فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا فى أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان من يوسع



سلطانه إلى ما يجاوز مخالفه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابها

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون بخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخاليف رئيس من القبيلة يحكمه غير أن مخاليف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤسأوه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخالفه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقبال والواحد قبل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك . . . ٤ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت عظمة ملكة وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بذلك الضخامة التي تبعت صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت ( إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ) وقال سليمان لما أرسل إليها مهتداً ( ارجع إليهم فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواها من تلك الاصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . ومن اشتهر من ملوكهم يوسف ذونواس وكان يهودياً

فرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعاً لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس إلا أن مثل بهم حرقاً بالنار سنة ٣٤٥ م ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذوى نواس فبعث إليه قائداً حبشياً اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذوى نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكماً على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه وهو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام<sup>(١)</sup> في سيرته بأنها الحصبة والجدرى : وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد نهزم ما وتوفي بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة في سورة الفيل وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثانى مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعه إلا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأى من الضرورى أن يستنجد بأحد الملوك العظميين ملك الروم أو ملك الفرس ؛ ولكنه أخفق فى استنجاهه بملك الروم فاستنجد بملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حيناً من الزمن فمات سيف<sup>(٢)</sup> فذهب ابنه معد يكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معد يكرب لما كان لهم من الأمل فى امتلاك اليمن فأعدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأبله وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت أنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فاتصروهم وهرز من معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توجه وهرز معد يكرب ملكاً على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال ابناوى

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطلها وعليها معول من كتب بعد فى السير (٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفاً هو الذى ملك اليمن لابنه



وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهتونه بعودة الملك ، ومن وفد عليه عبدالمطلب  
ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم  
كان معد يكرب قد أبق معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون فى ركابه فاغتالوه  
ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل  
وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاية من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان  
آخرهم باذان الذى كان على عهد الفتح الإسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب  
إلى الإسلام فجاء الإسلام وصنعاء لإيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له  
الخراج ولم يكن ملكة عاما بل كان هناك أقبال آخرون يحكمون فى مخاليفهم وكتب  
لإلهم النبى صلى الله عليه وسلم كتابا مستقلة بصفتهم أقبالا كما كتب إلى النعمان قيل ذى رعين  
ومعافر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة  
بمحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك  
الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارامك الفرس أمام الاسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ ق . م انحطت  
المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون فى تاريخ الفرس  
بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض فى هذه التجزئة وهى أن يسجل على بلاد  
الفرس ضعفا أبديا لا يتمكنون معه إعادة الكثرة على أملاك اليونان وقد نجح فى هذه  
الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل  
واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو  
الوقت الذى نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس  
المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأ كاسرة

وفى عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً  
مهما من ريف العراق كان قبل ملكا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر  
من ولد عدنان فزاحمهم فى تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية  
فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته  
وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجح إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى  
عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سبباً فى رحيل جمع من قضاة إلى الشام . ودان له

أهل الحيرة والأنبار . وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من يبادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم مملكه إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطفتهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة ككتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر ( يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس )

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أن يأخذ منها بالثار فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهروب عند الحاجة ثم استأذنها ليحىء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمرأ أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فأدركها عمرو فقصت سبها وقالت يدي لا بيد عمرو ؛ ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرابتها يشكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ؛ ويقولون إن الزباء هذه كانت مملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السמידع الذين سكنوا بلاد العراق وبراى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر أووليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نجبها وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالى سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخمين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع



فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أدشير ولم  
تزل الملوك من بني نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد  
ظهر في زمنه مذهب الإباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك  
فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة  
وهو المنذر بن ماء السماء يدعوهُ إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية  
وأنفه ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن  
حجر السكندی الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب  
دعوته إلى المذهب المزدكي

ولم يزل ملكاً حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب  
جداً ويراه مضرراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً من دان  
بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان  
بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيـل من تغلب وإياد  
وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني  
حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم  
في ديار بني مرينا وهم الذين يعينهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته  
فآبوا بالنهاب وبالسابايا ه وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في دار كلب حتى مات  
ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده  
فلك ابنه حجرا على بني أسد بن خزيمه وعطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل  
بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن  
قاسط وبني سعد من نهم . ولم يكن هذا الملك بالشئ الموطد لأن قبائل البدوليات تحمل  
وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم  
عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لآخذ النار من قتلوا  
أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فأب بالفشل بمد خطوط طويلة كانت عليه في  
ذهابه إلى ملك الروم واستنجاهه به على قتله أبيه  
ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر

المكشي بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادي انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل إليه يطلبه يخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب ينتقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحمره من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذاقراً ونزل على بني شيبان سرا فلقى هاني بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هاني وكان كسرى أطعمه الأبله فذكره النعمان أن يرفع إليه أهله لذلك وعلم أن هانئاً يمنع مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشرف طي أمره أن يرسل إلى هاني بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هاني حمية وآذوا الملك بالحرب فأمر إياس أن يسير إليهم بالحدود ومعه مرزابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هاني يا معشر بكر لا طاعة لكم بحرب كسرى فاركبوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة ابن ثعلبة العجلي وقال يا هاني أردت نجماناً فألقيننا في النهلكة وردت الناس وقطع وضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا بحجة الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهمزت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد ثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لحم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقى من بني نصر بالعراق جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدى لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شامروا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وإنما كان اسماً



لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان  
أحياناً ينصر عليهم إذا قاموا في أممهم وأحياناً يخونهم لأنهم يتركون منازلهم  
ويجتمعون بباديتهم فلا يمكنه أن يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن  
ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو السكندی قال يوماً لجلسائه هل تعلمون  
أحدنا من العرب يأنف أن يتخذه أمى قالوا ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم  
التغلبى فإن أمه لیلی بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت  
عمرو على ما في نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً  
بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه لیلی فنزل  
على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته  
طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند  
في القبة وقد قال ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنجى خدمك عنك فإذا  
دنا الطرف فاستخدمى لیلی ومرميا أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به  
ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند للیلی ناوليني ذلك الطبق قالت لنقم صاحبة الحاجة  
إلى حاجتها فألحت عليها فقالت لیلی : واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم  
فتار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في  
السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في  
ذلك شاعر التغلبيين :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا      لتخدم لیلی أمه بموفق  
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلاًنا      وأمسك من ندمانه بالخنق  
وقال ابن كلثوم في معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند      تطيع بنا الوشاة وتزدرينا  
بأى مشيئة عمرو بن هند      نكون لقبيلكم فيها قطينا  
تمددنا وتوعدنا رويدا      متى كنا لأمك مقتوبنا  
فإن قناتنا يا عمرو أعيت      على الأعداء - قبلك - أن تلبينا

## المحاضرة الرابعة

الملك بالشام - الإمارة بالحجاز - الحكم عند العرب

### الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاء قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من نبي سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعة نسبة إلى أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان لينعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس ولولوا منهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقدمكث الضجاعة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من شأرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزقيا فغالب السليجيين على ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تنزل الملوك تنوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالا الملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقراض الإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان ابن جفنة بالشام مدينة اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي

وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزدي وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل



يغشون حتى ماتهم كلاهم لايسألون عن السواد المقبل  
وكان لآل جفنة مواقف معدودة اتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم  
ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي  
واد وراء الأنبار على طريق الفرات - إلى الشام) كان بين المنذرين ماء السماء وبين  
الحرث الأعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في  
هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه  
أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم  
الذين اصطنعواهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام  
له لجهاز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين  
وكان لهؤلاء الظفر أيضا

#### الإمارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاة من جرم فحطان - وهي جرم الثانية - ولما جاء اسماعيل  
مكة مع أبيه إبراهيم صاهرم : وكان لأولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما  
لابيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شيء . ولما ارتحل الأزدي من مأرب  
بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب  
جرم فاتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ه أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا ه صروف الليالي والحدود العوائر

ووليت خزاعة أمر مكة حينما من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا  
وانتثروا في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وتبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو  
قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو  
الآب الحامس لمحمد بن عبدالله ﷺ لجمع شتاتهم ووجد كلمتهم فكانت لهم بذلك  
قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، وما لم يبق إلا أمر ولاية  
البيت أخذه قصي من سادته المسكني بأبي غبشان وهو صهر قصي ، ويقال إنه اشتراه  
منه بزق نخر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التي كونها من عصية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة النامة والامر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تغد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت يجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذا الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة فقيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة السكبة لا يفتح بابها إلا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من

الماء يحلونا بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة : والرفادة

طعام كان يصنع للحاج - على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قعيباً على ذلك

بما تقدمه له من الخرج الذي يخرج كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبدمناف قد ساد في حياة أبيه فأراد أبوه

أن يلحق به ابنه عبدالدار الذي كان أسن من عبدمناف فأوصى له بما كان يليه من

مصالح قريش ، فلم يناع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له

أربعة من الولد وهم هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبدالدار في

هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك

ابتدأ النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة في الشرف وافترت قريش فرقين :

فرقة تساعد بنى عبدمناف وفرقة تساعد بنى عبدالدار ؛ وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم

ألهموا المصالح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فاجتمعوا لبنى عبدالدار

الحجابة واللواء والندوة وبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف

القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبدمناف فكان هو الذي يليها ومن بعده بنوه

حتى جاء الإسلام والامر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتساوى هذه في العظم - وزعت بين قبائل قريش

وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش



حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً ما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً يساله من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثيراً من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً إلى حد شوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانهط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ إليه فقد نجى من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهر أحرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيئته فيجتري عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم؛ فن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عاداتهم ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراباً سمته العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

وبما امتازت به قريش حلف الفضول وكان مداره على أن ترد كل مظالم بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحماية الجاهلية التي كانت العvisية تثيرها

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطبقون أن يحكموا حكماء لو كانوا يقيد حرمتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمجيء هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ! تقيم بإقامته وتظعن بظعنه ، وإذا دعا الحرب لاتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة بعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحملة من الحملات فكان له المرباع والصني والنشيطه والفضول : فالمرباع ربع الغنيمة والصني ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطه ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول ما فضل من السقمة مما لانصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيدان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب بن زرارة ، وبيت ربيعة في آل ذى الجذنب ، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتزوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لانسأله فيم غضب ! وكان في بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتهر ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجمعها خاضعة تؤدى له خراجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس — من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإنهم كانوا يؤتونه الاتارة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

ومن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التيمي — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فينتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو !!



# المحاضرة الخامسة

## الحال الأدبية

### الأخلاق - اللغة

#### الأخلاق

الخالق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشي واللعب النظامي

#### عموم الأخلاق

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعلها فاعله منهم من غير أن يحاذر تكبيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عدت من مذام الأمم - التي بها تستحق السقوط والخذلان - أنهم لا يتباهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة . فإن كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخالق على الأمة : كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستسراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير في بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التي كانت للعرب سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فملة حتمية يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأراً كالأسد خرج من مكمنه لا يترتب حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا أحكاماً قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينظرون

النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتها  
لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك  
عائتهم إلى السير في طريق الحروب بقبائل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تمزك  
قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير . يالفلان . واذلاه ، وانصيراه ،  
شرف الآباء ، وما شاكل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل  
صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخاطئ الجراءة على سفك  
الدم ، لأن النفس متى تها لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكشف  
بدون الموت لمن تربد الانتقام منه

ومن هنا كان خاق الخلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في ساداتهم وذوي الأسنان منهم ولذلك  
كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من  
مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية ، وقد سمي  
القرآن هذا الخاطئ ومقابلته حمية الجاهلية لأن فيما تديجة من نتائج الجهل وعدم الثبوت  
ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح  
به ودين على غيره . كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس  
عنده من المال إلا ناقه التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها  
ويذبجها اضيفه يخشون مذقات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن طريق أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحطان من بني الغنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه  
بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد  
حبلاً فقال لها على الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه نمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال :

لأنه ذلني في العطاء ويسرى لكل بعير - جاء طالبه - حبلاً

فاني لا تبكي علي ؛ أفالها إذا شبت من روض وأوطانها بقل

فلم أر مثل الإبل مالا لمتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته :

حلفت يمينا يا ابن قحطان بالذي تكفل بالارزاق في السهل والجبل



تزال حبال محصدات أعدها لها ما عشي منها على خفه جمل  
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالبا فعندى لها خطم وقد زاحت العلل  
ويرى المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والأضياف - من ديوان الحماسة  
الذي جمعه حبيب أوس الشهير بأبي تمام - ما يبالغ الصدر

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان  
العهد عندهم دينا يتمسكون به ويستنبئون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب  
ديارهم. انظروا إلى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر  
وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب  
ملكها ونائبه على الخيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ، ثم  
انظروا إلى ما فعله السمومل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث  
الغساني بين قتل ولده وتساميم أدرع امرئ القيس بن حجر السكندی التي كان أودعها  
عنده ففضل قتل ولده ، وفي ذلك يقول الأعمشى مخاطبا شريح بن عمرو السكلي :

كن كالسمومل إذ طاف المهام به في جحفل كسواد الليل جرار  
بالأباق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار  
خيره خطتي خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعهما حار  
فقال غدر وثكل أنت بينهما فاختر . وما فيهما حظ لاختار  
فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك إنى مانع جارى  
وسوف بعقبنيه إن ظفرت به - رب كريم ويض ذات أطهار  
فاختار أذراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهدده فيها يختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى لذلك بما  
تعهد به بعد أن رهن على ذلك قومه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ،  
والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر ، وإنما  
خاف السبة على بنيه من بعده - إذا هو غدر وبما بين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة  
العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية  
وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسا بين العرب  
وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم بمثل الأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرفق فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا يحصى عنهما  
ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يفلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم  
مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السواقط من بني أبي بكر بن  
كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكاتب له عمير بن سلمى لأنه لاجار حدث أن كان  
بين قرين بن سلمى وبين أخي الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غابا  
فأتى الكلابي قبر سلمى أبي عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن  
يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى  
الكلابي جميع ماله ، فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع  
الوادي فربطه إلى نخلة وقال للكلابي : أما إذا أبيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي  
وارتحل عن جوارى فلا خير لك فيه فقتله الكلابي . وفي ذلك يقول عمير  
فتلنا أخاننا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره  
وقالت أم عمير

تعد معاذرا لأعدر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فإنهم كانوا يخلطون حلفاءهم  
بأنفسهم ويوفرن لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة  
التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم  
مع أن قريشاً كانوا يرضون بناتهم عن أي قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب  
لهن كفاً إلا من دخل في حلفهم ومن أخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء  
الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل صاحبها على الإقدام على المسكوه ، وباب الحماسة  
في أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الأفراد أما الكرم  
فإنه لا يظهر أثره بجملة إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء  
والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة اليأس وقوة  
القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم  
من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن  
نقول إنها كانت أخلاقا عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الأدب يجد



من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجمله  
يحكم أن هذه الآفة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش - لم تخل من حكام  
أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولتتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما  
قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر ! : وكانوا يرون أنه  
سبيل من سبيل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه وكانت طريقتهم  
في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جروراً يقسمه الجزار إلى عشرة  
أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في  
الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنسح  
والسفيح والوعد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جرى بها  
التكثير العدد والسبعة الأولى عليها علامات تبديئ من الواحد وتنتهي إلى السبعة  
المعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلى  
رجل أمين يقال له أمير المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على  
كف الأمين قطعة من جلد لثلا يحاكي أحداً من المقامرين فيخرج له قده ويجلس  
خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدها : ولنفرض  
أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فأزراً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على  
تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فإن خرج  
المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقيين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن  
على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز  
صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة  
أجزاء وبقى واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأن ما يستحق أكثر من جزء  
فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح  
عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقى أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأن منها  
النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج  
النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله  
اثنتان : ثم الفذ وله واحد فالجمرع ١٢ جزءاً وبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح في جزور ايس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الاولى  
يقسم على ١٨ جزءاً ، وهي لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى . وكذلك ثمن الثالثة  
والنصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت  
المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمة الدين الإسلامي وهذه المفسدة هي أنه يوقع العداوة  
والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء  
ومن عاداتهم التي يتمدحون بها - شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبيل  
السكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها في الشعر العربي باباً من أبواب  
المدح والفخر : ومن أحسن ما قيل في شرها من جهة الأسلوب اللغوي قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم  
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مقدم  
فإذا سكرت فإنتى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم  
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت ثمانلى وتكرمى

والشرب - في وقت عنترة هذا - كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها

صباحاً ويسمى الصبوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم ، لأن المنفعة في كليهما واحدة  
والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع  
للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال ( إنما يريد  
الشیطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن  
الصلاة ) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ حلما قحطان  
رأس قبائل اليمن ويسمعون في التاريخ بالعرب العاربة لإصالتهم في العربية ومن  
قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردّها إسماعيل بن  
إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة  
وكان إسماعيل رجلاً عبرانياً يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه



هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرم الذين عاشروهم ولكنه بحكم  
الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه  
أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر  
يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لا يمكنهما أن ينسيا بالمرة ما في أنفسهما من الكلمات  
المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرم يفزعان  
إلى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل  
وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية ليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصلية  
والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير هما  
لا يختلفان وإنما الخلاف في الألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون  
وبالعكس والمتبع للألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم  
الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلافة لا يجد ما فيها يرادفها من الألفاظ الحجازية  
معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالفهم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات  
قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعينهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة  
على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدلت عليها  
بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة  
مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول - تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحياناً وربما اختلفت مواضعهم  
فيجئهم للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة في  
المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما نجده في أسماء الأشياء التي هي  
عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرحم والجمل والكلب والمهر  
وما شاكل ذلك

الثاني - النجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له  
اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الأول على الثاني ومع تطاول الزمن  
ينسى قول الشبانين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من غنى بلغتهم ، وكانوا دائماً يكتنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الحسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة .

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة ما يلزمه حسباً يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانين بالكنايات

الطريق الثالث - طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم في التعريب الشأو الواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالتجارة والأسفار وساءلوا الفرس والروم والحش . وكانت ترد على حواسمهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأسماء بعد أن يلاعبوها قليلاً حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير .

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات العربية والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي فإن هذا الشركان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمز الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانية من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعراء ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقة السبع وما يقرها بما جمعه صاحب جهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراءم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذي كان أبوه ملكاً في نجد على بني أسد وشعراء الأوس والخزرج الذي كانوا بالمدينة



وطي. وكتب المقيمين في شمالي الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعربياً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم  
الآخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الخيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى  
بعض رجال اللغة لا يحتاجون بمثل عدى بن زيد العبادي الحيري وأميه بن  
أبي الصلت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخاطب العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما  
كلمات في اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر  
أوسع من ذلك

كل هذه العارقات أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير  
عما يمكنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم  
وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم  
في حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا  
في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والأسماع وهذا  
ما نحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الإسلام واللغة قدرت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثير  
الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أتوه  
من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعراً  
ينافح عنها في المجامع وربما أولمت الولاثم فرحاً بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش  
خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية  
ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل  
المعاني فليطالع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو علي  
الغالي في أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله ، وما جمعه صاحب جوهرة أشعار  
العرب فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس  
يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل  
جداً في جانب الذهب الوفير

## المحاضرة السادسة

### الكتابة - العلوم - الدين

#### الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشئ الذائع يتناوله جميع الأفراد وإنما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجاهليين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاثة ليست بالشئ المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت ترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعب عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أى لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير فى اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت تمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد فى المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلاً أو بعضاً وربما فاتهم الشئ منها إذا اشتبه عليهم الأمر فتقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه فى بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات والكرن الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقى من نثرهم وخطهم فى المحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ يبرهنهم إلى طريق ترقيتها كما أتى بيانه



### علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لأن الإنسان متى احتاج فنقتله الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يستد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البدوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مخصصاً بما هم في حاجة إليه وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج إليه ويعمله من السماء ثم في جملة الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ، ثم أداة حربه وقلبا يحتاج إلى أكثر من ذلك

فأما حاجته إلى المطر فقدأ كسبته ملاحظة الجزر وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإذار بالجذب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء<sup>(١)</sup>

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثني عشرقسماً وسموا كل قسم برجاً لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسموا كل برج اسماً بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى في الشمال هي الحمل والنور والجزءاء والسرطان والأسد والسنبلة التي في الجنوب هي الميزان والعقرب والفوس والجدى والدلو والحوت وتخيّلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالاً أخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هي المنازل - السرطان والبطين - النجم وهو الثريا - الدبران - المقعدة - الهنعة - الذراع - البثرة - الطرف - الجهة - الخراتان - الصرفة - العواء - السماء - الغفر - الزباني - الاكليل - القلب - الشولة - النعائم - البلدة - سعد الذابح سعد بلع - سعد السعود - سعد الاخبية - فرع الدلو المقدم - فرع الدلو المؤخر - الحوت

وبعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يتبدى القمر فيعيد الانقلاب في هذه المنازل كما لمرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب مارواه صاحب الأغاني قال خرج  
إعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعى غنم لها فقال الشيخ إنى أجد ريح النسيم  
قد دنا فارفعى رأسك فانظري . فقالت أراها كأنها بربر معزى هزلى ثم قال لها  
بعد ساعة إنى أجد ريح النسيم تدنا فارفعى رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال  
دهم تجر جلالها قال ارعى واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إنى لأجد ريح النسيم قد  
دنا فانظري فقالت أراها كأنها بغان حمار أصحرق فقال ارعى واحذرى ثم مكث ساعة  
وقال إنى لأجد ريح النسيم فاترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فوبق الأرض هيدبه • يكاد يدفعه من قام بالراح  
كأنها بين أعلاه وأسفله • ريط منشرة أو ضوء مصباح  
فمن بعنله كمن بجوته • والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال انجى لأبالك : فما انقضى كلامه حتى دطلت السماء عليهما

وحاجتهم إلى إياهم أكتبتهم بالنجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداوتها  
وإبعاد سابعها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك حظ وافر كما إنهم  
استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تتنابه  
فى الصحراء من أنواع الحمى التى لا بد منها لازيم حول منافع الماء متعرضاً لبرد  
الليل وحرارة القبط وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها  
وكان للدكى بالاساوى أوديتهم تصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد

الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها  
التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوماً وفى كل ثلاثة عشر  
يوماً نوماً جديد . وقال بعض علماءهم إنه لا يسمى نوماً إلا إذا كان معه مطر فإن لم  
يكن مطر فلانوماً وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه  
إلى السائط وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوم من الحوادث الجوية  
مثلاً قولهم الصرفة باب الدهر لأنها تفر عن البرد أو عن الحر فى الحالين . وإذا  
طلعت العواء وجئ الشتاء طاب الصلاه وما مائل ذلك بما لا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه



لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين  
ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الأخر  
وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اخص بذلك الصناعة  
نساؤهم فالمرأة إن قالت إنى صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل  
كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسيج في حواضرهم وأكثر  
ما يكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية  
وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار  
اللائق أن تصنع الزمّاح منها وغير اللائق كالنّبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها  
ثم الزجاج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخَط في البحرين  
ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية أما السبوف فكانوا يجلبونها من صناعاتها  
بنواحي العراق والأبله وكانوا يسمون ناحية الأبله الهند لذلك يقولون سبوف  
هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب إبلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم  
ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم وإنما  
كان حساباً أرقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد  
ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشى عليه  
والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت  
بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها - كما في الآثار والإنسان كبنى مدلج - وللغرب في  
معرفة الأثر أعاجيب لا يكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى ما تبقى منها  
بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في  
إظهار الجنايات وفاعليها ونلما يخطئون . قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره  
لسنة ١٩٠٥ :

« وإمارة الفاتحين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا  
من ذلك - في إحدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروى ، وكانت  
أرض السوق والطرق المجاورة لها مرهلة فنحص القائفون المكان في صبيحة اليوم  
التالي وعثروا على أثر رجلين وحار فاتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السؤاس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أن الأثر أثرهما ثم عرضوا الخبر أيضا واتضح أن حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه في السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أن باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ، ولما جرى بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجرميتهما وقالوا أنه لما نقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان الممتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم

وكان لهم في النوع الثاني مالا يقل عن الأول يجثرون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائب فيحكم حكما فصلا قائلا هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً وبنى هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولا يهيمه إن كما قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القاتنين بل رضيه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الأنساب إذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنجح من الاستقراء قراءد صحيحة تنفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من أساس رقيها

#### دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لآحد أمرين : أما الأول فهو شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظام الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شيء لأنه يحبه حباً جماً فزى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضاه من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جدلت له صورة تمثله وقد تكزن من حجر أو صنم



أو ماشاكل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته وقد يكون التعميم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجراد نافع أو ضار لأن القوة التي أعطيا وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعيا في الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الإنسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألد في دينه وازداره ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق المرصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان - هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بني إسرائيل وأعظهم وأبقاهم أثرأ موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهي أول قرية تلم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصري والفرع الثاني كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضا مجدداً لشريعة إبراهيم ، كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذونواس أتباعا لدعوة حبرين يقال أنهما أتيا من تبع الحميري من يثرب وكانت أيضاً يثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام مجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين

بهذا الدين إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائي وأفدأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لأن اليهودي يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي إلى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التي كان سادتها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظام وذوى الأثر الصالح فيهم ؛ أو تمثيل القوى التي يالفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها وما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي في وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عن شاهده من رجال عذرة ؛ قال كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلطان متر بجملة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجمبة فيها نبل - فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب - وكان لهذيل صنم اسمه سواع في رهاط من أرض يذبع وكان يعبد من يليه من مضر وله سدنة من بني لحيان - وكان لمزحج وأهل جرش يعوث . واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبد همدان ومن والها من اليمن - واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معد يكره تعبد حمير ومن والها حتى هودم ذو قواس وكان لهم أيضاً بيت يصنعاء اسمه رثام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً



ويظهر أن هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم  
وصوروا على شاكلتها لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها  
كما ورد في الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا  
ولا يغوث ويعوق ونسرا)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة  
وكانت العرب تعظمه ونذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف  
وكانت صخرة مربعة فالظاهر إنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثرأ من مكان معظم  
وكان سدتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة  
فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش  
وكانت سدنة العزى من بنى ساييم

ومنها ذوالخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين  
مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدى خثعم ودوس وبجيلة

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور  
اليدين يسمى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة  
كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار للاعتقاد أنها آلهة وإنما  
انقربهم إلى الله سبحانه كما قال في الكتاب (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا  
إذا سئلوا عن خلق العالم وقدر لمرزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي  
الذبايح إلى هذه الأوثان والأصنام التي يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت  
للعبادَةِ وقد استعمل الأعرابي كلمة النصب مفردا فقال في كتابه التي يمدح بها رسول الله ﷺ

وذا النصب المنصوب لا تنسكته لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني إسرائيل ما يشبه هذه الطرق  
وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبحيرة الناقة نشق  
أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزوبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمل آلهتهم  
والسائبة التي ينذر الرجل أن يسبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه  
فإذا كان ذلك أساب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الاناث منها ولنفسه  
الذكور ، فلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسبب أخوها  
معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل إذا تيج له عشر أناث متابعات ليس بينهن ذكر حتى ظهره فلم يركب  
ظهره ، ولم يجز وبره وخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير  
ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب  
متفقتة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر  
وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ما جعل  
الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزم القدح الذي لاريش عليه ،  
والازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد  
زلت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفراً  
أو نكاحاً أتى السادن فقال أخرج لي زملاً فيخرجه وينظر اليه فإذا خرج قدح الأمر  
مضى على ما عزم عليه ، وان خرج قدح النهي قعد عما أراده وربما كان مع الرجل  
زلمان وضعهما في قرابة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها  
أن يطالب الإنسان ما قسم له من جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسماعيل  
ويأيديهما لإلازلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويجعلونها  
فوق اجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون انها أثر إبيهم إسماعيل وكانوا يحجونها ويرون  
لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم  
فكان الكعبة هي بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمرهم حفاظ الدين وهذا  
مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي أمراً من الأمور الدينية بمكة  
وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم  
فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وقطان مكة وساكنوها فليس  
لأحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا  
شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم ان فعاتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالو



قد غاصوا من الحل مثل ماء ظموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة  
منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب  
ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل  
والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك  
وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحرس ثم قالوا لا ينبغي للحرس بأن تقطوا الأقط ولا  
يسالوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا - ان استظلوا - إلا في  
بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام  
جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حججا ؛ أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا  
قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحرس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ،  
فإن تسكروا منهم متسكروا من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحرس فطاف في ثيابه التي  
جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره  
أبدأ ؛ وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقي تخملوا على ذلك العرب فدانت به  
وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول ( ثم أفيضوا من  
حيث أفاض الناس ) وقال عن الثاني ( يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ) وقال  
( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق )

## المحاضرة السابعة

النسب - الموحدون من العرب - المولد النبوي - الحال قبل النبوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسب :  
والنسب كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجات ورجل ناسى  
من قوم نسأة قال في لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم  
رجل من كنانة فيقول أنا الذى لأعاب ولاأخاب ولاأخاب ولايردلى قضاء فيقولون صدقت  
أنسنا شهراً. أى أخرنا حرمة المحترم واجملها في صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون  
أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم  
المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألستا الناسئين على معدد؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو علي القالى في أماليه فسمى الناسى نعم بن ثعلبة وقال في آخر عبارة فإذا  
كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفرأ - وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معدد شهرهم الحرام إلى الخليل

وقال ابن هشام في سيرته : والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهر على العرب في الجاهلية  
فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك  
الشهر ففيه أنزل الله تعالى (إنما النسب زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون  
عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ) ومعنى ليواطئوا  
ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهر على العرب - فأحلت منها ما أحل وحرمت منها  
ما حرم - القلمس وهو حذيفة بن عبد بن ققيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان  
آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه خرم الأشهر  
الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل  
المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فخرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا  
الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الأتول ونسأت الآخر  
للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن



كثافة يفخر بالنساء على العرب

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس أن لهم كراما فأى الناس فانونا بوترو  
وأى الناس لم نعلمك لجاما ! ألسنا الناسين على معد ! شهور الحل نجعلها حراما  
على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخالص لما كان يجري من النسب قبل الإسلام إلا أن  
بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسر والنسب عند العرب  
بغير ذلك حيث فسروه بالكسب الذى استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فإنهم يضيفون  
على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتسكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم  
يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية لأنها بالكسب أو هذا النسب تكون مطردة مع  
دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير  
كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه  
على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠  
ومنهج المسعودى الذى قال فى مروج الذهب : وقد كانت العرب فى الجاهلية تسكبس  
فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسب وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما  
النسب زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف  
بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسب عند العرب بما فسره  
به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع  
اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بفلكى فى رسالة له  
سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها إن العرب قبل الإسلام  
لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسب عندهم إلا بالتفسير  
الأول وأظهر إن الخطأ فى ذلك واقع فيه لأول مرة أبو معشر<sup>(١)</sup> وتبعه البيرونى<sup>(٢)</sup>  
ثم من بعدهما ثم استدلت على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقى مجالاً للريب فليراجعها  
من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت  
النسب فى كتابى نور اليقين بما فسره به

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبى معشر البلخى توفى سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ریحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى المتوفى سنة ٤٣٠

ولما تبين لى وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة فى الكفر  
يضل به الذين كفروا يحملونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا تدة ما حرم الله - والنسيء  
بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت  
أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعيتهم حاجتهم التى هى غارات  
وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام  
بالأشهر المعينة فهم يحملون أحد الأشهر عاما ويحرمونه عاما ليتفق التحريم مع العدد  
المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر  
فلا يعدو أن يكون نظاماً ثابتاً انتهجوه فى تقويمهم لبقضاء الأشهر العربية متفقة مع  
دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الإحلال عاما والتحریم عاما لمواطأة فدة ما حرم  
الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالاً لتلاعب النساء بدينهم

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تكسب قال  
فى تفسير الربيعين : إنما سمي بذلك لارتباع الناس والدواب فيما ثم قال فإن قيل  
قد توجد الدواب ترتبع فى غير هذا الوقت قيل قد يمكن أن يكون هذا الإسم لزمها  
فى ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكسبون  
- كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت  
تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال  
الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين

على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم  
لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التى هم عليها  
لا توصلهم إلى الله ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضرفها ولا نفع  
ومن أشهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم -  
فالقرشون ورفقه بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل  
العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ،  
والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمه وأمه أمية بنت عبد المطلب  
اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصناءهم فقالوا : تعلن والله ما قومكم على شىء لقد  
أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يبصر ولا ينفع باقوم التمسون



لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء؛ فنفر قوا في البلدان يلبسوا الخنيفية دين إبراهيم  
فأما ورقة فاستحکم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب  
وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان  
والميتة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب  
إبراهيم ونادى قومه بعيب مأم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر  
قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ثم يقول اللهم  
لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لأعلمه ثم يسجد على راحلته وهو  
الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحوثر  
فقدم على ملك الروم فتصر وحسنت منزله عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الانساق حتى جاء الإسلام فأسلم  
ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما  
قدمها نصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيا

وكانت لانزال كهان العرب وذو الأسماع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا  
يعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم  
ويحسونها بما شاؤوا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر  
في ذلك الوقت نبيا يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلمحون بذلك ويقولونه لمن  
كان بناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا  
ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا في حرب وقد روى ذلك عن بعض  
الانصار من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية  
مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها  
لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء مامن التغير في عبادة الأوثان ، ولا إلى  
شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الأنفس شيئا من الاستعداد  
لقبول الإصلاح الإسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبدالمطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظام ، منهم

أبو طال وعبد الله وحزة وعباس وأبولهب وعبد المطلب ذوالسنن من بيت عبد مناف  
الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش  
فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام فلما وصل المدينة - وبها  
أخواله من بني النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما  
كان بنو النجار أخواله لأن من أم أبيه عبد المطلب

وفي صديحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل  
والاربعمائة سنة خات من ملك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل  
سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا - ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بشعب بني هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده  
فجاء مستبشراً واختار للولد اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر  
على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد  
أشرف تميم وهو الأب الحامس للفرزدق التيمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون  
أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من  
المستقبل المتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي متظر من  
العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية  
لأمرين (الأول) إنهم يبتعدون في البوادي عن أمراض المراضع التي كثيراً ما تصيب  
الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء  
والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) أنهم يتقنون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم  
أجهر صوتاً وألسن عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بني سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة  
واسمها حليلة بنت أبي دؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المسكني بأبي كبشة  
من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردت إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة  
كانت لآمنة عادة منذ توفي زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره  
بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت للزيارة وبينما



هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً . قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجاس عليه أحد من بنيه لإجلاله فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب - إذ رأى ذلك منهم دعوا اني هذا والله إن له أشأنا ثم يجاسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفي بمكة جدّه عبدالمطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو والنخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصل إلى بصرى وهي معدودة من الشام وقصة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما نقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بيمرا في صومعة له فكان له حديث مع أبي طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأنًا فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذلك أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فهما فلم نجد

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً وكان رئيس بني عبدالمطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينبل على عمومه أي يجهز لهم النبيل الرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلاف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنوالمطلب وبنوأسد بن عبدالمطلب وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجردوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته وتم ذلك الحلف في دار عبدالله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبدالله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الاسدية من بنى أسد ابن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا في قومه بالامانة حتى كانوا يسمونه بالامين فعرضت اليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبها حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهرى أن هذه الرحلة التي ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الامين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة نخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسا وعشرين وهى أم أولاده جميعا مع اعدا إبراهيم الذى ولد له بالمدينة فإنه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسابا وثروة وعقلا ولها في تاريخ الإسلام أجمل ذكر وأصدقه وسيوضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للسكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذى تولى البناء روى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة أذرع وصعدوا بها في الجوح حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداء ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت السكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا وطول ضلعه الذى فيه الحجر الاسود والمقابل له ١٠، ١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ١٠، ٥٠ م من أرضية



المضاف والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبها على ارتفاع مترين من الارض ويحيط بها من الخارج قسبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ م ، ومتوسط عرضها ٣٠ م . م. تسمى بالشاذروان وهى من أصل البيت ولكن قرى شاتر كنها واستظهر محمد لبيب بك البتانونى فيما كتبه عن الكعبة فى رحلته الحجازية التى اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم تحدث أما فى عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف وللكعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربى واسمه الشامى والجنوبى واسمه اليونانى والشرقى واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل يضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهى أثر لحام القطع التى كانت انفصلت منه وقطره نحو ٣٠ م ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت ويعدان عنها ٣٦ ، ٢ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمك ١٠٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ٤٤ ، ١ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثه أمتار تقريبا فى بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان فى الحجر

#### السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد الله كان فى قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأمانتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافرأ من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلاً وكان عمله حين شب - التجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها فى الربح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين فى موضع البحث وهى هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه

فقال جمهورهم إنه لم يكن مكلفاً بانباع شريعة قما من الشرائع الماسخية واستدلوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة لفضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة لياخذ منهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لنوفرت الدواعى على نقله ولم ينقل شيئاً من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الأئمة كالغزالي وشيخه إمام الحرمين والآمدى لأنهم لم  
يظفروا بما يؤمهم للحكم في مثل تلك المسألة

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة اختلفوا في تعيينها  
فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم  
أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوى  
يعضدهم وإنما هي مجرد أفكار

واختار النجاشي بن الهمام من الأصوليين مذهبا مبهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه  
شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير  
فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم  
عموماً وخصوصاً ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه  
ذلك المتعبد به وقال إن هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر  
اتفاقي والذي نراه أن التفصيل في مثل هذه المسئلة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين  
لأن مثل هذا الرأي يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية  
التي سبقت ويعبد الله بما ثبت أنه منها ويرجع بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع  
أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول أنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته  
راض الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس  
يحجون ويأثم مكارم الأخلاق التي في مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب  
الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار  
صغير على جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكراً  
في خالق الكون الأعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه  
ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقت ولم  
يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة في  
الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا  
الإيمان) وقال في سورة الضحى مما آتت به عليه (ووجدك ضالاً فهدى) والضلال  
الحيرة والهداية النبوة



## المحاضرة الثامنة

البعثة - الوحي - الدعوة السرية - الجهر بالدعوة  
ماكان من قريش - هجرة الحبشة

البعثة :

الذي يختارهم الله لإصلاح الأمم يأتي إليهم ما يريد أن يبلغوه عنه بالوحي والوحي في لغة العرب - إعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أنّ هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبئ عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن ، وفي لسان العرب لتعبر إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى ( وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ) وقال ( وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) وقال مخبراً عن يوسف في صغره ( وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ) وكل هذا لا يعدو معنى الإلهام الذي ربما شعر به كثير من الناس

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني هذا الإعلام له مراتب الأولى : أن يخاطب في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعتبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى إبراهيم في الرؤيا قائلاً الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطباً لابنه الذبيح ( يا بني إني أرى في المنام أن أذبحك ) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا  
المرتبة الثانية : أن يأتي ما يراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء في الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكا على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فإنه يسميها شيطانا وفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب ( نزل به الروح الأمين على قلبك ) المرتبة الثالثة : أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله ( إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ) ويظهر هذا الملك للأنبياء في النورا كثيرا المرتبة : الرابعة أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقبة المتقدمة كما عبرت النورا وقال القرآن عن هذه الحادثة ( وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آتت نارا أعلى آتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاه نودي يا موسى إنى أبارك فأخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى )

هذه هي المراتب التي عرف أن الوحي يبلغ قلوب الأنبياء عليها ، ولانكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئا من جنسها لمن فنى فكرهم في أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حق لقد تحدثه فلا يسمع ويتصب من جراء ذلك عرفا ولسنا نريد تشبيه الحاليين بعضهم ببعض وإنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس ما لا يحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقته : إذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يحمل الإنسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الإله أنا لا أستغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفيا لسع يعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأنى أعلم أن الجندى يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضى لشأنه حتى إذاتم الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالألم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عند الوحي من غيبتهم عن محضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ! فقال أحيانا يأتيني مثل



صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ماقال وأحيانا يتمثل لى  
رجلا فأى مايقول

وعما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد  
البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقد تعقد العلامة ابن خلدون فضلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر  
الإسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى  
رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينا كان يتعبد بغار حرام حسب عادته إذ جاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع  
عشرة خلعت من رمضان للحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذذاك

بالضبط أربعين سنة قرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة  
أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ . ولامعنى للاختلاف

فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار اليه الكتاب إشارة ظاهرة لاتخفى على  
من له إلمام بالتاريخ فقد قال (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان

يوم التقي الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صديحة يوم الثلاثاء ١٧  
رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جمله <sup>(١)</sup> عاما لا قول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع

مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة  
نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا

اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين بيدرو ليس  
اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية يبين أنه لا يصح

أن يراد منها غير هذا لأن الذى فترق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله  
محمدأ لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك

الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل  
الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ ما فى

بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين

القرآن هي التي قال فيها الكتاب ( إنا أنزلناه في ليلة القدر ) وقال ( إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمر من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ) وجمعت نهايته عيداً تذكراً لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقراءهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تئبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تاتي إلى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال لجأ من جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما اقرأ ؟ قال ففتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال : قلت ماذا اقرأ ؟ قال ففتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال ( اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ) قال فقراءتها ثم انتهى فانصرف عني وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوفقت أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى نخدها مصغيا إليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت <sup>(١)</sup> عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

(١) هذه رواية ابن هشام



قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل النوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقرئ له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما ناضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه وتؤذنه وتخرجه وتقاتله ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لانصرت الله نصرأ يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

ومما يزيد هذا العبء ثقلًا وشدّةً أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدّةً عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة لتقاء ذلك أن تكون الدعوة - إلى هذا الدين - في بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرى الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد وزوجه ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتنبأه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمى ؛ وكان أبو بكر محبوباً في قومه وكان أنسب قرش لقرش وأعلم قرش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نقرأ ، ممن كان بألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزيير بن العوام الأسدى وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمى ؛

ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبوسلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلي وسعيد بن زيد العدوي وأمرأة فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة - لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعان لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجز ذلك إلى تضليل آباؤهم فإنهم كانوا يجتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادره بالعداوة لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ماعسى أن يهجم به أعداؤه من الفتك به حماية لدينهم وشرف آباؤهم ، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب أصول العربية - أن يجير ! فإن فعل كان التعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق . فحذب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ورضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهار بما ينزل عليه من الوحي

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مثى رجال من أشرف قريش إليه يطالبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتاسفيه أحلامهم وتضليل آباؤهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئاً تدمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائمين لأنهم لا يصرون على هذا الحال !! وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم



يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخي إن قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا فأبقي على وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته ثم استعبر وبكى فلما ولي ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا له إن هذا الذي أتهدفتي في قريش وأجمله نخذه فلك عقله ونصره واتخذ ولدأ فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفتق جماعة قومه وسفه أحلامهم فقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام في أهل بيته نبي هاشم ونبي المطلب ولدى عبدمناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبدشمس ونوفل - ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي إلا ما كان من أخيه أبي سب فإنه فارقههم وكان مع قريش ولا أدري أفضل حمية لدينه على حمية لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبي طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن. وثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الأخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فرق كل شيء ولا يبعد عندي أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول الله حتى أنها كانت تذبح عنه الأكاذيب في مجامع النساء فتشعل بذلك الأكاذيب نار العداوة في قلوبهم : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذي يؤجج الزيران ، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر في أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فإن ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم تقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذوالسن فيهم ماهو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا يحمه فقال آخر تقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو بختمه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر تقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر تقول ساحر : قال ماهو بساحر لقد رأينا السحار وسحرم فما هو بنفثهم ولا عقدم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعنق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فنفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يميز بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ولما خشى أبو طالب دهاء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعود فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشرف أهل بيته من بنى عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء أبدأ فيها بقول :

كذبتم - وبيت الله - تترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل

كذبتم - وبيت الله - نبى محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيا يقول :

فوالله لولا أن أحمى بسبة تجر على أسيافنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جد أغير قول النازل

لقد علموا أن ابننا لا يكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

لما رأته قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة (١) فمن

(١) يقال فتن الفضة والذهب إذا ذبها بالنار تميز الرديء من الجيد واستعملت

في الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى

يرجع عن دينه



جهة الرسول أغروا به سفاهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحا فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفى منه مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع سفاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه - وهو غير قادر على حمايتهم بما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أتم فيه فقرروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة في الإسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

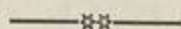
فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشي مثوهم وأعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمثون في منزلهم الجديد !! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشي ويطلبوا منه ردهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقتة وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قال له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم أهلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات ورواية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشي : فلما أتيا الرسالة قال النجاشي لاهما إذا لاسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سوى - حتى ادعوم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنتم جوارهم

ماجاوروني ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين لجأوا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل فكلتمه جعفر بن أبي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتننا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترتناك على من سواك ورجعنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك نطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدرأ من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لا أسلمهم إلا بك ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لا يئنه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال والله لا أخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فسلمهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها هوداً ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأذضب هذا القول منه بطارقه ولكنة لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شوم - ومعنى هذه الحكمة بالحبشة آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيدكر خبرهم بعد  
كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبيل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمتقين ممن أسلم  
ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روتته أم عبدالله بنت أبي حنمة قالت والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت وكنا ناتي منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال إنه الانطلاق



يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا قالت فقال سبحانه الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر ( تعنى زوجها ) فعاتب له يا أبا عبد الله لورأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت في إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يا سأمه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام



## المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفذت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهى مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم بذلك ، فأنحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه في شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو طه بن عبد المطلب إلى قريش فظاهروهم

أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهارا سرا وإعلانا مناديا بأمر الله لا يتقى فيه أحدا من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبني المطلب وأعظمهم في ذلك أثرأ كان هشام بن عمرو ، ومن بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فشى إلى زهير بن أبى أمية من بنى مخزوم ، وقال له يا زهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتكبح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينسكحون ولا ينكح اليهم :  
أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك  
إليه منهم ما أجابك إليه أبداً !! قال ويحك يا هشام إنما أنا رجل واحد والله لو كان  
معى آخر لقمتم فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟  
قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثا فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن  
عبد مناف فقال له مطعم أقدر رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد  
على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا  
قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا قال من هو ،  
قال أنا قال ابغنا ثالثا قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابغنا رابعا  
فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحوا بما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه  
فقال ابغنا خامسا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه  
وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى  
إليه من أحد . قال نعم : وسمى له القوم فأتعدوا حطم الحجرن ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا  
هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى بنقضوها . وقال زهير أنا أبدوكم قلبا أصبحوا  
غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على  
الناس فقال يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى  
لا يباعون ولا يبتاع منهم !! والله لأقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة  
فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها  
حيث كتبت ، قال أبو البخترى صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال  
المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ إلى الله منها وبما كتب فيها  
وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشور فيه  
بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها  
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ،  
ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب  
الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين



متقاربين في شهر شوال ، وكانت خديجة له وزهر صدق على الإسلام يشكو اليها وكان  
عنه عضدا وحرزاً في أمره ومنعة وناصر على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث  
سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى  
اعترضه سفيه من سفهاء قريش فثر على رأسه تراباً

رأى الرسول أنه لا بد له من عضد يوزاره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة  
ربه فذهب إلى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد إلى أشرفهم وذوى الرئاسة منهم وهم  
إخوة ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون جلس اليهم ودعاهم  
إلى الله وكلهم بما جاء به من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم  
ردا قبيحاً فبئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونوه ويصيحون به حتى اجتمع  
عليه الناس وأجثموا إلى حائط لعبية وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان  
يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن ددى يخبره أنه يدخل مكة في جواره فأجابه  
إلى ذلك ثم أساح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن  
ادخل فدخل رسول الله نطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففي ذلك  
يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفي

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك مالي مهمل وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعياً من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ  
عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوهوا دونه حتى يؤدي رسالة ربه فكانوا لا يجيبونه  
إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً : عرض ذلك على نبي عامر بن صعصعة  
فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن  
يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا  
للرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ! وعرض ذلك  
على نبي حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح رداً منهم

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في ثرب بين الأوس والخزرج وكانت  
الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على نبي عمهم  
من الخزرج فأرسلوا لذلك وفدأفيهم أبو الحيسر أنس بن رافع ولإياس بن معاذ فلما  
علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وما ذلك ، قال أنا رسول الله بمعنى إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال لياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه لياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت لياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعثت : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزرأ بعد أن انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج بجاهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونوه وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يحمدهم الله بك فسنقدم عليهم فدعوهم لا مارك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يحمدهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر - وفي الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار ابن قصي



وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبياً كبيراً من أسباب دخول أشرف أهل يثرب في الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه في ناديهم ، فقال يا بني الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمتنا نقيية ، قال فإن كلام نساتكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فرائه ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صبي بن الأسلت المكنى بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومه لم يزلوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحابهم بعد انقضاء تلك الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بني مازن ابن النجار الخزرجية وأسما بنت عمر وإحدى نساء بني سلمة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قوماً ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزم قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبي إلا الانحياز إليكم والحقوكم بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه وما نعوه ممن خالفه فأتتم وما تحلمتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد الخروج به إليكم - فمن الآن فدعوه فإنه في عزم قومه ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من

الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورتناها كبراً عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإنا قاطوؤها (ابن يهود المدينة) فهل عسيت : إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله - أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال فتبسم الرسول ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم يعني أنا منكم وأتم مني أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس فقال لهم : أتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة من بني عمرو « « « «

(٤) رافع بن مالك من بني زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور من بني سلمة بن سعد

(٦) عبدالله بن عمرو « « « « « « من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت « « غم بن سالم « «

(٨) سعد بن عبادة « « ساعدة « «

(٩) المنذر بن عمرو « «

(١٠) أسعد بن حضير من عبد الأشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيثمة من بني كعب بن حارثة « «

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبني النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبني عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان : والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد أن انتهت



المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشا فجاء رؤسائهم إلى منازل الأنصار وقالوا يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا استخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ولأنه والله ما من حتى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يخلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي بن سلول - وهو سيد من ساداتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم : ما كان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته فأنصرفوا عنه نفر الناس من منى وتجمست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمنون بها فخرجوا إرسالا رجالاً ونساءً لإيمان حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه قد أجمع الحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيلة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشرف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نجسسه في الحديد ونعلق عليه باباً ثم نترى به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصديه ما أصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا لكم برأى ابن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتهم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نمخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصحابنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأى !! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته علىلوب الرجال بما يأتي به لو فاتم ذلك ما أمنتهم أن يحل على حتى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إن لي لرأيا فيه ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شاباً نقي جلدأ

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطى كل قتي منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً . فرضوا منا بالعقل فعملناهم فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

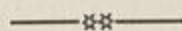
علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيا ما يلزم لهذا السفر : راحلتين ودليلاً خريئاً يأخذ بهما أقرب الطرق وانعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صباحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لثلاثين يوماً في وجوده بيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى تؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتنكوا به خرج إلى بيت أبي بكر ، وخرجا معا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لها الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليعنى أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذابهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أرميتا مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يميناً وشمالاً ولكنها عادت بالخبيثة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل - حسبما اتفقا معه - بالراحتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفاثم مدلجة



لقف ثم استبطن بهما مدلجة بجاج ثم سلك بهما مرجح بجاج ثم تبطن بهما مرجح  
ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم  
من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبايد ثم أجاز بهما الفاجعة ثم هبط بهما العرج  
وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن  
يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك  
يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو  
يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام  
وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فتبعه بفصلين أولهما في التشريعات  
المكية والثاني في آثار هذه المدة



## المحاضرة العاشرة

### التشريع المكي

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتي عشرة سنة  
 وخمسة أشهر و٢١ يوماً إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه  
 في أثناءها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي - وهواثنتان  
 وعشرون سورة - نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة  
 (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور  
 (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨)  
 المجادلة (٥٩) الحشر (٦٥) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون  
 (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر . وما عدا ذلك فهو مكي  
 وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لاجله وبين  
 روحه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي  
 أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾  
 ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لأحجة بيننا  
وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات بالنشريع الكلي  
وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون  
حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن  
مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعا لها منقاداً لمساجم فيها  
ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين  
من قبل) وأعلن أنه إنما جاء مصدقاً لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم - في سورة  
الأنعام - بعد أن قص عليه أسماءهم (أو تلك الذين هدام الله فهداهم اقتده) إلى غير ذلك  
وأهم ما جاءت به الآيات الملكية هو :

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .  
معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلاً منهم فلم يكن يد من مقاومة  
شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات الملكية  
على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان  
والأصنام وتعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتليحاً : ضربت الأمثال بالأمم  
السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل ، وكثرت  
ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة : لأن أشد ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم  
فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكراً في آيات الكتاب  
موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات الوهية  
الله وما أنصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن  
أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن  
الوقوع في هذا الشرك ، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلنا نرى سورة من  
السور الملكية الكبرى خلت من اسمه . ذكرهم بما كان عليه أبوم إبراهيم من كراهة  
الأوثان وتكسيها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت  
السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا  
ربي ، فلما أفل قال لأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال



لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذاربي ، هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة وجز ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لأهلهم من البهيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتماثيل لأن الأمر كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشعبة بالشئ الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الأوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة يد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الألف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع : ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الحديدية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها

(٢) إثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً ، وقد نصبت الآيات الملكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررت تكراراً عظيماً يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على أن العدل سيجري

بجراه بعد أن توزن أعمال الإنسان فن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب  
لذا لا يمكن أن يعقل في الوجود الإنساني من هو خير محض أو من هو شر محض  
والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت تديجتها في الناس  
وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أو صافا ترغيب وتخيف  
وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال  
الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنوانا  
على ما يناله صاحبه مهما دق ( ولا يظلم ربك أحدا ) ( فمن يعمل مثقال ذرة خيرا  
يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع  
إلى فعل الخير وأخبرهم أن الحسنه إذا تلت السيئة محنتها . والذي يفهم من القرآن أن  
الحسنات المؤثرة في محو السيئات إنما هي العملية

( ٣ ) بين لهم الحاصل التي تقرب إلى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق  
والمملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة الشورى ( وجزاء سيئة  
سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله ) ثم يقول ( ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك  
ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير  
الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور )  
ويقول في سورة الاعراف ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین )  
ويقول في الشورى ( وأمرت لأعدل بينكم ) ويقول فيها ( قل لأسألکم عليه أجرآ  
إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة زد له فيها حسنا إن الله غفور شكور )  
وقال في سورة فصلت ( ولا تستوی الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن  
فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ) جمع لهم في سورة الإسراء وصايا جميلة  
بأبداع أسلوب وأشدّه تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها اقرأوا - إن شئتم - من  
قول الكتاب ( وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ) إلى قوله ( ذلك مما أوحى إليك  
ربك من الحكمة ) وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن  
لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدورها ( وعباد الرحمن الذين يمشون على  
الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ) ، إلى آخر السورة ، واستقصاه



ذلك يستدعى وقتاً طويلاً وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأوهام حتى تعلموا بهم كأن يوصيهم وكيف كانوا يحيونه ؟؟ فإنه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزل الله عليه (٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدن منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقدعله الوحى كيف يؤديها - كما ورد في الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلها إنما كان عملياً لأن آيات الكتاب لم تبن بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة وقد نقلت نقلاً عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون بمن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول الله إلى الملاء الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم تتبعها بما يظهر لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلاً ، ويراد به - في لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السبل الممتدلة ويراد به صعود رسول الله إلى الملاء الأعلى الإسراء ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ليريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولسكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت ماثراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذى سمي في ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الإسراء : فروى عن معاوية بن أبى سفيان أن الإسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الإسراء

إنما كان بروحه لأن جسمنه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القوانين واحدة ، لأن الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات إذ لم يقل بهذا القول أحد لاعائشة ولاغيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم على شيء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحي للأنبياء ويستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى في السورة نفسها ( وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ) وقد قال الحسن البصري راوي حديث الإسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى ( وما جعلنا الرؤيا ) الخ

وجمهور المسلمين على أن الإسراء كان بجسمة ويستدلون على رأيهم بأن الإسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذي يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما في الأرض في رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواه عيانا وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الإسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحدا قام في وجههما رادا عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولها القول الحسن فأنزل الله في ذلك ( وما جعلنا الرؤيا ) الخ وعائشة زوج الرسول - وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة - أدري الناس بما كان من حوادثه التي أكرمها الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصا في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يرتدون عليه القول ردا شديدا في أسير الأمور فكيف بهذا الأمر الجليل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه في نومه



على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق - تمام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلي لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوامنه عليه السلام أسرى في الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب - ( لانسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون )

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعين فيه ما عين من أمر الله على أي حاله - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجه كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تنفق في شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة ميزات منها المرة التي كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه يجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأى من يقول بالإسراء الجسمي لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشق الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب . ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يتحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعليه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذي تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فإننا قلنا نجد من الأوامر المسكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة ما يخرج من الأرض في سورة الانعام (وأتوا حقه يوم حصاده) إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المسكية أن قارئها يحسّ فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المسكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تماؤوا عليه ومرة يرد أقبح ردّ من العرب الذين يردون الموسم ، وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما تلوه عليكم من الآيات <sup>(١)</sup> (ولتعلمن نبأه بعد حين) <sup>(٢)</sup> (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) <sup>(٣)</sup> (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) <sup>(٤)</sup> (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر) <sup>(٥)</sup> (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) <sup>(٦)</sup> (قل رب إمامتني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) <sup>(٧)</sup> فقد كذبوا (فسيا تهم أبناء ما كانوا به يستهزؤن) <sup>(٨)</sup> (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) <sup>(٩)</sup> (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون) <sup>(١٠)</sup> (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) <sup>(١١)</sup> (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) <sup>(١٢)</sup> (فارتقب إنهم مرتقبون) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتي ظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظائمهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجها أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشدداً ومنها كما حصل في حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أن رسول الله قابل جمعاً

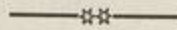
- 
- (١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر (٥) سبأ  
 (٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم (١٠) السجدة  
 (١١) السجدة (١٢) الدخان



من هؤلاء العظام فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علمني مما علمك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا في أولئك العظام ، فجاءه الوحي بقول الله ( عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعة الذكري أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبرى في بحثه أردنا أن نقول بكلمة فيه غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن المرضع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فنضيق الفائدة ؛ وبخشنا فأصر على الجهة التاريخية ، ولذلك تقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا



## المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال - الموائيق والعهود - أسرى الحرب -

الاسترقاق - لم شرع القتال - ؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدي ، الثاني : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأول - جاء في سورة الحج ، وهو أول ما نزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظللوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ألا قولهم ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى (وإن اتصرت بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق) ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر. ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم اتصروا على من ظلومهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الموضع الثاني - قوله في سورة البقرة المدنية (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وقاتلوا من حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه فإن قاتلوك قاتلواكم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله - فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالثمر الحرام، والحرمات تصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وقتلوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً في دينه لا يدين به إلا الله لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من نبي الإنسان: نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء - لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)



الموضع الثالث - قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سيدين للحث على القتال وهما (أولاً) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنه ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمسكة وحبل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وقتلهم حتى أضربوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتزيلهم الحزبية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع - قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولأن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الذين جانباً : ( فإن اعتزلوكم لم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فاجعل الله لكم عليهم سيلاً ) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كما ردوا إلى الفتنه أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم نخذوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ) بينت هذه الآيات أن لاسبيل المؤمنين على من اعتزل الفتنه وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس - قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة

الموضع السادس - قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنه والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع - قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نكثوا أيماهم وهمرا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة؟ أتخشونهم؟  
فإنه أحق أن أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية سبباً لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن في  
الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً  
والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد أبيع لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قد ماثلوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب  
حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد  
مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تضمنه به تلك العهد فأمر المسلمين بقتلهم كما جاء في  
سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم  
الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن  
يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمازهم من يهود المدينة فلما اتحد  
معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم  
كافة) فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم  
في سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً  
عن أنفسهم، وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها وأعلن أنه لم يجيء متعدياً  
بنيته عن الاعتداء وأنه ينجح إلى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلبية ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله  
عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن  
الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم  
وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

#### العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكرهه الإخلال بها  
وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام: قول الكتاب في أول  
سورة المائدة «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهد» وقوله في سورة الإسراء (وأوفوا



بالعهد إن العهد كان مستتراً) وقوله في سورة النحل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) وقال في السورة نفسها بعد ذلك (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم ، وأظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكروهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الأنفال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سرّاً ضدكم قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوى الميثاق وأنها تحمى الواصل إليها

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وإن كان - المقتول خطأ - من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بمينه هو الذى أوجبه في قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فإن كان من قوم عدول لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعله للسلام أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »  
أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال « حتى إذا أئتمتمهم  
فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ، لجعل ماخير فيه  
أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض  
ولم تر في الكتاب غيرهما

وأما ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ،  
فقد قال في سورة المؤمنين المكية « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو  
ما ملكت أيمنهم فإنهم غير ملومين » وقال مثل ذلك في سورة المعارج المكية  
أيضاً أي قبل أن يحصل من المسلمين أي حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية  
« فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمنكم ، ثم رغبتن شديداً في  
تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى - أنه جعله في سورة البلد المكية من أول الواجبات على الإنسان إذا  
أراد أن يشكر الله على نعمه فقال بمئتنا على الإنسان « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين  
وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم  
ذي مسغبة يتما ذا مقربة أو مسكيناً ذا مقربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر  
وتواصوا بالرحمة ، أو تلك أصحاب الميعنة ، لجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها  
يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية - أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهماً من ثمانية يعني أن الإمام  
الذي يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب

الثالثة - أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجرم فقال  
في كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، وقال في كفارة  
الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن  
يتأسوا ، وقال في كفارة اليمين « فكفارتها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون  
أهلكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، ذلك كله فضلاً عن الترغيب الكثير من



صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها هذا ما أحببنا أن نورد على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لأن ذلك علماءهم أدرى به منا وركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للدورخ بتجاوزه

### حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي رانوءاء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلمها على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها فلم يلبثا يارسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة (لناقته) حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضع جراتها فبزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إن شاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المرشد الذي بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يارسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه <sup>(١)</sup> فاتخذ مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومسأكنه فانتقل من بيت أبي أيوب إليها ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو مجوس أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلاً منهم

ومن أول الأعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعادهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن

---

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابني النجار ثامنوني بمناطكم فقالوا لا والله لانطاب ثمنه إلا إلى الله . ويروى أنه أبي إلا بالثمن والذي اخترناه هو رواية ابن إسحق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخاري

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين - ماداموا محاربين - وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويتول تأخوا في الله أخوين

وبعد أن تمّ ذلك بدأت الأعمال العظيمة التي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشريش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة : الأعمال الحربية - التشريع - الأخلاق التي ساس بها أمته

## المحاضرة الثانية عشر

ودان -- بواط -- العشيرة -- بدر الكبرى -- بني قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو أمكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أو طاهمهم مرغمين فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثني عشر شهرا أخرج في صفر من السنة الثانية إلى ودان (١)

(١) سمي المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم



وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة ابن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة<sup>(١)</sup> فلقى بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللسبلين حامية . وبعث في هذه المدة حمزة بن عبدالمطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص<sup>(٢)</sup> في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

#### بواط<sup>(٣)</sup>

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى العشيرة<sup>(٤)</sup>

في جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليلالي من جمادى الثانية ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفي مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار<sup>(٥)</sup> من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

#### سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة فليلاً بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر لم يحارب وما خرج فيه أحد قاداته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قرية من الجحفة التي هي على أربع مراحل من مكة وست من المدينة (١) ثنية في شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريباً من قديد (٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان<sup>(١)</sup> من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبدالله بن جحش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه ( إذا نظرت كتابي هذا فاض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم ) فضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأمر بها عبدالله هو ومن معه ( ولم يكن هذا ما بعثوا له ) وصموا على أخذه وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأثرانان وهربا بعمهم فأخذوا العير والأسيرين وقد موأبهم إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم ؛ وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ولما كثرت الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله ( يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصدعن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ) يعني إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكبها هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

### بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

(١) واد من ناحية بدر



من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ،  
فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلسكموها فانتدب  
الناس نخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول ياتى حربا  
وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الأوس  
و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير  
أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً  
إلى أمرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى  
مكة وصرخ ببطن الوادي - يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة يامعشر قريش أموالكم  
مع أبي سفيان قد عرض لها محمداً في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فجهز الناس  
سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا فكانت عدتهم بين التسعمائة  
والألف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون  
من رمضان ( أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصرى ٥ مارس سنة ٦٢٤ )  
حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى  
إذا قارب بدرأ جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس  
بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسننا ، وقال له المقداد بن عمرو امض يا رسول الله  
لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت  
وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون  
فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد <sup>(١)</sup> لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه  
فقال له الرسول خيرا ثم قال أشيروا علي أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار ، لأن  
العدد فيهم ولم تسكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونهم ما دام في ديارهم فكان يتخوف أنهم  
لا يرون نصرته إلا على من دمه في المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى  
عدو خارج ديارهم ؛ فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؛ قال

(١) موضع أقصى أراضى هجر

أجل فقال له سعد قد آمنابك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فاهض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا الصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ؛ ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبا من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالهير وإن قريشا وراء وادي بدر - وكان أبوسفيان قد ساحل بالهير فنجأ ، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبوجهل وقال والله لا نرجع حتى يدبدرأ ( وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام ) فقيم فيه ثلاثا فنحز الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتنزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا ويجمعنا فلا يزالون يهابونا أبدأ بعدها فامضوا : ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبي جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بني زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدرأ في صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بني عدى أحد : مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ؟ وقال له يا رسول الله رأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلك الله ليس لنا أن تقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! : قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نعور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأي وفعل كما قال

ثم إن سعداً قال للرسول يا رسول الله ألا نبني لك عربشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فالحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يابني الله مانحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك



يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأنتى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

نُراى الجيشان : فلم يكن بدمن الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ ( ١٣ مارس سنة ٦٢٤ ) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وابنه الوليد وأخوه شيبه فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبه وعلى بإزاء الوليد فأما حمزة وهلى فلم يمهلأصاحبهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبه فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذقفا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الفئة كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون : ولما انتهت الواقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم لجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبدالله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر - زيد ابن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالباً فى عداوة المسلمين بمكة يكثُر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فزقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزة بن ابن عمير : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع فى يدرجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردتها على أحدهم فيردها على ما عسها وكان أبو عزة هذا صاحب لواء المشركين بيدر

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش في الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم ، وكان رأى أبي بكر وأكثـر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء ( وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال ) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يجرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله ( ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا بأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له ( يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم )

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة السكتانية نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الانفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الانفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغنائم : وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولنظمتن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتسكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتسكلم : فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطاقة فإنه عددهم كان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقونها ، وقريش كانت بين التسعمائة والألف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين



وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم ما لا يخفى مكانه . ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فإن الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهمزمت بقيتهم لا تلوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم وانفون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله ثديتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أعز شيء في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهيم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة لإحدى الحسنين وكل هذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متواليه الورود

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ما قيل منه ما قالته قبيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كبا إن الأيمل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعني النضر إن ناديتيه	أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أحمد ولدتك خير نجية	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفتى وهو المغيط المحنق؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن	بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه توشه	لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - لما بلغه هذا الشعر -

لو بلغني هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

### الكدر

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى ساييم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

### السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر الأييس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى - كان من المدينة - على نحو بريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حتى بنى أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخاعها ووجدوا رجلين من الأنصار قتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذروهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإني تخيرت المدينة واحداً	لخلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميئاً مدامه	على عجل متى سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت - ولم أكن	لا فرحه - أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر ولأنهم	صريح لؤى لا شمايط جرم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أنى ساعياً من غير خلة معدم

### ذى أمر

لمارجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفرأ كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلاً منه

### الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن



بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا

### أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ابن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد لا يفرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرا بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع ، سبها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديا معييا فصاحت مستغيثة فأغاها رجل من المسلمين فقام إلى اليهود فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداة بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدطم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقبهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

### أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طي ثم من بني نهبان وأمه من بني النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خبير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزله امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طعنت رجا بدر لمهلك أهله      ومثل بدر تستهل وتدمع  
قتلت شراة الناس حول حياضهم      لا تبعدوا إن الملوك تصرع  
كم قد أصيب به من أبيض ماجد      ذى بهجة تأوى إليه الضيع  
طاق اليدى إذ السكوا كب أخلفت      حمال أثقال يسرد ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم إن ابن الأشرف ظل كعبا يجزع  
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلها وتصدع  
صار الذي أثر الحديث بطعنة أوعاش أعمى مرعشا لا يسمع  
نبئت أن بني المغيرة كلهم خشعوا القتل أبي الحكيم وجدعوا  
وابنا ربيعة عنده ومنبه مانال مثل المهلكين وتبع  
نبئت أن الحارث بن هشامهم في الناس بنى الصالحات ويجمع  
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحمى على الحسب الكريم الأروع  
ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام فقرأ من  
الأنصار فقتلوه جزاء خيائته العهد

## المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فاهم إلى مكة ورجع أبو سفيان  
بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصة وان ابن أمية في رجال من  
قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب  
ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم  
وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلنا ندرك منه نارنا بمن أصاب منا  
ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحاديثها ومن أطاها من قبائل كنانة وأهل  
تهامة وكان أبو عزة الجمعي الذي من عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية  
أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد من عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك  
فلك الله على أن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصهرن  
ما أصابن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير  
ابن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له فذف الحبشة قلباً يخطئ  
بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد يعمى طعيمة فأنت عتيق فخرجت  
قريش بجدها وجدها وأحاديثها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم



بالطعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل يبطن السبخة من  
قناة على شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم  
أم يقيم في المدينة؟ فقال له عبدالله بن أبي بن سلول - وكان رأساً في الانصار إلا أنه  
كان يضمر نفاقاً - نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر  
مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم  
أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فابس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع  
عشرة خات من شوال<sup>(١)</sup> حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس  
وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم قالوا  
استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ما ينبغي  
لنبي إذ البس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة  
حتى إذا كان بالشوط انخزل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلك الناس، وقال أطاعهم  
وخصاني ما ندرى علام تقتل أنفسنا هنا أيها الناس؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم  
أهل نفاق وريب وعضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى  
جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتن أحد منكم حتى تأمره بالقتال ثم  
تبي عليه السلام القتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وقال  
له انضح الحبل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فائتت مكانك  
لا تؤتينا من قبلك، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير. وتعبت فريش وهم  
ثلاث آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن  
الوايد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني  
عبد الدار يابني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما  
يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا وإنما أن تكفونا لواءنا وإنما أن تخلوا  
بيننا وبينه فشكفكموه فهموا به وتواتروه، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً

(١) حسب تقويم مختار باشا المصرى كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه

(١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان  
التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلون من المسلمين  
منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجاجة سماك بن خرشة الساعدي وعلي بن أبي طالب  
وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزله الله عليهم نصره وصدقهم وعددهم فحسوا وعدوهم  
بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها - إلا أن الرماة لما  
رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة  
المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة  
فاختلص صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعتة لقريش  
فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ، وبما زاد في  
دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلاً قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً  
قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو  
وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلع العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وحتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصابت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته  
ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها  
أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب يده ورفع طلحة  
ابن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار  
يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقالت في ذلك اليوم  
أم نسيبة بنت كعب وهي من بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقى الماء فلما  
رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه  
بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحاً شديداً ، وقدامتاز جماعة  
من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجاجة  
وكان النبل يقع في ظهره وهو منحني على رسول الله حتى كثرت فيه النبل ومنهم سعد  
ابن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف  
كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد  
الأنصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه  
السلام أن انصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض معهم نحر الشعب



معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل  
أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من  
الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدادأمنها عن فرسه مراراً وخذش  
في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد  
الذي قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس  
جاء به إلى الرسول ليشرّب منه فوجد له ريحاً فعاقه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه  
الدم وصب على رأسه . وبينما هو بالشعب معه أو تلك النفر من أصحابه يمنعونه  
إذعلت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأّت بما فعلت أنها قد شتمت أنفسها مما تجد من عار بدر فكتفت  
به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته - بحيث يسمعه  
من في الشعب - وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ،  
فقال عليه السلام تم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لاسواء : قتلتنا في الجنة وقتلناكم  
في النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إلى يا عمر ، فقال له الرسول ائنه  
فانظر ماشأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أفنلتنا محمداً ؟ قال عمر اللهم  
لا وإنه أيسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندي من ابن قريظة وأبرّ ثم نادى  
أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله مارضيت وماسخطت وماأمرت ومانهيت ، ثم  
نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد  
وكان الذي يهيم الرسول صلى الله عليه وسلم في موقفه أن يعلم ذات نفس قريش ،  
أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فأرسل علي بن أبي طالب فقال اخرج في أثر  
القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ ومايريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل  
فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي  
نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن إليهم فيها ثم لانا جزئهم فخرج علي في أثرهم فرآهم  
جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفعوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى  
ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولوت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها ليمكن لها رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بنى ديار من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعاها قالت فافعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يأم فلان هو محمد الله كما نحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه ؟ فأشير لها إليه حتى إذا رآته قالت كل مصيبة بعدك جلال - تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطاب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأسد وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليطنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا باسم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حرام الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثني والثلاثاء والأربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکہم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنده شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ؛ فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بجمراه الأسد وسار حتى اتى أباسفيان وأصحابه بالروحاء ؛ وقد جمعوا الرجعة فيهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحداً أصحابه وأشرفناهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنسكركن على بقيتهم فلنفرغن منهم البارأى أبوسفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عنايكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحق عليكم - شيء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فتنبئ ذلك أباسفيان ومن معه والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم برده بخاطر كل إنسان حينئذ يترنك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ؛ وانهمز عنهم كثير ثم علوا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ؛ ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا



عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولاذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الانصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجاتهم فيكون ماتكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون وبما يدل على ذلك أن أباسفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجموا فرجعوا وعند انصراف الرسول من حراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي الذي من عليه بعد بدر ، فقال له أفنى يا محمد فقال عليه السلام والله لا نسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدمت محمداً مرتين : لا يدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيتهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً

أنزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن : في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مآئد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله فأمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتلقوا فلكم أجر عظيم وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم - بالطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غز المسلمين والشتمات بهم (٧) إعلان العفو عن المنزومين (إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما

استزلم الشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم ( ٨ )  
النساء على شهداء الواقعة والإخبار أنهم ( أحياء عند ربهم يرزقون فرحين  
بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف  
عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين )  
وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثانی يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعدهم  
الذين أحسنوا منهم واتقوا أجرأ عظيماً

وقد قيل في هذه الواقعة كثير من الشعر العربي قاله قريش والمسلمون : نقله  
ابن هشام في سيرته

### يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما  
بطنان من خزيمية بن مدركة فمالوا يارسول الله إن فينا إسلا ما فلوأرسلت معنا نفرأ  
من أصحابك يفقهوتنا فيديننا ويقرموتنا القرآن ويعلموتنا الاسلام فبعث معهم ستة  
من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع  
غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم  
السيوف قد غشوه فأخذ المسلمون أسياهم ليقاتلوه فقالت لهم هذيل إنا لا نريد قتلكم  
ولسكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم  
فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون  
فقتل أحدهم بالطريق والآخران بعبابكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو  
زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أشدك الله يازيد أنتحب أن محمدأ عندنا  
الآن في مكانك يضرب عنقه وأنتك في أهلك قال والله ما أحب أن محمدأ الآن في مكانه  
الذي هو فيه تصيه شركة تؤذيه وأنى جالس في أهلي فيقول أبو سفيان مارأيت من  
الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدأ

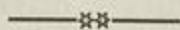
### حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر  
ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامري فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم



ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجلا من أصحابك إلى أهل نجد فدهوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبيوا لك ، فقال عليه السلام إنى أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معوتة وهى بين أرض بنى عامر وحررة بنى ساهم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم : عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم فى رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلهم حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمري لأنه كان فى الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحا قدظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بنى عامر فاغتاها وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينيهما



## المحاضرة الرابعة عشرة

إجلال بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق  
وقريظة — بنى المصطلق

### إجلال بنى النضير

خرج عليه السلام إلى بنى النضير يستعينهم فى أمر ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا لأنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن

رجل يعلو هذا البيت فباقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال - ورسول الله في نفر من أصحابه - فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدربه وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فححصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافق أهل المدينة إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلحكم ، إن قوتكم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دماهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم عين حكم الأموال التي تركوها وسماها فيتاً وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله ( لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلاً يكون دولة بين الأغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لعد

### ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بني محارب وثلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلاً اتى بها جمعا عظيماً من غطفان فنقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

### بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعده أبي سفيان بخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدرأ وأقام ينظر بأسفيان أقامها فإنه خرج بمرش



حتى بلغ مجنة أو عسقان ثم بداله فقال أيها الناس إنه لا يصالحكم إلا عام خصيب  
ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع  
فارجعوا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذته الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها  
الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون

### الخنديق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم  
جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعواهم إلى حرب رسول الله وقالوا  
إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب  
الأقول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم  
خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشا ونشطوا لما دعواهم إليه فاجتمعوا  
لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعواهم إلى مثل ما دعوا  
إليه قريشا وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا  
معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم  
عينة بن حصن في بني فزارة والحريث بن عوف في بني مرة ومسعر بن دخيلة في بني  
أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخنديق على المدينة  
بإشارة سلمان الفارسي وقاسي المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه  
ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا به جمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة  
في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذي ندى إلى جانب أحد وخرج رسول  
الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب  
هنالك عسكره والخنديق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام  
خرج حبي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة  
وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته  
حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه  
ثم قال - إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر ويحطام جنتك بقريش على قاداتها وساداتها  
حتى أنزلتهم بذنب نعمي وقد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل

محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم بهم أكره مما بهم أمر قريش وخطفان لأن هؤلاء في بلدهم والحياطة منهم تؤثر كثيرا في مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخصب ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد؟ فشا تمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عباد دع عنك مشاتمهم فما بيننا وبينهم أربي من المشامة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلوه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعا وعشرين ليلة لم يسكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمرا يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان قبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عباد فاستشارهما فيما رأى فقالا يارسول الله أمرا نحب ففصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبعأ أخينا أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه وأندق عنقه ومنهم من برز له شجاعا من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر:



جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يا رسول الله إني أسلمت ولم يعلم قومي  
يا سلامي فرني بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد نخذل عنا  
ما استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية  
فقال يا بني قريظة قد عدلتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم وإن قريشا ليسوا مثلكم .  
البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدر أن تتحولوا منه إلى غيره  
وإن قريشاً وغطفان قد جاؤا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه وبلدهم وأهلهم  
ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلصوا بينكم  
وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً  
من أشرافهم يـكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأى ، ثم خرج أتى قريشاً  
فقال لأبي سفيان بن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودي لكم وفراقى  
لمحمد وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود  
قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا  
فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبياتين قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنعطيهم  
لك فنضرب أعنانهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم  
أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً  
ثم جاء غطفان فلعب ببعقوهم بمثل ذلك :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة  
عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا اسنا بدار مقام قد هلك الخف  
والخافر فاعدوا للقتال حتى تناجز محمدأ فقالوا لهم : إن غداً السبت ، وهو يوم  
لا نفعل فيه شيئاً واسنا مع ذلك بالدين نقاتل محمدأ معكم حتى تهطونا رهناً من رجالكم  
يكونون بأيدنا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بذلك الرسالة تأكدت قريش  
وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم أحداً  
من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فأتاكدت قريظة حينئذ مما قال لهم  
نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ إلى القلوب  
الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جنود وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة  
شانية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان  
ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ  
من جلسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت له من أنت ؟  
قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد  
هلك السكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره واقينا من شدة الريح  
ماترون ما نطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل  
ثم قام إلى جملة وهو معقول لجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله  
إلا وهو قائم فنبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم  
وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم  
عدو أكثر منهم عدداً فكان يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقاته  
الاعداء واضطروا - بحكم ما هم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التي تفرق بين  
الاعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عافوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع  
عما استكن في أنفسهم من العداة الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً  
يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب - أن يتوجه المسلمون إلى بني قريظة  
ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة  
حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم  
فحكّم عليهم - كما يناسب جرمهم - وهو قتل مقاتلتهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون  
من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبدالله بن أبي في مواليه من قينقاع بإجلالهم فلم يرض  
ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس  
المزّة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر  
لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون  
وأولها قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا  
عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاء ركن من فوقكم ومن أسفل  
منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى



المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وخطفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب ( ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم ( وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً )

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكله وقدمات بعد حركه على بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مرافق مهمة بين الفريقين بعد ذلك

#### بني حيان

أقام عليه السلام بالمدينة - بعد الخندق - إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بني حيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بقران وهو واد بين أميج وعسفان ينزله بنو حيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رموس الجبال فعاد إلى المدينة

#### ذى قرد

لم يتم بالمدينة إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن - في خيل من غطفان - على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فقدر بهم سلمة بن عمرو بن الأكواع الأسلي فأشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكواع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هارباً ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكواع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فتراهت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك بغير جوا يشتدون في أثر القوم حتى أدركهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد يوما وليلة ثم عادوا قائلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد

### بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ما لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أهوالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للذين على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما علم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

### الحدبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربته وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين؛ فسار بهم حتى بلغ الحدبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمان به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا بدخلها علينا عنوة أبدا ولا نتحدث بذلك عنا العرب !! ثم



بعثوا اليه رسولا آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلا ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتأهلون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يامعشر قريش ما على هذا حالنا كم أیصد عن البيت من جاء معظما له؟ والذى نفس الحليس بيده لتخان بين محمد وبين ما جاء له أو لفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه - كف عنا يا حليس حتى نأخذه لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يا محمد أجمعت أو باش الناس ثم جئت بهم إلى بیضتك لتفضها بهم إنما قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدأ وأیم الله لكأنى هؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا یحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كله عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم یأت يريد حربا وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يامعشر قريش قد جئت كسرى فى ملكة وقیصر فى ملكة والنجاشى فى ملكة وإنى والله ما رأیت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأیت قوما لا یسلمونه لشیء أبدا ، فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك عمر بن الخطاب لیرسله إلى قريش حتى یبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر یارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وایس بمكة من بنى عدى أحد یمعنى وقد عرفت قريش عدوانى لها وغلظتى علیها ولكنى أدلك على رجل أعزبها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أبى سفیان وأشرف قريش یخبرهم أنه لم یأت للحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقیه أبان بن سعید بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى یبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شدت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال لا تبرح حتى

تناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له انت محمدأ فصالحه ولا يكن في صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل لجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه :

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الرماح ، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا عالياً ليكتب الكتاب بذلك فأبى عليه باسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أبى هذا ما صلح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين أردد إلى المشركين يفتنونني في ديني ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل - عملاً



بوثيقة الصالح - عملاً بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) :

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصبح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يظفروا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضىها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تابق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يا رسول الله ألسنت برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطي الدنية في ديننا قال أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره وإن بضيعني : لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحال المسلمون من عمرتهم بنجر الهدى وحلق الرموس أو تقصيرها فاجر عليه السلام وحق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤسهم أنزل الله في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب إلا لأمنيتها فتفرغ عليه السلام لمسكينة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحى في نيل ذلك إنما هوشى قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون - ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ما سيعتدرون به ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعان رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التي من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شرّ قريش وصارت لهم الحزبية يسرون حيث شاؤوا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ما حلّ بهم وإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

فخرج في محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومههم على أثر بعث الرسول إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدرا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب عهدة الحديبية فوصل إليها في ذى القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مضطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمراً أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهول وأصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف إلى المدينة في ذى الحجة

#### مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي ، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهزتلك السرية للقصاص من قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة ، فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام



فبلغ الناس أن هرقل<sup>(١)</sup> قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم في العدد القليل ، فساروا حتى إذا كانوا يتخومون البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فأنحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذلك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عددا كثيرا أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جدا في جانب مائتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل في هذه الواقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسيبه إليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان إلا اثنا عشر نفرا

#### فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا . وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتنتمتها بنو الدليل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقادهم نوفل ابن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فالضموا إلى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

(١) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قبضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرده اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

فيهم يخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فأشده شعرا يخبره فيه بنقض قريش لهدهم ومظاهرهم لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج بدليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة . أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والنهوض ولم يسكن يجب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج في هذا الحيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر ماضين من شهر رمضان سنة : ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بمنزلة الظهران قريبا من مكة

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين . وبينما المسلمون بمنزلة الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبدليل بن ورقاء يتجسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من أتى بأبوسفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيرا حثيثا ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنتته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فذهب به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحملك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد قال ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يا رسول الله إن أباسفيان



رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعا ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده وانصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين إلا سداثة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

### «اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهي في أعقابها إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال مابه من الصور والتماثيل المختلفة وأمر حين - دخوله مكة - بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الإسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخاف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فإن قريشا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع تخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب

### أمر حين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حين

وشرعوا ينجحون فيه كانت هوازن وثقيف قد كمنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهبيء هؤلاء صفر ففهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمن وهو يقول هلوا إلى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمره فأجابوا ليك ليك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرا فلم تغن عنكم شيئا وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحصرهم مائة ، ثم عاد عنهم بديون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضتك اللاتي كن يكفلنك ولو أناملحنا للجارث بن أبي شمر الغساني أول للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائده علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونساءنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار



ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك ردّ عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فردّ عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولي على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

### تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأنّ الناهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنه بن ربيعة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباه وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله وحمد النبي رسول الله ليحنة بن ربيعة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يجل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسرّه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقت له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضعة عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصة الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

### التشريع في المدينة

بيننا فيما سبق أنّ الذي نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منه بأمرين (الأول) مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية وتعنى بالدينية ماشرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

### الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها في سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الأول) في قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثاني) في قوله (وأتوا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله ( والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) الآيات

ولم يحج عليه السلام إلا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة

### الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نعمل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من



العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الاغنياء للفقراء فهي أمر مالى محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عما يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله ماورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الاول - ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذى يسميه الناس الآن أحوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجي ولكننا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصى الذى ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهى ألق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضى لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سمينها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه

الثانى - ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث - ما يتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقده (ميثاقاً غليظاً) وامتد على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباساً للآخر (هت لباس لكم وأنتم لباس هت) ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهن ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أى تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء بينت فهى فى البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى فى سورة النساء عن تزويج نساء بينت من أول قوله تعالى «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» الآيات

وأجاز فى سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو إذا ما مور بالانتصار على الواحدة. والأسلوب الذى جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم

إن خفتهم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله ( فانكحوا ما طاب لكم من النساء منى وثلاث ورباع ) يعنى إن أمنتم أن تعدلوا فإنه قال بعد ( فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ) ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها ( ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة )

(٣) أمر بإعطاء النساء مهراً عند الزوج ( وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدئ به ولا ينتهى إليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرته امرأته ( فإمساك بمعروف ) البقرة ٢٢٩ ( فأمسكوهن بمعروف ) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت ( الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ) وهذه الرياسة لا تجعل لها امتيازاً في الحقوق فإن الكتاب يقول ( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف والمرجال عليهن درجة ) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكبرن حياة الزوجين اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأقول الأمر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكرامة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج ( وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تسكروهن شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ) وأى زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها الشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها للسعى في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحاً فقال ( وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما )

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما ( وإن يفرقا يغن الله كلا من سعته ) وشرع في



الكتاب نظاما للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصيات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم اتئلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الأول أن في إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته بإحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج إلا إن كانت بذية اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة الميئنة. اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) ثم قال (فيذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر المرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على المرسع قدره وعلى المفترقه قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال «فتمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقال «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام

«٥» فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) ثم بين تلك الأنصبا بياناً تاماً في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إثمًا يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا الصرف في أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوى فالذين يقولون ليس في الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب

## المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات - الحدود - الدعوة وتأثيرها

### المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات في مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكله أشنع تمثيل كما ترونه في سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولانسا ما أن تكسبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسن عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تدبرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكسبوا) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذمهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من أوتمن أن يؤدي أمانته



هذه هي الأصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الأول) (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (الثاني) في آخر السورة حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) إلى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يدين زينتهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحضر أقارب لهن سهاً في سورة النور وأمرهن في الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لا يتعرض لهن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر في النحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإلفهم

#### الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، وأثبت في سورة الإسراء أن من قتل مظلوماً قد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان يولى الدم عند العرب أقرب عاصب الإنسان (ويتولاه الآن ذر الولاية العامة فهو الذي صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم بعد لها أثر) وبين في البقرة أن كتب القصاص في القتل وأن القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأثني بالأثني ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة «الأول» حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة  
«الثاني» حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذا الحدان في سورة النور  
«الثالث» حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد «الرابع» حد قطاع الطريق  
وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم  
أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفقهم من الأرض ، وقد ذكر الكتاب  
تلك العقوبات على شكل التخيير . ولكن الفقهاء وزعوا على جرائم مختلفة وعلى كل  
حال فإن الكتاب قال (فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم)  
وهذان الحدان في المائة

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساساً لأعمال  
المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتوسعوا فيما أشرنا إليه  
الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم  
وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين  
سموا بالانصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق  
أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه  
إلا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الإسلام وأضربوا خلاف ما أظهروا  
فسماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإنني  
لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس  
حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لمسامات عبد الله بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه  
في قبره ونزل في قبره مع أنه كان سيئاً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان  
يتألف قلوب القوم ويودّ لو يكون باطنهم كظواهرهم لأن في هذه قوة كبرى  
ودخل في الإسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه  
السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن  
النتيجة كبيرة قبل أن يذنب الحاح مع قريش ، ومما يزيد النزدة عندهم أن الحرب كانت بين  
القريشيين سبباً إلا فإن انتصر المسلمون بيدرفقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في  
الحنديق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك



كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الإسلامي فكان ذلك سببا مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر . حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر بيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفراجا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجهه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عم من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الإسلام وفي مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أبأها عليهم وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أباسفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم ( اللات ) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سناً لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف رذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاماً ومن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطار بن حاجب بن زرارة والأقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه علي خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينياً ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفخر - وأولها

نحن السكرام فلا حتى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ر بما كانت أحسن ما قال حسان وأولها

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع  
يرضى بهم كل من كانت سريره تقوى الإله وكل الخير يصطنع  
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا  
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع  
ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبي إن هذا الرجل لمؤثله لخطيبه أخطب  
من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم  
أسلموا وأجازهم عليه السلام

وعن وفد من قيس : بنوعامر فيهم عامر بن الطفيل وأريد بن قيس وكان بنوعامر  
قالوا لابن الطفيل يا عامر إن الناس قد أسلموا فألم قال والله لقد كنت آليت أن  
لا أتهمى حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار إليهما ضمرا  
غذرا فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بنى سعد بن بكر وكان وانداهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلا جلدا أشعر  
ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبدالمطلب فقال عليه  
السلام أنا ابن عبدالمطلب قال أحمد قال نعم قال يا ابن عبدالمطلب إنى سائلك ومغالب  
عليك فى المسئلة فلا تجدن على فى نفسك قال لا أجد فى نفسى فسئل عما بدالك قال أنشدك  
الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آله بعثك إلينا رسولا ؟ قال  
اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك  
به شيئا وأن نخضع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال  
فأنشدك الله الخ آله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل  
يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها  
حتى إذا فرغ قال فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وسأؤدى  
هذه الفرائض وأجذب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه  
فما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما بعد أن علمهم  
الإسلام وشرائعه

وعن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان  
نصرانيا فألم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام



ومن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب  
لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا  
إلى بلادهم ارتد مسيلة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكي بها القرآن  
ومن وفد عليه من قحطان زيد الخليل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال  
عليه السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاني إلا رأيت دون ما قيل فيه  
إلا زيد الخليل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخبير وأقطعهم فبدأ أرضين معه ، ثم  
وفد عليه من طيء عدى بن جاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته  
ثم أقبل عليه وفود من مراد وزيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم  
وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين ومغافروهمدان وبعث إليه  
زرعة ذوزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومغافرتهم الشرك وأهله فكتب إليهم  
الرسول عليه السلام كتابا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتيب رسلا من أصحابه  
يفقهون الناس في الدين

ومن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم  
من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه لخبسوه  
ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمى ومقامي

ثم قدم عليه وفد بنو الحارث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سأهم عليه  
السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدا  
أحدنا بظلم ثم قدم عليه رفاة بن زيد الجذامي وافدا عن قومه وقدم وفد همدان  
يتقدمهم ذو المعشار المسكني بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجا حتى كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة  
عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كاهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه  
وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا  
القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان في وسطهم كثير من  
الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لاساداتهم ولم ترك أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل  
فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هدبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الاعراب أشد كفرأ ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أتى على آخرين منهم فقال «ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعائه إلى الملوك ورؤساء الامم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الازمنة وتلك الحكومات لا بد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذائمه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك)

ونقل هنا مارواه ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لانجد أمنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزاة فقد مناهما حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبأخه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حصن منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه ماورد ليصلى في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأشرف الروم أصبح ذات غداة مهموما يقرب طرفه إلى السماء فقال له بطارقه والله لقد أصبحت أيها



الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت في هذه الليلة أن ملك الحتان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختنن لإيهود وهم في سلطانك وتحت يدك فأبعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله إنهم لني ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشام والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاد عجب فسله عنه فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سل ما كان هذا الحادث الذي كان ببلادك فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد أتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فزكناهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جرّده فإذا هو محتنون فقال هرقل هذا والله الذي رأيت لاما تقولون فأعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله إن البغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبو سفيان أنا فقال أدنه أدنه فأقودني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فإن كذب فردّرا عليه فوالله لو كذبت ماردٍ اعلىّ ولكني كنت امرأ سدياً أتكرّم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبت أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عنى فلم أكذب فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى لجملة أزهده شأنه وأصغره أمره أقول له أيها الملك ما همك من أمره إن شأنه دون ما يلغك لجملة لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئني عما سألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أو سطنان سبنا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكة قلت لا قال فأخبرني عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذور الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرني عن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقره ويفارقه قلت سأبعه برجل فقارقه قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وتدال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً المسألني عنه أغمره فيه غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا آمن





وسلم قال مزق الله ما بينكم ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعث إلى هذا الرجل  
الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدتين فليأتياني به فاختر باذان رجلين ممن عنده بكتاب  
إلى رسول الله يأمره أن يصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابل النبي صلى الله عليه  
وسلم قال أحدهما إن شاهنا شاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن  
يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتتطابق معي وقالوا قولنا تهديديا في ذلك الوقت  
كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من  
الوحي فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا  
أفنت كتب هذا عنك ونخبه الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولاله إن ديني وساطاني  
سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولاله إن أسلمت أعطيتك ماتحت  
يدك وما سكنك على قومك من الأبناء فخر جامن عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر  
وبعد قليل جاء كتاب يقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه انظر الرجل الذي  
كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سببا في إسلام باذان  
ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعث وهو الذي بعث  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التي  
بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي وبعث العلاء بن الحضرمي  
إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جعفر وأخيه عباد الأزد بين  
بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته  
ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سببا في إجابة بعض وشاغلا لفكرة الآخرين  
فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف  
اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات

## المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته - ختام القرآن - الوفاة

### صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الإسلامية على يدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة - حينما أخبرها بأمره أول مرة - ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الأخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل إلينا

النظافة الظاهرة - مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على النظافة ، وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر في طريق فيدبعه احد إلا عرف أنه سابه من طيبه وكان يصانح المصانح فيظل يومه يجد ريحها العقل والذكاء - لامية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدييره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقزره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهية ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمثل الأفاضل والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزاله قول وصحة معان وقلة تكلف أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها



ويحاورها بلشتمها ليس كلامه مع قريش والانصار واهل الحجاز ونجد ككلامه مع  
ذي المشعار الهمذاني وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين  
في المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله  
(لاخير في صحبة من لا يرى لك ماترى له - الناس معادن - ماهلك امرؤ عرف قدره  
المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم - رحم الله عبداً قال خيراً فغتم أو سكت فسلم  
إن أحبكم إلىّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً  
الذين يألفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله - اتق الله حيثما كنت  
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا  
قليل من كثير . قال له أصحابه يوماً ما رأينا الذي هو أفصح منك قال وما يعنى وإنما  
أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيداني من  
قريش ونشأت في بني سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ  
الحاضرة وروثق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو  
عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال (خذ العفو وأمر بالعرف  
وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي  
من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقاله (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)  
وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن  
عزم الأمور) ولاخفاء بما يؤثر من حله واحتماله . كل حلیم قد عرفت منه زلة وحفظت  
عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلياً  
قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختار أيسرهما  
مالم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إذا انتهك حرمة  
الله فينتقم لله بها . ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لودعوت عليهم فقال إنني لم  
أبعث لعانا ولسكني داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فلم يقتصر على  
السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له  
الرجل اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله  
ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل  
ونهي من أراد من أصحابه قتله . لم يؤخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المناققين بعظيم ما نقل عنهم

في جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا تلتا بتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حمله وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن تأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قریش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرهم رضا الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فإن محمداً يعطى يعطى عطاء من لا يخشى فاقه وأعطى غير واحد مئة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناها فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلنا لا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفرز عنه الكفاة والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فترة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بقلته والناس يفزون عنه وهو يقول أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبدالمطلب : فما روى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا الله ولم يغم لغضبه شيء . وقال علي كونا إذا حمى البأس واحترت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فأنطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والإغضاء - كان عليه السلام أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه



في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفس  
وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان  
يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله .  
وروى أنه كان من حياته لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه يكنى عما اضطزه الكلام  
إليه مما يكره .

حسن العشرة والادب بسط الخلق مع أصناف الخلق - قال علي في وصفه : كان عليه  
السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال  
قيس بن سعد بن عباد زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد  
حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه  
السلام اركب فأبيت فقال إماناً تركب وإماناً تنصرف فأنصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم  
ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد  
منهم بشره ولا خلفه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جلسيه أن أحداً  
أكرم عليه منه من جالس أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن  
سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار  
لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس  
بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا خاش ولا عياب ولا متداح ، يتغافل عما لا يشتهى  
ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافي عليها وقال أنس خدمت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ! وما قال لشيء صنعته لم  
صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ويجيب دعوة  
الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر  
وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط  
له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ويكنى أصحابه  
ويدعوهم بأحب أسمائهم تسكروا لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجاوز فيقطعه  
باتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا يخفف صلاته وسأله  
عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل  
عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم  
عزير عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ) . روى أن أعرابياً جاءه  
يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك يا أعرابي قال الأعرابي لا ولا أجملت  
فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى  
الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً  
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن  
أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان  
العشى جاء فقال عليه السلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى  
أ كذلك ؟ قال الأعرابي نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام  
مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يردوها إلا نفوراً  
فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها  
فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى  
عليها وإني لو تركتم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه  
السلام أنه قال لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإنى أحب أن أخرج  
إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيجتوز في صلاته

الوقار وحسن العهد وصلة الرحم - قال عبدالله بن أبي الحساء بايعت النبي صلى الله  
عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبعيت له ببقية فوعدته أن آتية بها في مكانه فنسيت ثم  
ذكرت بعد ثلاث جئت فإذا هو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت على أناهنا منذ ثلاث  
أتظنك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة لأنها كانت  
صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها  
فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذو رحمه من غير أن يؤثرهم  
على من هو أفضل منهم وقال إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحماً ماسة  
سأبها بيلها ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه  
نحن نكفيك فقال إنهم كانوا الأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم . وكان يبعث  
إلى ثوية مولاة أبي لُب مرزعتة بصلة وكسوة فلما ماتت سأله هل بقي من قرابتها أحد  
فقيل لأحد



التواضع - كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا ، عن أبي أمانة قال  
خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما  
تقوم الأعمام يعظم بعضهم بعضا وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويحبب دهوة  
العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حينما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز  
الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رث وعليه قطفة لا تساوي أربعة دراهم  
فقال اللهم اجعله حجا لارباب فيه ولا سمعة . هذا وقد أهدى في حجه ذلك مائة بدنة .  
ولما فتحت عليه مكة ودخلها يجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادت مس قامته  
تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تفضلوا بين  
الأنبياء ولا تحيروني على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له هون  
عليك فإنني لست بمالك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والامانة والعفة وصدق الالهجة - كان عليه السلام آمن الناس وأعلمهم  
وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى  
قبل نبوته الامين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاجكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في الجاهلية قبل الإسلام وروى عن علي أن أباهم قال له إنا لانكذبك ولكن نكذب  
بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب ( فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله  
يخمدون ) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول  
ما قال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم  
فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما  
جاءكم به فأنتم ساحر ! لا والله ما هو بساحر . وفي حديث علي في وصفه أصدق الناس  
لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحدا ولا يقرف أحدا  
ولا يصدق أحدا على أحد أي لا يسمع وشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد  
يخرج شيئا من أطرافه وكان كثير السكوت لا ينكلم في غير حاجة يعرض عن تكلم  
بغير جميل وكان ضحكة تبسما وكلامه فضلا لا فضولا ولا تقصيرا وكان ضحك أصحابه عنده  
التبسم توقيرا له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وامانة لا ترفع فيه الأصوات  
ولا تؤن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير

وعلى الجملة فقد كانت عليه السلام محلى بصفات السكال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له ( وإنك لعلى خلق عظيم ) . وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا مناصرين موازين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبت به التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلا عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

### البيت النبوى

كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهى أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها فى حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الأبناء فلم يعيش منهم أحد فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذى كان يكنى به عليه السلام وعبدالله الملقب بالطيب والظاهر . وأما البنات فكن أربعاً زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة - فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هى بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو الداص أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة وما لفلما رأى الرسول القلادة : رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أدله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فردّ النبي صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينب ويقول المؤرخون لأنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها على بن أبى طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعدهموت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع



زوجات لأغراض كثيرة سببها بعد أن نذكرهن  
كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنان توفيتا في  
حياته لإحداهما خديجة واثنان لم يدخل بهما وهاهي أسماءهن  
(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤي من قريش وكانت قبله عند  
ابن عمها السكران بن عمرو  
(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكرأ ويقال إنها كانت وقت العقد عليها  
بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفي النفس شيء من تقدير  
هذه السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي  
(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش  
(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف إليهن خديجة فنكون القرشيات ستاً من  
هذه البطون - عبد مناف - أسد بن عبد العزى - مخزوم بن يقظة - تيم بن مرة - عدى بن  
كعب - عامر بن لؤي

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمه ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته  
وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للنبى صلى الله عليه وسلم  
وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبنى فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم  
الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله  
هذا يخالف ما طبقت عليه عادة العرب فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك  
كان هناك في الخطاب نوع شدة ( وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك  
عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه  
فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكم لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج  
أديعائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ) فبينت الآية أنه كان يقول  
لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب أن يفارقها  
- وتخفى في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو  
الذى أبدته الآية - وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - تخشى الناس أن يعيروك  
فيقولون تزوج زوج ابنه - ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

زوّجناهما وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد . ولقد هدم قاعدة النبي قولاً كما هدمها  
فعلًا فقال ( ادعوهم لآبائهم هو أوسط عند الله ) وقال ( ما كان محمد أباً أحد من  
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين )

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهي التي عتق بسبب  
زواجها من كان أسراً أو سبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي  
رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن  
أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتي توفى عنهن

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم  
المساكين لرحتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب  
ابن عبدمناف وهذه توفيت في حياته

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بن الرسول وبنى منهن ست من قريش وخمس  
من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها  
ابنه إبراهيم الذي توفى صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزواجه أمهات المؤمنين  
سماهن بذلك الكتاب فقال ( وأزواجه أمهاتهم )

يظهر لنا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأى في أن يجمع في نساء من  
قبائل العرب المختلفة ليسكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان  
عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة  
وهو بمكة أكبر مساعداً له ومبعداً له أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة  
صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى لإسرائيل وقد  
كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية  
وكان لامهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت  
حياته منهن كعائشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجردون في سورة  
الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب ( إنما يريد الله ليذهب عنكم



الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً)

ختم القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ) وكانت آياته قد ترتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحتفظه كله ومنهم من يحتفظ ببعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر ( راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة )

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتداء عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال ( يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الانصار على هيئها لا يزيد وإنهم كانوا عيبي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن سيئهم ) وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس فصلى بهم مدة مرضه ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ ( ٨ يونيه سنة ٦٣٢ ) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاة أوبكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين )

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأترون فيمن يخلفه حتى بويع أوبكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قبرصه وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له الحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنة عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قريية

## المحاضرة الثامنة عشر

- الخلافة -

### الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لأمته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اخير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم بوجههم إلى الخير ويعددهم عن الشر وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جمها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدا بنا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التي اقتصصنا بها محاضرتنا هذه

لم ير المسلمون بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين : ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الأول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

### بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرنان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه على وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز على من بينهم



بسببه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإتهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأهمل المؤمنين كقطري بن الفجاءة وليس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى مافي الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفا من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسه عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسه عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الخي من قريش. ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون لاستنتاجه أن السر في تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما وبني على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العال والحكم في كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصية المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر وما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي وآه لنفسه أذعن لرأي الجمهور

مكث الرأي الاوسط سائداً والآخر خامداً لا يجد له محركا حتى كان آخر عهد  
عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له يذهبون الناس إليه ويقبحون من مخالفه إذ  
كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الامة شديد الإحساس فسرعان  
ماتنه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة  
الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب  
لأنه قام في وجهه نصف الامة قادمًا إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي  
قصد منها إقرار الأمر في نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد  
غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر  
معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من بني هاشم

عادت فكرة الشيعة إلى الخرد ولكن السيوف وإن تكن تغلبت في الظاهر عليها  
فقد استكنكت في النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الأمل وتسكن حيناً تنتظراً للمستقبل

ما زال أبناء علي يرون هذا الحق لهم إرثاً لا ينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب  
شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون  
ثم تكون العاقبة قتلاً وتشيلاً إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب  
تأثراً لأنه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويحركون منها العيون فما كان  
أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معقر أهدمانه بكر بلاء بعد أن أذيق  
من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من  
بعده ممن خرجوا على بني أمية حتى ينفاد الناس إلى من يدعهم للقيام إلى رد الحق لأهله  
لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاق الخلافة بل كان  
بنوع علي يرون الحق لهم خالصاً لما لا يهيم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس  
جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير  
عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى  
ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا  
في الأمر بهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سرّاً في دولة بني أمية واتصل  
بهم ذلك الزعيم المقدم أبو مسلم الخراساني فتم لهم الأمر ورد اليهم الخلافة بعد أن  
أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا



من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلى بني العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البرتين العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لا قوة في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشرذوا كل مشرد ، وخصوصا في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلوا وسلب حقهم فصاروا يخرجون علي بن العباس كما كانوا يخرجون علي بن أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لاتناها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق سكت على ما في نفسه

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعانهم فأسسوا بها دولة علوية لها ير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرها من سياتي ذكرهم بعد والباقون بالشرق كانت لهم شيعة تكرههم وتميل إليهم في السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء النسر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك في الممالك الإسلامية - لمصر وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد إليهم حتى يسكرون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا لبعض ناصح تبعد عن الاختلاف والفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا

الامر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولولم يكن الامر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولتنظر ما صار عليه المسلمون في ذلك وهامى طرائقهم

(١) الطريقة الاولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الامر ثم اتفقوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة في البت - حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحدهم قريب من يتطوع للخلافة دون أبي بكر أو لرجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهى الامر بسرعة فقد يده إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبي بكر كانت فلقة وفي الله شرها قال ذلك لمساءلم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلانا : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيعة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : أن يهدد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال لاس هل رضيت من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحزبية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحسن بالماوت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاخترسته من كبار الصحابة ومن يرى أنه لا يتطلع لامر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للاغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها



والإعتبر خارجاً يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن ابن عوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبثاً حسناً ولكننا لم نر في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها طريقة شوروية ناقصة لأنه لم يكن للقصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لاحدم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسباً بأن كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده وبفان أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أهم الأمة بأسرها ؟ أم هم أفراد مخصصون ؟ وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما يمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أم ولاة الأوصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟ كل ذلك لم يبين فالتطاع للخلافة يحدد مجالاً واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علي . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبدالعزيز والطريقة الثالثة - في حقيقة الأمر - كالتانية إذا أقصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وخدمهم - هم الذين يتنبأ إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أدلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لأن بيعة علي ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين في سهل صفيين فلما عضتهم الحرب بناها عمدوا إلى شيء سموه تحكيماً ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكيم لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرَا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للتنازعين خصماً ثالثاً قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لاحكم إلا الله وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصالح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوا الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضمنوا لأمرهم حدوداً مقررّة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة إلا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعته على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال أن أحدهما تعداها إلا إن سرناعلى رأى من يقول إن علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن درنه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذى يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا هو أن أبا بكر اختار رجلا ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد ولكنه امتاز



في عهده بأن طلب من ولاية الأمصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاية إلا من لهم هوى في بقاء الأمر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد ، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصفة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك للعبء في وسط هذه الظلمات الخالكة فاعتزل وترك جبل الأمة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تخرج موجاً حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهده بالخلافة من بعده لاثنتين من أولاده يتلوا أحدهما الآخر وهما عبد المطلب وعبد العزيز وهي أول مرة ولى العهد فيها اثنان <sup>(١)</sup>

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتجمل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولى عهد له فيجتهد في نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولى ابنه الوليد . وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بني أمية جميعاً وولى يزيد أخاه هشاماً ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى آخره وقدم المهدي . وولى المهدي ابنه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقرضت دولتهم وجماعت خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط إلا أنه في عهد الضعف الذي استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السربر إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل المنغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم في مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثماني وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هذا لم يخل الأمر من طمرح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك في بيتهم أكثر مما حفظه في أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فإنه كان منظورا فيه إلى الوراثية فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا عليا ومن يليه الأئمة وكانوا اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سرق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فقال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يخل الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسمى في جمع الكلمة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين



تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل لنا أن أول من وضعها هذا الموضوع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الإمام أم هو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الامن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطي وأتباعه؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٣) شروط الإمام وقد عتدوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والمهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة (٣) ما ثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بيعة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز؟ وهل يجوز خلعه ولاى شيء يكون ذلك؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أبو بكر أم على؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(٦) ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل؟

وكانت هذه المناقشات مع حداثتها وغوصها على ممان جميلة شريفة في بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقاليم في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأوائك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالالتك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم والخلاصة: أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه، سببا لاكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ماسيرد عليهم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلبا يخلو منها من سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

## المحاضرة التاسعة عشر

انتخاب ابي بكر - أول خطاب له - ترجمته - أخلاق ابي بكر -  
أخبار الردة

### انتخاب ابي بكر

كانت الانصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عباد من بني ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار في تلك السقيفة أو سهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عباد فإن سعداً خطب فيهم مبيناً ما للانصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن ابي ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فاذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين ابا بكر وعمر وغيرهما ففضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هياه في نفسه ليقوله في هذا الموقف فقال له ابي بكر على رسلك وكان ابي بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السابق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثنى الرسول عليه السلام من قوله (الائمة من قريش) ثم قال فنحن الامراء وأتم الوزراء لا فتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال يا معشر الانصار املكو اعليكم أمركم فإن الناس في فيكم وظلمكم ولن يجترئ مجترئ على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون.



ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فذا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيات  
لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلامه قام الحباب ثانياً فقال يا معشر الانصار املكوا على  
أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيديكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذبيها<sup>(١)</sup>  
المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لتعيدها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار  
ثم قال أبو عبيدة يا معشر الانصار إنكم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير  
فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الانصار إنا والله  
لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به لإرضاء ربنا وطاعة  
نبينا والكسح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا  
عرضاً فإن الله ولى المنة علينا بذلك إلا إن محمداً من قریش وقومه أحق به وأولى وأيم الله  
لا يراني الله أنأزههم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا  
عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالوا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك  
أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل  
دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك فمد عمر يده  
إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عقتت أنفست  
على ابن عمك الامارة؟ قال لا والله ولسكني كرهت أن أنازع قوم أحق جامله الله لهم  
ولمارات الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قریش وما تطلب الخزرج من تأمير  
سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها  
الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً  
أبدأ قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فأنكسر على سعد وعلى الخزرج  
ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبائعون أبا بكر حتى كادوا  
يطؤون سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على  
ابن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله  
صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحك به والعذيق تصغير العذق وهو الخلة

وترجيها أن يبني تحتها دكان تعتمد إليه

كلهم إذ ذاك في المدينة ، ولم يزل علي بن أبي طالب ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجة وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن اتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا ندخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي؟ والله لأنينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا تنفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل من قرابتي وبعد أن أنم كلامه قال علي لأبي بكر موعذك العشي للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر علي وتشهد فغظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به ولكننا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً فاستأبد به فوجدنا في أنفسنا فمر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف

### أول خطاب لأبي بكر

بعد أن تمت بيعته قام في الناس خطيباً <sup>(١)</sup> فقال أيها الناس قد وليت عليكم راساً بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هي بحمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانتته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدق عن الحق وفي هذا ضمان لحريةهم في القول أعطاهم عهداً أن يعد فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها مالا نفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم إجمالاً



ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه - أخبرهم  
أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

### ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه  
أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد أسننين من عام القيل وشب  
على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم  
وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالاته كان أبو بكر أول رجل أجابه  
حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له  
كبوته غير أبي بكر وكان له في الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر  
إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فنعه من ذلك ابن الدغنة سيد  
القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدأ  
من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه  
ما يصيب إخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين  
إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها  
وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة  
التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي فولدت له عبد الله  
وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر  
من بني غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله  
صلى الله عليه وسلم - وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها  
زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً - وتزوج في الإسلام أيضاً حبيبة بنت خازجة  
ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم - فذكور أولاده  
ثلاثة وإناثهم ثلاث

### أخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فإننا نجد أظهر أخلاقه

### صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان في الأمر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بأراء غيره إن كان شورياً فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صدده حاول أن يفتح له منها طريقاً : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التي تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأمام لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان متردداً في أموره حسب المؤثرات التي تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هياً بعثاً ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة وكان في هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الإسلام فكلم في تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد في الأمر أو أصر البعث لسكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمراً حتماً وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم في أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر !!؟ واشتد في الكلام مع عمر الذي كان يكلمه في ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلمحيتيه وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بإبقائه بل قال لاسامة إن



رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له . رهذا مقام كبير في احترام ذى السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوى حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماما واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهى :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا ولا تخلوا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مشمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكله وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم باآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواماً قد فحسوا أو ساط رؤوسهم وتركوا حرطاً مثل العصائب فاخذقوهم بالسيف حتى ما يدفعها باسم الله (١) فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاة وأخانهم وغنم منهم واستمر فى بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا ولم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية ! وما يظهر صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى أخبار الردة

### أخبار الردة

قد معنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الاسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله فى سورة الحجرات ( قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ) فهذه

(١) فى لسان العرب . وفى الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة - وستجدون آخرين . للشيطان فى رؤوسهم مفاحص فافلقرها بالسيف أى أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كاستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا انساناً بشدة الغنى والانهماك فى الشر قالوا قد فرخ الشيطان فى رأسه وعشش . وفى حديث أبى بكر وستجد قوماً فحسوا عن أو ساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحسوا عنه بالسيف وفى الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهى مجامعها

كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فراوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الاسلامية خصوصا ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاء يدهون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الاعراب ولكن صدق العزيمة يذل كل شيء .

فلما جاءت الاخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذيان قد اجتمعوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذيان فقال له المسلمون : نشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى فخرج في تعبته حتى نزل على أهل الربيعة فالأبرق فاقبل جنده مع بنى عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً ، وقد غاب بنى ذيان على البلاد وحماها لخيل المسلمين وأرعى سائر الربيعة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذى القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم أحد عشر لواءً لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي بيزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلة باليمامة (٣) ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعونة الأبناء (٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه في عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن



(٧) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حازم ووجهه إلى  
بني سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاة  
(١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً)  
أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة  
قال : (وقد بلغني رجوع من رجعت منكم عن دينه أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله  
وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم  
فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من  
دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه  
عدواً وإنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد بعثت إليكم فلاناً في  
جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله  
حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه  
عليه ومن أبي أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبق على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم  
بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراير ولا يقبل من أحد إلا الإسلام  
فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فإن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في  
كل مجمع لكم والداعية الاذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقرأوا قبل  
منهم وحملهم على ما ينبغي ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول  
منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن  
بعثه لقتال من رجعت عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمر كله سره  
وعلايته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى  
أمان الشيطان بعد أن يعذر إليهم في دعوتهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم  
وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له ثم يذبهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ  
ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظروهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى  
أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبي قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما آفاه الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولثلاً يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول طليحة ومالك بن نويرة . كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمه علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأى لبني قريش فدعا إلى ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده بزاخة وهو ماء لطية بارض نجد . وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب إلى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم في الذروة ، والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق بزاخة منا فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتدناهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثاً يجتمع لك . . . مقاتل تضرب بهم عدوك : ففعل خالد ، ثم عاد عدى إلى قومه ، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأترجم من بزاخة كالمسد لهم ، ثم راجعوا الإسلام ، فعاد إلى خالد وأخبره ، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة ، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عينته برح حصن الفزاري بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملثف بكسائه فقال له : ألا ترى ما يصنع بنا فهل جارك ذوالنون بشيء قال نعم قد جادني وقال إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عينته أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزاره هذا كذاب وولى عن عسكره فانهمز الناس وهرب طليحة وانقضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين



زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على بعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبير بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينهم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بذت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبط بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى المواعدة فوادعها وثناها هن غزو أبي بكر وحماها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذهن يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع ابن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأبي تميم يدؤن فسجدت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوط بني بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعزلت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بهامسيلية الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها واصلحها وبينهم على ذلك إذ سمعوا بقدم خالد بن الوليد في جيوشه فتنفرت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندما ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فخبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبوقنادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة وبما أكبر النهمة أن خالداً تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن في سيف خالد

رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد وودي مالكا وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قریشاً قوما لا يهدلون ، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول نذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالا شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فبته ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلة واشترك في قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصالح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فانفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم بجأه الكذاب بعد أن كتبت شروط الصالح فوفي لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل قالوا يا خليفة رسول الله لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم



سألهم عن بعض أسيما مسيلة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحك إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بك : وأقام خالد بعد فراغ الأمر في وادهن أودية اليمامة يقال له الوبر  
البن والأسود العنسى

ولما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان الذى كان عاملاً  
لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً واليا على صنعاء وعين  
ولاية آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً  
يتنقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلا من عنس لإحدى قبائل قحطان  
اسمه الأسود فتبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها العشر  
من مخرجه ودخل معه عوام من هذج ثم جاء صنعاء وقاتل عامها شهراً واستولى عليها  
وهزم الأبناء الخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة  
الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن في  
أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام  
كتاباً على يد و بر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم  
والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من  
رأوا أن عنده نجدة ودينياً . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس  
ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً فقاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود  
فأجابهم إلى ذلك وصاروا يهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي  
اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله  
غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو  
الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا  
أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلى بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول  
بالمدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله  
نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه  
من الخلاف وقادم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى  
على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما

زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت  
زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معد يكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت  
وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فثاروا  
كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح  
البحرين والحطيم

كان عليه السلام قد ولي على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس  
وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإتباعها فأتوا إلى الدين من غير قتال تبعوا  
نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يا معشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر  
فأخبروني إن علمتم وما تخبوننى إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا  
نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله  
وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله  
وأنت سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى  
ذلك الحطيم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك  
حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمي أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد  
بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال في مسلة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام  
طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطيم فغلبهم المسلمون وقتل الحطيم وضرب الإسلام  
بجمراته في البحرين وكتب العلاء إلى أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من  
ربيعة إلى الإسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات  
في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا ترزع عنهم  
الكرارات ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التي هاجت في جميع  
أنحاء الجزيرة حينما شمرت بقصد الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاقتها قبل أن  
تنقضى السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحارب بآدئ بدءه في هذا الأمر ولكن  
لما رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند



والهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفسا هي أكبر نفس  
عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة ومن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد  
فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبي بكر  
يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضبا شديدا ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد  
ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه  
العظيم وطول صحبته وحاول عمران يوقع أبو بكر بخالد مع جسامته ذنبه فلم يفعل لأنه خاف  
الوهم واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إننا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأيدته  
ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول  
على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوام شكيمة وأشدهم قلباً

## المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبي بكر —  
غزوة الفرس — غزوة الروم

### ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها  
ومفاوزها ووديانها قوام متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد  
والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك  
أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم  
تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً  
والمسود سيداً

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من  
قديم الأعمار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الآكاسرة فكانت قاعدتها ( المدائن ) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقى والغربى جنوبى بغداد فى منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الآكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن نابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووجد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت فى عهد اسكندر المقدونى وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م. وأدخل فى ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المنفرقة وكان يسمى شاهنشاه أى ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدم شاها ومازال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذى ولد لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيما الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذى أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام فرأى ذلك أمرا عظيما أن يدعو عبدا من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعى ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرا إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان فى ذلك الوقت من كبار القواد شهر يزار مرابطا بجنده بشغور الروم فلما رأى أن ولى أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك قاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن فى تاريخ الفرس وكانت ولايتها فى آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بنى عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزر ميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وعى التى جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهزم من أصحاب خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكا



إلا أياما وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزجر بن شهر يار وهو آخرهم  
الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصى دولة الفرس  
في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها  
أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى  
انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية  
في زمن القيصر تيودتيوس الذي ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين  
ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقادايوس الذي ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨  
وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامي  
هرقل الذي كان قبل أن يتولى الملك واليا في أفريقية ثم خرج على الملك فوفاقتله  
وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت  
على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع  
بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد في هذه البقاع وكانت  
الحرب بينهما سجالا : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطئ  
بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك  
النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الأراضى الخصيبة الجيلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الإسلامي ما حصل أولا من الحروب بين جنود  
فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس  
انتصارات متتابعة حتى أجعلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت  
جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها  
وشنوا غاراتهم على فينقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم  
في عهد هرقل الذي خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب  
المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا  
اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة  
إبان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض) ثم قال مخبراً عن تكون

له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد)  
ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من  
المشركين فقال (ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم  
وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلا فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من  
ولايته وتهايا لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات  
المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد  
كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ماذا قوه  
منهم قبلا: ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على  
أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى  
وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة  
٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي أرسل فيها رسول الله  
صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكان بمن راسله هرقل وهو في ذلك  
الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد  
في ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعبيد عنها ثلاثة أميال: وبعد  
ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف  
هذا بجمل حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين

#### غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو  
بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الإبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو  
الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو في شمال العراق وأمرهما أن يستنفر من  
قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليامة  
فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول له فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد  
لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد دجيتك بقوم يحبون  
الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق وأعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء



بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذام أسوأ أمراء ذلك النغر جواراً للعرب فكل العرب عليه معيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للنخب تراحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقامة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبين إذذاك كان كسرى قد أمده هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما هو قادم إذبلغته هزيمة هرمز فوقف بالمدار<sup>(١)</sup> وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فنقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم فتره الطبري بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الوالجة<sup>(٢)</sup> ثم أتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المنتصرة ولما بلغ خالد أخبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجته ولما وصل الوالجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان إلا أن خرجا على الفرس من مكنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومه فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم بدأ على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس<sup>(٣)</sup> وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبه ميسان

(٢) وهي من الشمال من المذار من أرض كسكر (٣) قرية من قرى الأنبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيثيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهى إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصرأ كالحيرة: لما علم الأزدية مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيثيا علم أنه غير متروك فنهأ الحرب خالد رقم ابنه أمامه وكان بما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والآنفال فلم يفجأه إلا والسفن جوارخ فسأل عن السبب فأعلم به فنعجل خالد نحو ابن الأزدية حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وجفر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخررتق مشرفا على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حيساً عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة وإن لم يمنعمهم فلا شىء عليهم حتى يمنعمهم وإن غدروا بفول أو قول فالذمة منهم بريئة <sup>(١)</sup> وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ : ومما استطرف ذكره أن رجلا من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سببهم كرامة بنذت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحق رآنى في شيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجزز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكى قالت فلك حكمك فقال فليست لأم شويل أن تقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ الهجرة لم يكن إلا أيام عمر



ذلك لتخذه ثم آتته بها ورجعت لاهلها فتسمع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نبتى غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره فأخذ بما يظهر وتدعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسا وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً بهذا نصه :

( بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وباروسا جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك قد نقتبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم )

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج<sup>(١)</sup> إلى هرمز جرد<sup>(٢)</sup> على ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً : ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبائته ومنهم أمراء الثغور : وكتب فى مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس ووسائهم وصورة الأول - بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفزق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم فى أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة : وصورة الثانى - ( بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس فى ذلك الوقت فى ارتباك داخلى بشأن من

(١) فلاليج السواد قرأها واحدها فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان

من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهر سير وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجسدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذا بن البندوان

ولما استقام لخدمته أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه وبلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار<sup>(١)</sup> وقد تحصن أهلها وخذقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعلى الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصالح على أن يخليه ويأمنه بما آمنه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فأجاب به إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزرقان بن بدر وقصد عين التمر<sup>(٢)</sup> وبها يومئذ مهران بن بهرام جويين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من التمر وتقلب وإباد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لثلثنا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبئة يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبئة واقتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب في جنده تاركا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزطهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيوتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحرمان مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب :

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي على طرف البزبة



من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المنتصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا فلو أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني رصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالكم على حرب خالد فثأرنا نخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فهاهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بني كلب لأنهم كانوا حلفاء نعيم فأجارهم عاصم بن عمرو والنميري وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد<sup>(١)</sup> والخنافس فأرقت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالا ثم كانت له وقائع بالثبي<sup>(٢)</sup> والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فاتصر عليهم خالد جميعا وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشرأ وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقية ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأني له من ذلك ما لم يتأت لدليل أوريال فما توانى إلى الحيرة أخرجنده حتى واقام مع صاحب الساقية فتدما معا وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجته إلا من أفضى إليه بذلك من الساقية ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبي بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبو بكر وسر حتى تأني جموع المسلمين باليرموك

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الانبار تقام فيه سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقر به الزميل

فإنهم قد شجروا وأشجروا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجوع من الناس  
بعون الله شجيك ولن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة  
فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فخسر وتحذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله  
له المن وهو ولي الجزاء»

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر  
من سنة ١٣ وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش : اقتطع من بلاد العجم  
حوض نهر الفرات من شمالي الأبله إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة  
في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها  
مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة ارادها وكان في كل عمله فاتحاً لا مغيراً فإنه كان  
يعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله  
ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن  
يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرفقة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا  
يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويدلونهم وعلى  
قسبة رافته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان  
إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للبارزة  
وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت  
لخالد غزوة في جبين تاريخه ومما بين عظيم عليه ما قاله الهيثم البكائي . قال : كان أهل  
الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم ويقولون ماشاء  
معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل ( وهي أول واقعة بين خالد والفرس ) ويسمون  
ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

### غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتح العراق  
فإن أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار  
القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحيل بن  
حسنة والثلاثة الأتولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل  
واحد أن يسير بمجده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد



الفتح فجعل لعمر فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولا بني عبدة حمص ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً

لمساعلم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلاً بمحصر وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرب فيه لأحد من استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك<sup>(١)</sup> ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كتبتوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأى عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه . بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فبرلوا الواقوسة<sup>(٢)</sup> وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو هليب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستنقب الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفندتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بمخاضهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاوا وكانهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لا يقدر من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوسة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخاف على العراق المثنى بن حارثة بن استخاص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حديثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاها الطبري ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أى أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن

(٢) واد في أرض حوران

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى  
بجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي  
أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على  
نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم  
لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي  
من واليكم ومحبتهم ، قالوا فهات فما الرأي قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا  
سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين  
مما قد غشيتهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله  
الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء  
الجنود ولا يزيد عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة  
رسول الله هلدا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خنادقهم  
اليوم لم نزل نردم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلدا فلتتعاود الإمارة فليكن عليها  
بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم فأمره  
فعبى خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً  
( فرقة ) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس  
وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها  
يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً يأتيه بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة  
أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصداً يذكركم وكان  
القاص أبو سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم زادة  
العرب وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من  
أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين  
فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان  
لأبعدد الرجال والله لو ددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد  
( الأشقر فرسه )

وخرجت الروم في تعبية لم ير مثلها فأمر خالد بجنبي القلب أن ينشبا القتال وكان  
فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع يرتجز :



يالتى ألقاك فى الطراد قبل اعتزام الجحفل الورد وأنت فى حلبتك الورد  
يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لم تقوم الموسيقى فى تشجيع القلوب

نشبت القتال والنعم الناس وطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد  
خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق  
المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم وخرجت خيلهم  
تشتد بهم فى الصحراء ولما رأها المسلمين كذلك أفرجوا لها ولم يجرجوها  
فذهبت فتفرقت فى البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط  
فاقتحموا فى خندقهم فأنعمه عليهم فعمدوا إلى الواقصة من ررائهم حتى هوى فيها  
كثير منهم قتهافت فيها على مايقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من  
الخيال والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو  
فى رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين فى ذلك اليوم القدح المعلى فى الثبات والصبر منهم  
عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفز اليوم ثم  
ينادى من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا  
جميعاً قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أئبوا جميعاً جراحا وقتلوا لإمان  
برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على نخذه وبعمرو بن  
عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما وبقطر فى حلوقهما الماء  
ويقول كلا زعم ابن الختمة أنا لانتشهد ( يريد عمر ) وقال النساء فى ذلك اليوم  
فى جولة وقتل من المسلمين فى اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان  
ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهمزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو  
دون حصص ارتحل فجعل حصص يذنه وبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك يا سوريا  
سلاما لالقاء بعده

فى أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب  
وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاماً مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأسرّه إلى أبي عبيدة ولم يذعه لثلاثين به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنفه حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة وبما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلى من عمر . والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبعض إلى من أبي بكر ثم ألزمني حبه جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير . مدرّب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أنّ ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزؤهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مساعداً منظماً معبئاً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العسدد والعدد ذلك أنّ الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثراً بما رآه من الأبطال العاقبة له لم قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثاني أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسينين إماموت بعده سعادة وإما فوز فيه نخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ما وقفوا إليه من هؤلاء القواد العظام الذين أمجزوا من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي . يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا .

به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأنّ أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهد :



- (١) مكة وأهيرها عتاب بن أسيد وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٢) الطائف وأهيرها عثمان بن أبي العاص وهو الذى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٣) صنعاء وأهيرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذى ولي فتحها بعد الردة
- (٤) حضرموت ووالها زياد بن ليث
- (٥) خولان ووالها يعلى بن أمية
- (٦) زيدور مع ووالها أبو موسى الأشعري
- (٧) الجند وأهيرها معاذ بن جبل
- (٨) نجران ووالها جرير بن عبدالله البجلي
- (٩) جرش ووالها عبدالله بن ثور
- (١٠) البحرين ووالها العلاء بن الحضرمي

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجندهم ولاة الأمر فيها ولم يكن لابي بكر وزير وإنما كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة أمينا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سورة كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعاً فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالامر وكتب أول مصحف بملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر

#### رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصاحب أمور الناس التجارة وما يصاحبهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لي إلى ما يصاحبهم فترك التجارة واستفق من مال المسلمين ما يصاحبه ويصاحبه يوماً يوماً وكان يبيع ويعتمر وكان الذى فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم ( - بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً ) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لأصيب من هذا المال شيئاً وإن أرضى التي يمكن كذا وكذا المسلمين بما أصيب من أهوالم فدفعت ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتيت من بعده . فن هذا يفهم أن المبدأ الذى اختطه أبو بكر هو أن الخليفة

لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكان هذا المأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلى بيت المال  
إرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتل وغير ما ينقله رئيس الجند المتأذين وكان أبو بكر يسرى في العطاء لا يفضل أحداً على أحد  
إرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال إرزاقهم ويوزع ما بقى على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة  
وفاة أبي بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محرماً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ ( ٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ ) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية

## المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر - ترجمته - أول خطاب له - الفتوح في بلاد الفرس  
بده القادسية

### ٢ - عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحسن بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسبون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتشر عقد نظامهم



وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولسكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يراني رقيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه ويأبأ محمد قدر مقلته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا كنت له أراني الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذلك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدتوك وما أدري لعله تاركه والخيرة له الأبلى من أموركم شيئا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم أعمى عليه فكتب عثمان - (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس

سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدى بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما أشرف رسول الله ﷺ بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعى إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة فحارب

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح وآمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تشكله أمه فليلقني وراه هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهدته كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمراً كبير الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن تشتت الأمر وكان لابي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضاء فكانه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته حجة أبي بكر الأناة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليظن قائده أين يقوده أما أنا فو رب الكعبة لا حملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل الموافق الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهدده فإنها كانت سائمة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسماً فقال أما أنا فو رب الكعبة لا حملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب



من شأن لغنها الاكتفاء بدلالات الأحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لماصرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع بهوقعة شديدة انهزم فيها همز وجنده وتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعا لا يقدر على مقاومتها تخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبير المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحرابها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يوى هذا فإن أنامت فلا تُمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقنا فاضطربت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولادة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أوامر خالد على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يهجمون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإن ائد تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجمة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء <sup>(١)</sup> المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التي وهبكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال ( ليظهره على الدين كله ) والله مظهر دينه ومعز ناصره وهولى أهله مواويث الأمم أين عباد الله الصالحين - فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم فقاه رجلان سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم لإجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركمهم في الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والكف - فصار أبو عبيدة بالجند وهو الأمير حتى باغ الخيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم أزره ميدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعته رستم أن كتبت إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام في النمارق (١) لما رأى ذلك المثنى ضمّ إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلاً ثم سار إلى النمارق فخارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فادخاني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد ما فعل الربيعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلوا فيه أبا عبيد فقال ماتروني فاعلام معاشر ربيعة أيؤنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر (٢) لاجئين إلى نرسي فاجتمع إليه الجنود الذين معه وقل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جماعة الدهاقين مسلمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بمس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبها قبل أن يحصر الحجاج واسطاً خسر وسابور ثم صارت واسط قصبها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا وميسان ودست ميسان



بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل مايا كل أو ساطهم  
لما جاء رستم خبير الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية  
السكرية لفارس المسماة درفش كايان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً  
من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة <sup>(١)</sup> ووضع البرج والعاقول  
فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبركم فأشار  
الناس على أبي عبيد بعدم العبور فاج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب  
وفي آخر النهار قتل أبو عبيد بحال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس  
فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فاتمى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فقتلوا  
في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقيل وحى المثنى ومن معه الناس  
وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس يشر كثير على وجوههم  
واقترضوا في أنفسهم واستحبوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فمئة كل مسلم يرحم الله  
أبا عبيد لو كان عبر فاء تصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكننا له فئسة وحصل  
في هذه الواقعة غلطان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه  
عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلظة تأييراً ما فعله ذلك الرجل الاحق عبد الله بن مرثد  
الثقي من قطعه الجسر عند ما رأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن  
حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولأن  
يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد إلى المثنى منهم جرير  
ابن عبد الله البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدومه طلب منهم أن يسيروا إليه  
حتى يقابلوه على البويب <sup>(٢)</sup> وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين  
جنداً مع قائداً اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى  
يخبره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن  
واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبد الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى

(١) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بالإفطار فأفطروا وكانت تعبئة الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلا يستوفز ويستقتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فز يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرح وقال لأبالك الزم موتك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال لفي بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد مصادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اضطربوا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمائة ألف وبما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجزاً وفي الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تفتدوا بي أيها الناس فإنها كانت مني زلة لا ينبغي لإحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المهزومين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب <sup>(١)</sup> بعد أن عمدهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبدث السرايا للإغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفيين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فنادوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الفرق الفرق وجعل عتبية و فرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق تغريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكسروا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عبون في كل جيش فكاتب العين إلى عمر بما قال عتبية و فرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدهما عمر فسألها فأخبراه أنها قالوا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحفلها فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سديان الأعلى والأسفل من طسوج سورا



أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهرا ن إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرازن وهما عظيمي فارس والمستنغان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتنا فيهم عدوهم ولأنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وإن تعرضا لها للها سكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله ليجتمعان أولئبد أن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له يذنه فبعدا لاي وجدار جلا يدعي يزدجرد من ولد شهر يار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمي الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والانباء والمسالخ والإبله . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار (٢) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذا قار ونزل الناس بالجل (٣) وشراف (٤) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيب بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك في ذى القعدة سنة ١٣ أماعمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذى الحجة سنة ١٣ لاندعو أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا اتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كشيء إلى العراق حتى يقا نل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرفها على مكة والمدينة فرافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على الصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم قانضموا إلى المثنى

- (١) يدها وبين الكوفة ١٣ فرسخا ويدها وبين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة
- (٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يدها وبين واسط
- (٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة يده وبين القرعا ١٦٠ ميلا
- (٤) بين واقصة والقرعا ومن شراف إلى واقصة ميلان

فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صراراً<sup>(١)</sup> فسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه به ثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في أمانة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبدالمطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنأدى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سروسرنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه فرفق فقال استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجره الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح وإلإعاد رجلاً وندب جنداً آخر فنأدى الصلاة جامعة وبعث إلى علي وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم في إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذؤوب الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا الخطاب بين ما كان يدور فى رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الأساس لذلك النظام . ثم أجال معهم الرأى فىمن يولىه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأى أخيراً على تولىه القائد العظيم سعد بن أبى وقاص الزهري القرشى وكان فى ذلك الجيش حدّ الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيساً ولا إذا شرف ولا إذا رأى ولا إذا سلطه ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به فرمام بوجوه الناس وغرهم

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق



## المحاضرة الثانية والعشرون

### تمام القادسية - فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود <sup>(١)</sup> فانزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بنى تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله وأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤا إلى فئمة ثم يكون أعلم بسيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فاعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وراعدهم القادسية وا كتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به ففقد الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرّاف فعرف على كل عشرة رجلاً وأمر على الرايات رجلاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجلاً فولى على مقدماتها ومجرباتها وساقتها ومجرباتها وطلاتها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبئة يلون الأمير ويلبهم أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رؤس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبئة وبأذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد : فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعتتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدته <sup>(٢)</sup> إلا أن توفقوا

(١) رمال بين الثعلبية والحزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة .

(٢) الدآدى ما اتسع من التلاع وهى مسايل المساء

غيضان فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدوهم الشدو والضرب وإياكم والمناظرة  
لجوعهم ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهت  
إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمآذمتهم  
ولما يريدونه من تلك الأصل وهو نزل رغب خصيب - حين دونه قاطر وأنهار  
ممتعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات  
الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم ازم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك  
أنفضتكم رهوك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أتم صبرتم  
لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم  
مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر  
من أرضكم ثم كتبتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها جبن وبها أجهل حتى يأتي الله  
بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة. وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فسار  
سعد على تعيينه والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول فيه - واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي  
يلي مصادمتكم فإنه قد منعي من بعض ما أردت الكتاب به فلة على بما هجمتم عليه  
والذي استقر أمركم عليه نصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن  
صفة كأني أنظر إليها واجعاني من أمركم على الجلية - فكتب إليه سعد بصفة البلدان  
القادسية بين الخندق<sup>(١)</sup> والعتيق وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاج<sup>(٢)</sup>  
إلى الحيرة بين طريقتين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى  
الحضوض<sup>(٣)</sup> يطلع من ساسك على ما بين الخورنق<sup>(٤)</sup> والحيرة وأن ما عن يمين القادسية  
إلى الوجلة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبل

(١) خندق سابور في بركة الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من  
شرم وأوله من هيت يشق طف الباذية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر  
وبني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمالح ليكون مانعاً لأهل التادية من السوار  
(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة  
بناه أحد ملوك الغرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقي الفرات وغريبه بساتين



إلب لاهل فارس قدخفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذى أعدوا المصادمتارستم فى أمثال  
له منهم فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد  
ماض وقضاء مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر فى عافية - فكتب إليه  
عمر يأمره بالمقام بالقادية وكان مما حاضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إني قد ألقى  
فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هم متموم فاطرحوا الشك وآثروا التيقية عليه فان لاهب  
أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرنه بإشارة أو لسان كان لا يدري إلا عجمى ما كلبه  
به وكان عندهم أماننا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ  
بالوفاء بقية وإن الخطأ بالعدو الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال  
ريحهم واعدوا أنى أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم  
كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه  
لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب  
أمر عمر فاختر من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونقرأ لهم منظر وعليهم مهابة  
ولهم آراء نفرحوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن  
لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال  
لترجمانه سلهم ما جاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجمناكم  
وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد قد كرتاريخ  
إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم فى دينه وقال بعد ذلك ثم  
أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فدعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو  
دين سن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتكم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه  
الجزاء فان أبيتكم فالناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقناكم عليه على  
أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم  
ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزدجرد إني لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل  
عددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم  
لا تغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يفرنكم منا وإن  
كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونناكم  
وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الاسيدى فقال

أيها الملك إن هؤلاء رموس العرب ووجوههم وهم أشرف وإنما يكرم الأشراف  
الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس  
كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجاوبك عليه وقد أحسنوا ولا  
يحسن بمثلهم إلا ذلك فجأوبني لاكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت  
من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن بشبه الجوع كنا تأكل  
الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فترى ذلك طعامنا وأما المنازل فأنما هي ظهر  
الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس إلا ما غزلنا من اوبار الإبل وأشعار الغنم  
ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية  
كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله  
إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه  
خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرا في الحال التي  
كان فيها أصدقا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده  
فقال وقتلنا وصدق وكذبنا وزادوا نقصنا فلم يقل شيئا إلا كان فتذف الله في قلوبنا التصديق  
له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو  
أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء  
وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلي يصير كل شيء وإن رحمتي  
أدركنكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد المرات من  
عذابي ولأحللكم داري دار السلام فذشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من  
تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه  
بما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي  
ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناواه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر  
وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال  
ما استقبلت إلا من كلني ولو كلني غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل  
لقتلتكم لاشيء لكم عندي ثم قال اثنوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم  
سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم  
حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى



أشغلكم في أنفسكم بأشد ما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا خملوه  
وقر التراب على عنقه خمله حتى أتى راحلته خمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً  
وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن في تعبئة كبرى وعدد جنده ١٢٠  
ألف عدا من تبعهم وسارت طلائمه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى  
أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم  
على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً  
ومما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم  
على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى  
قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سراء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا  
لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى وكان أحسن من الذي صنعتهم أن  
تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم  
ولكنكم دعوتهم في اليوم فملت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملككم لا يقوم  
على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السملة صدق والله العربي وقالت الدهاقين  
لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه قائل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا  
يصغرون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكركه ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه  
وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الأخبار إلى يزيد جرد ساعة حدرتها وكان سعد قد عبأ  
الجيش راينظمت حمانه ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب الحبوب  
كانت به فكان مقبياً بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمى بالرقاع فيها الأمر والنهي  
إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف يجذب القصر ثم قام في الناس الخطباء  
فخطبوا وحشوا على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان  
الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته  
الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأثيبوا القتال وبرز  
غالب بن عبيد الله الأسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسامح ذات اللبان والبنان الواضح  
أني سمم البطل المشايخ وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد لمت بيضاء صفراء اللب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أنى أروؤ لامن يعينه السبب مثلى على ملك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين قيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل ففرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد بنى أسد وكان لهم في ذلك أعظم نثار ولرئيسهم طليحة الأسدى ولم يكن للمسلمين حيلة في القيلة هذا اليوم إلا أن أهدوا رماة النبل يرمون ركبان القيلة فلما أهرت القيلة من ركبائها عادت إلى مواقفها ففس عن بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم إرمات

وفي اليوم الثاني نزلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فندفونهم وأما الجرحى فأسلوهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أباعبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص نقوى بها المسلمون وكانوا قد جاؤا بالإبل وجمالها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقبت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني ما لقيت جنود المسلمين من القيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغوات وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفي اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حلق وقيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لأكبرها رجلاً من أصحاب النجدة فوضعا رخيما في عيني الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع جنبه ثم فعلا مثل ذلك بقيل آخر قولى فوثب في العتيق فقتلته القيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا لياتهم فسار القعقاع في الناس



يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فإقام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه ملال بن علفه حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتل رستم ورب السكبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي درفش كايان ثم تتبعوا بقية المنزهين حتى أجلوهم إلى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرب ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب ( أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنهجهم سنين من كان قباهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقتلوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهاتها فلم يدفعهم الله بذلك بل سلهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئي وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جرت عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم). كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفي اليوم الذي ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبدالله حدثني قال هزم الله العدو وعمر يجرى ورامه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقري كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه ( إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهداً ولم يقر على عهد أهل الأيام لنا ولم يقف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرههم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه ( إن أهل السواد جلولاً نجماً من أمسك بعهدده ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإننا في أرض رغية والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها أو هن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يردده إلا خيراً وإن من ادعى فصدق أو في فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شأوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكاتب عمر جواب الكتاب الأول يقول

(أما بعد فإن الله جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات لاني أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن رؤى لنا فهو أقوى وأطفأ للجرر وأقمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره من لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاموا وإن لم تشاموا فانبذوا إليهم وأبلغوهم ما منهم) وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يجمل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم لإجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جملة الله لكم فإن شئتم فادعواهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلا وتجنحى عن السواد أن يترجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فترجعوا وصاروا ذمة من تم ولزم عهده إلا أن خرجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فينا لمن أفاء الله عليه فهي والصواني الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر



السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والاموال - ولم تأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لأنه كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفء من وثقوا به وترضوا عليه كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الأبله لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبله لتتم إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبله وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيماً تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس وليتظنر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصيادان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلهن به في زرو ودوى قارونك الأمواه حين أمروا بالسير في جمادى إلى القادسية وكان كلاماً بدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شيء العجب كل العجب بين جمادى ورجب أمر قضاءه قد وجب  
يخبره من قد شيب تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتجبل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموا من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية بئرس وبها قل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان خرابهم حرباً غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم بيا بل على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر. فأقام سعد بيا بل أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير وهي المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود في مقام سعد على بهر سير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهر سير شهرين ثم فتحوها بعد أن يركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد بهر سير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة

الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فإن الفرس كانوا قد ضمروها إلى الشاطئ الثاني وكان سعداً عدت فصيحة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبأ الجند كله خوفاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفاً أن يزدجر دينقل كل ما في المدائن من ذخائره فجمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولمسأرى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول ( كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين ) وصلى فيه صلاة الفتح وجمعه مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخیل ولم يتمتع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المفاهم بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وبما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافات كالأرض المزروعة والأرض المنجبة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ولما ورد الخس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا علي في هذا القطف فأجمع ملوهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك قز رأيك إلا ما كان من علي فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ماسمت دجلة والثاني على ماسق الفرات



## المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز -  
غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء.

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب  
وإلى الجبال وفارس فنادمروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا مكان يفرق  
بيننا فهلموا فلجتمع للعرب به ولتقاتلهم فإن كان لنا فهو الذي نريد وإن كانت علينا  
كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا عذرا فخصموا جلولاء واحترفوا الخندق حولها  
واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدم بالرجال  
والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم فأرسل سمد  
بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعيينه  
ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر ألفا حتى  
نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يراخفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم  
ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في  
سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على  
الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمقابلة  
ذلك العدو الشديد أخذوا يئسوا ويسروا هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم  
أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خائقين ولما بلغت الهزيمة  
يزدجرد بارح حلوان قاصدا الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها  
مرابطا لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر في ذلك  
الوقت أن يقتصر على ما ملسكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين  
السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون إلينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد  
وإني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال  
كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كرم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كتبتى به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدرى منك فكيف لأقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجرى للفلاحين قبلهم وإذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم بجرهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تراخفوا فيها أربعة وعشرين زحفا في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاؤهم من خلفهم فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقم منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبدان<sup>(١)</sup> فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة نائلة لفتح قرقيساء<sup>(٢)</sup> يقودها عمر ابن مالك فافتتح في مسيره هيت<sup>(٣)</sup> وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

- (١) كورة بها عدة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همدان
- (٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور في الفرات فهى مثلك بين الخابور والفرات
- (٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية



### تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيرا فقال عمر ( والله ما هيئتكم بالهيئة التي بدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدموا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكاتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكاتب إليه سعد إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فأبعث سلمان وحذيفة رائدين فايرتادا منزلا بر يا بحريا ليس يبني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصاء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جندا ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيأهم ثم أذن لهم أن يبناو بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبني بالبن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدى وأوضح مناهجها وما يابها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعا وما يابها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعا

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاخطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزاع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراءه واقع السهام وبني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت الأكسرة سماؤها كأمسية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياه داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذي بناه له فارسى كبنية الأكسرة فى الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذى وضعت عايه الكوفة بنى عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهى وإن نزلها المسلمون

سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا في السنة التي اختطت فيها الكوفة  
ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان<sup>(١)</sup> وماسبذان وقرقيساء  
والموصل<sup>(٢)</sup> وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة تُقرأ له أمير خاص يعينه  
أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل بينهما الجنود  
لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

### فتح الجزيرة<sup>(٣)</sup>

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداهما يقودها سهيل بن عدي لفتح  
الرقعة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد  
لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد  
العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا  
من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بمحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى  
كورته فكان في ذلك تخفيفا على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحته ثم فتحت  
نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطالب خفوا وتركوا أرضهم  
وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون  
منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم  
فيكون جزاء فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن  
يعودوا إلى بلادهم ويقموا بها على ما قبل منهم

- (١) في آخر حدود السواد إلى الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة
- (٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الإسلامية الكبرى
- (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور  
تشمعل على ديار مضر وديار بكر ومن أهوات مدنها حران والرها والرقعة ورأس  
عين ونصيبين بجنار ووانخابور وماردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك



فتح الأهواز<sup>(١)</sup>

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظماؤها وكان يغير على ما يبد المسلمون فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمدته فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فمزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق<sup>(٢)</sup> ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين: ثم حصل بين رؤساء القرة المرابطة خلاف في حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالآكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك انسق المسلمون جميع الأهواز إلى تستر فراسمهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقص من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل إليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندي لمصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أن ظلمت الذمة المظلمة نفرؤا أم لغير ذلك فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذا انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو يغي فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهده الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

- (١) بجرع كور عدها ياقوت عشراً وهي سوق الأهواز ورامهرمز وايدج وعسكر  
مكرم وتستر وجندی سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر  
(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين  
الفاصد من حلوان العراق إلى همدان في تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يبارى سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاكسة وأخذ حدود مايلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فترسوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحماهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً: عبرت تلك الجنود نجر في جو اصطخر<sup>(١)</sup> وبارزتهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرک الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فمسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه يعزله . أمره بأثقل الأشياء عليه وأبفض الوجوه إليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فاندب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا إخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا فضل نوابت أمصار ثم انكسروا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فأنصرف فمات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فر به زائراً لبقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأتى عليه بفضلته وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

(١) مدينة كبيرة لفارس وهي قاعدة آتورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك

فارس حتى تحول ازدشير إلى جور



فتح رامهرمز والسوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس<sup>(١)</sup> وهو بمروف كتب اليهم يذكرهم الاحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتبانه أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يعث إلى الأهواز جنداً كثيراً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعري وكان ولاء البصرة بعد عزل المغيرة أن يعث جنداً إلى الأهواز يقوده سهل بن عدى وأمير الجندين معا أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاثلها فهزم دونها فترك رامهرمز وألحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تستر وهناك توافقت جنود المصريين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحمهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالات وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجوموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولم رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسرهم فلك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لآخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو في المسجد نائم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نيباً قالوا بل يعمل عمل الانبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية

(١) فارس اسم لولاية واسعة وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق رجوان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطخر (٢) أردشير (٣) دار أيجرد (٤) سابور (٥) قبادخرة

كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرک وما حاجتك في انتفاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا نأى به في إباء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيديوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعرض فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أسأمن به فقال له عمر إني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين أمنتته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أتخدع إلا ما سلم فأسلم ففرض له في العطاء على ألفين وأنزله المدينة

ثم قال عمر الوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما يذتقنون بكم فقالوا ما نعلم إلا الوفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نبيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حتى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا يانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه ثم قدمت الکتب على عمر باجتماع أهل نهاوند: فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

### فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحاء جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جزوي همذان فكتب عمر إلى النعمان

(١) مدينة عظيمة في قبة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهي أعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين أصبهان



ابن مقرن يوليه محاربه المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيماً متحصناً في حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شأوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى في الحروب من معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشأوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فما الرأى فتكلم عمرو بن نبي وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أمك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الاسدي فقال أرى أن تبعث خيلاً تحرق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا بجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المنفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتلوا بالسيف قتالاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واسلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همدان فدخاها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همدان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتواها ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية إلى أصحابها وهم :

إلى زنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والسكر العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

(١) الأحنف بن قيس النميري ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه إلى أردشير خرة وسابور (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زينم الكناني ووجه إلى فسا ودرابجرد (٥) سهيل بن عدي ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان (٧) الحكم بن عمير النخعي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتح سنة ١٨ هـ

### فتح أصهان<sup>(١)</sup>

سار عبد الله بن عبد الله بن عتبة بجنده نحو أصهان وقاعدتها جي والمالك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبد الله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نذابة فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل علي وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع عبد الله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكري فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة بجرامهم ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جي بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغلبت من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبد الله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي

### فتح أذربيجان<sup>(٢)</sup>

بيننا نعيم بن مقرن في همدان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج رودزين همدان

(١) لإقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صتمع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدتها من برذعة مشرقا إلى أرنجان مغربا ويتصل حدتها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة



وقزوين فسار إليهم وقتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

### فتح الري<sup>(١)</sup>

بعد أن انتهى زعيم من واج الروذ سار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزبني بن قوله وكتب لهم كتاب صالح ثم وجه أخاه سرید بن مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلباً ومن هناك كاتبه ملك جراجان<sup>(٢)</sup> بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صالح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

### فتح الباب<sup>(٣)</sup>

كان قائد الجيش الذي وجه إلى الباب سراقه بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملككم شهربراز مستأمناً ليأتيه فأقننه عبد الرحمن بخاءه الملك وقال له إنى يازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ولا ينبغي لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح في شيء ولا من الآرامن ولا نكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذولونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فرقى رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقه فلقبه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقه قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء بمن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقه إلى عمر فأجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأمواهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عن أجداب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عرض من جزاتهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

(١) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب إليها رازى (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهي ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا ووضعت ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به - وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

### فتح خراسان (١)

كان يزيد جرد قدسار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقي من الأعمام فيمالم يفتحه المسلمون فدناؤه فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو والشاهجان فخرج منها يزيد جرد إلى مرو والروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو والروذ حتى إذا بلغ ذلك يزيد جرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزيد جرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهيه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزيد جرد النهر أتته جنود مدد آمن ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما حس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزيد جرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاندوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا من الأكرسة فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغضبوا

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موغان وتفليس وجبال اللان

### فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زعيم الدؤلي ثم فتح فسواد دار الجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطنخر . وفتح سهيل بن عدى كرمان : وفتح عاصم بن عمرو سجستان ، وفتح الحكم بن عمرو والتغلي مكران ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فإن عمر ولاء قيادة جيش

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ

وظالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون



لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قدم عليهم النفل رأى شيئا من حلية فقال إن هذا لا يبلغ فيكم شيئا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ووهوثة قالوا نعم قد طابت أنفسنا لجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس جلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعمها الذي معي أطيب منه فلما فرغ الناس قال يارفاً ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبت إلى ياحدهما جلست عليهما وإذا هو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداً نأفخر جئت إليه خبزة بزيت في عرضها ما لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا نأكلين معنا من هذا فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طاحه امرأته قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلاً وطعمها الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلًا منه ما يتابس طعامه بيده ولا فمه ثم قال اسقونا فجاءوا بس من سلت فقال أعط الرجل قال فشربت قليلاً ثم أخذته فشربت حتى قرع القدر فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس قال مرحبا بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصالح العرب إلا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لا أشبع الله إذا بطن عمر ثم قال ماجئت به أم والله إن تفرق المسلمون في مشائهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلت ما بارك الله فيما اختصتني به أقسم هذا في الناس قبل أن يصينني وإياك فاقرة فقسمه فيهم ولست في حاجة إلى أن أنهبكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين وكانت

المرأة تسكلم في شأن نفسها كما يتسكلم أعظم في الرجال نفسا ثم تبين كيف كان عمر  
يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض  
لأن يردها عليهم فكيف لانكرون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب  
وإلى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدي  
المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق  
نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك  
في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقع التي زاحفوا فيها أعداءهم  
وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون في أمره  
كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل  
ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق  
والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثاني



# فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

صفحة	صفحة
المحاضرة الرابعة ٣٤	المحاضرة الأولى ٣
الملك بالشام ٣٤	مباحث التاريخ الإسلامي ٣
الإمارة بالحجاز ٣٥	ما يلزم المؤرخ ٣
الحكم عند الأعراب في بواديهم ٣٧	جزيرة العرب ووصفها ٤
المحاضرة الخامسة ٣٩	أقسام الجزيرة الطبيعية ٧
الأخلاق ٣٩	الوصف الطبيعي لجزيرة العرب ٨
لغة العرب ٤٤	جو البلاد ١٠
المحاضرة السادسة ٤٨	مخاج الجزيرة ١٠
الكتابة عند العرب ٤٨	الشعوب العربية ١١
علوم العرب ٤٩	شعب قحطان ١١
دين العرب ٥٢	المحاضرة الثانية ١٤
المحاضرة السابعة ٥٨	شعب عدنان ١٤
النسب ٥٨	مساكن العدنانية ١٥
محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ٦١	بدو العرب وحضرم ١٦
السيرة الأدبية قبل النبوة ٦٥	تجارة العرب ١٦
المحاضرة الثامنة ٦٧	صناعة العرب ١٧
البعثة والدعوة ٦٧	أحوال العرب ١٧
المحاضرة التاسعة ٧٧	حال العرب الاجتماعية ١٧
مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب ٧٧	المحاضرة الثالثة ٢٥
هجرة الطائف ٧٩	حال العرب السياسية ٢٥
العروض على القبائل وإجابة ٨٠	ملك اليمن ٢٥
الأنصار	الملك بالحيرة ٢٩

صفحة	صفحة
١١٧	٨١
١١٧	٨٤
١١٨	٨٥
١١٩	٨٥
١٢٣	٩٣
١٢٣	٩٣
١٢٤	٩٦
١٢٤	٩٨
١٢٨	٩٩
١٢٩	١٠٠
١٢٩	١٠٠
١٣١	١٠٠
١٣٣	١٠١
١٣٤	١٠١
١٣٤	١٠١
١٣٥	١٠٢
١٣٨	١٠٨
١٣٨	١٠٨
١٣٨	١٠٨
١٤٠	١٠٨
١٤٨	١٠٩
١٤٨	١٠٩
١٥٤	١١٠
١٥٧	١١٠
١٥٧	١١٦
١٥٨	١١٦



صفحة	صفحة
١٩٦	١٥٨
المحاضرة الحادية والعشرون	الخلافة
١٩٦	١٥٨
عمر بن الخطاب	بيت الخلافة
١٩٦	١٦٢
كيف انتخب	شكل الانتخاب
١٩٧	١٦٨
ترجمة عمر بن الخطاب	المحاضرة التاسعة عشرة
١٩٨	١٦٨
أول خطاب لعمر	انتخاب أبي بكر
١٩٩	١٧٠
الفتوح في عهد عمر	أول خطاب لأبي بكر
٢٠٠	١٧١
في بلاد الفرس	ترجمة أبي بكر
٢٠٣	١٧١
أمر القادسية	أخلاق أبي بكر
٢٠٥	١٧٣
المحاضرة الثانية والعشرون	أخبار الردة
٢٠٥	١٧٦
تمام القادسية فتح المدائن	طلحة الرشيدى
٢١٥	١٧٧
المحاضرة الثالثة والعشرون	بنو تميم ومالك بن نورة
٢١٥	١٧٨
جولاء	بنو حنيفة ومسيلمة
٢١٧	١٧٩
تمصير الكوفة	البنين والاسود العنسى
٢١٨	١٨٠
فتح الجزيرة	البحرين والحطم
٢١٩	١٨١
فتح الاهواز	المحاضرة العشرون
٢٢٠	١٨١
غزو فارس من البحرين	ظهور الامة العربية
٢٢١	١٨٢
فتح رامهرمس والسوس وتستر	دولة الفرس
٢٢٢	١٨٣
فتح نهاوند	الرومان
٢٢٤	١٨٣
فتح أصبهان	غزو الروم
٢٢٤	١٨٤
فتح أذربيجان	غزو الفرس
٢٢٥	١٩٤
فتح الرى	إدارة البلاد في عهد أبي بكر
٢٢٥	١٩٥
فتح الباب	رزق الخليفة
٢٢٦	١٩٦
فتح خراسان	أرزاق الجند
٢٢٦	١٩٦
فتح أهل البصرة	أرزاق العمال
	١٩٦
	وفاة أبي بكر

۶۵۱  
 ۶۵۲  
 ۶۵۳  
 ۶۵۴  
 ۶۵۵  
 ۶۵۶  
 ۶۵۷  
 ۶۵۸  
 ۶۵۹  
 ۶۶۰  
 ۶۶۱  
 ۶۶۲  
 ۶۶۳  
 ۶۶۴  
 ۶۶۵  
 ۶۶۶  
 ۶۶۷  
 ۶۶۸  
 ۶۶۹  
 ۶۷۰  
 ۶۷۱  
 ۶۷۲  
 ۶۷۳  
 ۶۷۴  
 ۶۷۵  
 ۶۷۶  
 ۶۷۷  
 ۶۷۸  
 ۶۷۹  
 ۶۸۰  
 ۶۸۱  
 ۶۸۲  
 ۶۸۳  
 ۶۸۴  
 ۶۸۵  
 ۶۸۶  
 ۶۸۷  
 ۶۸۸  
 ۶۸۹  
 ۶۹۰  
 ۶۹۱  
 ۶۹۲  
 ۶۹۳  
 ۶۹۴  
 ۶۹۵  
 ۶۹۶  
 ۶۹۷  
 ۶۹۸  
 ۶۹۹  
 ۷۰۰

۶۵۱  
 ۶۵۲  
 ۶۵۳  
 ۶۵۴  
 ۶۵۵  
 ۶۵۶  
 ۶۵۷  
 ۶۵۸  
 ۶۵۹  
 ۶۶۰  
 ۶۶۱  
 ۶۶۲  
 ۶۶۳  
 ۶۶۴  
 ۶۶۵  
 ۶۶۶  
 ۶۶۷  
 ۶۶۸  
 ۶۶۹  
 ۶۷۰  
 ۶۷۱  
 ۶۷۲  
 ۶۷۳  
 ۶۷۴  
 ۶۷۵  
 ۶۷۶  
 ۶۷۷  
 ۶۷۸  
 ۶۷۹  
 ۶۸۰  
 ۶۸۱  
 ۶۸۲  
 ۶۸۳  
 ۶۸۴  
 ۶۸۵  
 ۶۸۶  
 ۶۸۷  
 ۶۸۸  
 ۶۸۹  
 ۶۹۰  
 ۶۹۱  
 ۶۹۲  
 ۶۹۳  
 ۶۹۴  
 ۶۹۵  
 ۶۹۶  
 ۶۹۷  
 ۶۹۸  
 ۶۹۹  
 ۷۰۰



# محاضرات تاريخ الإسلام

تأليف المؤلف  
السيد محمد الحضري بك القس برزاق المعارف  
مدرس تاريخ الإسلام بالجامعة المصرية

## الجزء الثاني

يطلب من المكتبة القارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر  
إصاها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة: سنة ١٣٥٤ هجرية

(جميع الحقوق محفوظة)

مطبعة الانشقاق

شارع الأزهر رقم ١٤٠ قسم ١٤٠  
بمصر

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح في بلاد الروم - فتح حمص - فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك في أول خلافة عمر في أثنائها جاء الخبر بموت أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت إمرته بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل<sup>(١)</sup> من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد وهنا التقى العثنان فانهزم الروم ودخلت المسلمين فحل وسار الروم إلى دمشق فكانت فحل في ذى القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا إلى دمشق<sup>(٢)</sup> وخالد على المقدمة فحصرها ونزلوا حولها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا موافقهم ولا يدرون مالشان وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما بقى باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامى والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا وهنأوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعا بهم وكان خالد لا ينام ولا يقيم ولا يبتغي عليه شيء من أمر العدو عيونهم زكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهيئة السلايم وأوهاقا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون في فرح لعظيمهم فهدى بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وأمثاله وقال للجند إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا بنا وانهدوا للباب فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين

(٢) بلد عظيم هو قسبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية في عهد الدولة الأموية



القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعوا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المسكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخل وتوافرا لذلك فلم يبق بمن دخل معه أحد إلا رقى أودنا من الباب حتى إذا استووا على السور حذر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المسكان لمن يرتقى وأمرهم بالتسكير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأناهمهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذي أراد عنوة أرزمن أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم ينجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وانتهى بها وهذا صلحا وتسكينا فأجر وانا حية خالد مجرى الصلح فصار صلحا وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحا وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به

### الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر بالطريق وشنس فوق الجندان متقابلين وفي الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعملوا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محارباً وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص

### فتح حمص<sup>(١)</sup>

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق

محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد  
ولما رأوا أنه لم يصيبهم شيء تراجعوا إلى الصالح فصولحوا على مثل صالح أهل دمشق

ثم أرسل خالد إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر<sup>(١)</sup> زحف إليهم الروم وعليهم مينا  
وهو أعظمهم بعد هرقل فلا قام خالد بالحاضر فمزهم وقتل مينا ولم يفلت من الروم أحد  
أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حرب  
فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبابكر هو كان أعلم  
بالرجال مني وقال في حقه هو والمتى بن حارثة إنى لم أعز لها عن رية ولكن الناس  
عظموها فحشيت أن يوكوا إليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه  
فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لانزلكم إلينا فظفروا في أمرهم وذكروا  
ما لى أهل حصن فصالحوه على صالح حصن ثم فتحت قيسارية<sup>(٢)</sup> على يد معاوية بن أبي سفيان  
وفتحت أجنادين<sup>(٣)</sup> على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطوبون وهو أدهى الروم وأبعدها غورا  
وأنكاه فعلا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب  
فانظروا عم تنفرج . أقام عمرو على أجنادين لا يقدر ابن الأرتوبون على سقطه ولا تشفيه الرسل  
فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصوه حتى عرف  
ما أراد وقال أرطوبون في نفسه والله إن هذا لعمر وأو أنه للذى يأخذ عمرو برأيه وما كنت  
لأصيب النوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرساً فسأزه بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا  
وكذا فإذا مزك فاقته وفضن له عمرو فقال قد سمعت منى وسمعت منك فأما ماقلته  
فقد وقع منى موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالى لنكاتفه  
ويشهدنا أموره فأرجع فأتيك بهم الآن فإن رأوا فى الذى عرضت مثل الذى أرى  
فقد رآه أهل العسكر والامير وإن لم يروه رددتهم إلى ما منهم وكنت على رأس أمرك  
فقال نعم ودعا رجلا فسأزه وقال اذهب إلى فلان وردّه إلى فرجع إليه الرجل  
وقال لعمر و اذهب فبئى بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومى بأنه

- (١) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب  
(٢) بلدة على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام  
وكانت قديما من أمتهات المدن (٣) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين



قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق <sup>(١)</sup> ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه  
فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إن  
أرطبون انهزم من الناس فأرى إلى إيليا ونزل عمرو أجنادين

### فتح بيت المقدس

كانت إيلياء عاصمة الدين فقيمها البيت المقدس وخدام الدين وكان المنزلى لا مرحرهم  
عمرو بن العاص لانه ولي على فلسطين وإيليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها  
الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المنزلى لعقده عمر بن الخطاب فكتب  
إليه عمرو بذلك فسار إلى الشام وهي أول خروجه خروجهما وكتب إلى أمراء الشام أن  
يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجايصة فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم  
أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحريز فزل وأخذ الحجارة فرماهم بها  
وقال سرع ما لفتم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الري وإنما شبعتم منذ سنتين  
سرع ما نددت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس الثنين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا  
يا أمير المؤمنين إنها يلامقة وإن علينا السلاح قال نعمم إذا وركب حتى دخل الجاية  
وعمر وشرجيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءت رسل أهل إيليا يطلبون السلام  
فسألهم وكتب لهم كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر  
أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وليكنائسهم  
وصلبانهم وسقيهم وبريتهم وسائر ملتهم أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها  
ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار  
أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية  
كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن  
على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل  
إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى

(١) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلا على بلاهة فاعلمها ولا يتصور  
أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركاً جنده من غير راع لهم خصوصاً إذا كان  
ذلك القائد هو عمرو بن العاص

بيعتهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحدد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ( شهد على ذلك خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وجضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبتريك أريد الصلاة فقال له صل موضعا فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردا فلما قضى صلاته قال للبتريك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعا أبني فيه مسجدا فقال على الصخرة التي كلم الله عليها بعقوب فوجد عليها ردما كثيرا فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال الحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولي أمراء الشام بعد أن قسمها أقساما وجعل فلسطين ولايتين إحداهما الرملة والأخرى قصبها إيلياء - ومما يزيد المسلم شرفا تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلوبهم من الوفاء والعدل فإذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والأنصار فسار حتى إذا نزل بسرغ<sup>(١)</sup> لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع إلى المهاجرين الأولين قال لجمعهم له فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وماعنده ولا ترى أن يصدق عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل إنه لبلاء وفناء ما ترى أن تقدم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني . ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار لجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام



ثم قال اجعل لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالاس فإنه بلاء وفناء فقال عمر يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل إن أمير المؤمنين يقول لكم إنى أصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس إنى راجع فارجموا فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله قال فرارا من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة والآخرى جدبة أليس يرى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا بأبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فينا الناس على ذلك إذ أتى عبدالرحمن بن عوف وكان متخلفا عن اناس لم يشهدهم بالامس فلما أخبر الخبر قال عندى من هذا ولم قال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سمعتم بهذا الوباء يبلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأتمم به فلا تخرجوا فرارا منه لا يخرجنكم إلا ذلك فقال عمر فله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشرف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإتماشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال فخرج وخرج الناس فذرت قوا حتى رفعه الله عنهم فباغ عمر ما فعله عمرو فأكراهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر في أمر الناس بعده هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاية وورث الأحياء من الأموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وإنى قد وليت عليكم قضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم إلى أن قال - فمن علم علم شئ منى بى العمل به فباغتنا عمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فأتى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يذكره يكأهم لذكراه صلى الله عليه وسلم ثم رجع عمر إلى المدينة وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمى :

ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص في محاضراتنا أحببنا أن نرجع تفصيل فتحها إلى الوقت الذي تتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام وأديرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجباة ولما كانت حياة عمر بمنازة بما كان فيها مما جعل بعد أساسا عظيما لكثير من المدنية الإسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملة لتعلم مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسيا في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبي بكر الصديق

## المحاضرة الخامسة والعشرون

- القضاء — سيرة عمر في عماله — معاملة عمر للرعية —
- عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصيحة —
- رأى عمر في الاجتماعات — وصفه وبيته

### القضاء

عمر أول خليفة عين قضاء لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندي وكان من كبار النابغين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يدخل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولي الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طرفه في القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال لى رجل من أهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أمك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت . وهو الذى قال : حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نعم عليها شيئا فضر بها



رأيت رجالا يضربون نساءهم ه فشلت يميني يوم أضرب زينبا  
أضربها من غير ذنب أنت به ه فما العدل مني ضرب من ليس مذنباً  
فزينب شمس والنساء كواكب ه إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا  
توفي سنة ٨٧ ه

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص المهمي حسباً جاء بكتاب القضاة الذين  
ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها في الإسلام  
وولي أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة : ومن أعرف من ولامه أبو موسى الأشعري  
ولما كان العهد الذي ولاه به مما يبين لنا شيئاً من نظام القضاء وأصوله . أحببنا  
إيراده وودنكوه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد  
فإن القضاء فريضة <sup>(١)</sup> محكمة رسة متبعة فافهم <sup>(٢)</sup> إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق  
لانفاذله : أس <sup>(٣)</sup> بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك  
ولا يأس ضعيف من عدلك البيضة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح <sup>(٤)</sup> جائز  
بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً : لا يمنعك <sup>(٥)</sup> قضاء قضيتك اليوم

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضى بها وهي لا تعدو ما حثه الله  
وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة وما يبينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار إليه  
بالسنة المتبعة (٢) يريد أن من بدلى بحجته مهما يكن مصيباً بليغاً فإن كلامه لا ينفعه  
إذا لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالثبته لما يقال من الخصوم  
(٣) هذا أساس المساواة التي بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضى  
إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فثبت الغالقة فيه وإن نحا من مغبتها اليوم فإنه ليس  
بناج غداً (٤) تكاد تنفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام  
لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك  
حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور

(٥) يريد بذلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص لحكم به في قضيتك فإذا  
ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا

فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التهادى في الباطل : الفهم الفهم <sup>(١)</sup> فيما تاجاج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشباه والامثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل <sup>(٢)</sup> لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينة وإلا استحكمت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعنى . المسلمون <sup>(٣)</sup> عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنياً في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايان : وإياك <sup>(٤)</sup> والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس .

وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فسكره مرة بعد أن حكم في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذلك على ما قضينا وهذا على ما نقضى

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذى من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفاً بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك يذبح اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره في تفسيره أو تأويله . (٢) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول .

والذى ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه

(٣) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل في الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الأول الجلد في الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . الثاني المجرب عليه شهادة الزور . الثالث الظنين في الولاة أو النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب في قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون في زمنا كذلك

(٤) يشير بذلك إلى ما يجب على القاضى من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرتائهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حرية في الدفاع عن نفسه



وماتحاق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله فما ظنك بثواب غير الله  
في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام  
وهذا الكتاب اتخذته جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية  
وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمانهم إلا سهلاً مجرداً عن النظمات الوضعية وكان للقاضي  
الكلمة العليا في قضاياها أعنى أنه مستقل تمام الاستقلال في قضائه لا يمنع شيء أن  
يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه  
سيرة عمر في عماله

كان عمر بن يشترى رضا العامة بمصاحبة الأمراء فكان الوالي في نظره فرداً من  
الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس  
لا يعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف  
الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل  
اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله  
وسواس الأمم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك  
أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي  
يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله  
ولعل ذلك لما كان في عهده من الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على  
غير ذلك الرأي لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن  
هناك ما يدعو إلى مراعاة هذه السياسة

كان إذا بعث عاملاً على عمل بقول اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا يضرىوا  
أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني . وخطب الناس يوم الجمعة فقال اللهم  
أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن  
يقسموا بينهم فيأثم وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لي : وكان إذا استعمل  
العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم  
على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم  
بالحق وتقسوا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا

العرب فذلّوها ولا تجمهروها فنفثوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأفلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم : وخطب مرة فقال أيها الناس إني والله ما أرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ فالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه قال أي والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لأقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا تضربوا المسلمين فذلّوهم ولا تجمهروهم فنفثوهم ولا تمنعوا حقوقهم فتركروهم ولا تنزلوهم الغياض فضيعوهم . وكان للارصول إلى ما يريد من عمله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم ، موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلة هناك فليرفعها وإذا ذلك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال يخافون أن يقتضوا على رؤس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يتعدون عن ظلم أي إنسان وقد استحضر عمر إليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكائية قدمت إليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن ومصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة لجمع بينه وبينهم فوجده بريئاً . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوى الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمه شنيعة فوجه إليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كفيه القليلة أن عزّل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم ما في يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضه الله لمثلهم : وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمر ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم إنه لا يدري علام استعمل فاختره عمر في ذلك اختباراً يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة في بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أسألك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتني وقد ساءتني



حين عزلتني فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنني تأولت قوله تعالى (ونريد أن  
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)  
ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر في كل أيامه إلا القليلين وفي مقدمتهم  
أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى  
ليحققها في البلد الذي حصلت فيه وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة الذي كان يثق به  
عمر ثقة تامة وكان محلاً لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سرياً  
وإنما كان يسأل من يريد سؤاله عنأه وأهله وعلى ملاءمة من الأشهاد ولم يكن هناك محل التأثير  
في أنفس المشهود لأن يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه  
مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم  
يفعل هذا الفعل إلا قليلاً وربما وجد هذا العمل مجالاً لاتقادم الوجهة النظرية الدينية  
ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل  
ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لوجعت أعطياته  
مباغتاً : لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك  
ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة . ولي كتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال  
فقال عمر ما هذا يا عبئة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال  
معك في هذا الوجه نصيره في بيت المال : وكانت التجارة هي التكاة التي يتكئ عليها  
بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمتهم عن التجارة منعاً باناً وعلى الجملة فشدة عمر  
على عماله رفعت الرعية

#### معاملته الرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته ورفته على عامة الناس من  
رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحسن من ذلك بمسؤولية عظمى فكان يقول لو أن جملاً  
هلك ضياعاً باسط الفرات لحشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت  
عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً فتأنيه بقيد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب  
في بطون في أيديهم ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي قال الحسن البصري

قال عمر لئن عشت لاسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حراً نج تقطع دوني أما عملهم فلا  
يرفعونها إلىي وأمامهم فلا يصلون إلىي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدت إلى مصارع الكبرى يقيم  
في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن  
الخطاب إلى حزة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار توثرت فقال يا أسلم أني أرى هؤلاء  
ركباً قصرأ بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها  
صبيان لها وقد منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب  
الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأذنو  
قالت ادن بخير أودع فقال ما بالك قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء  
الصبية يتضاغون قالت الجرع قال وأي شيء في هذا القدر قالت ما أسكتهم به حتى  
يناموا ، الله بيننا وبين عمر فقال أي رحمك الله ما يدري عمر بك قالت يتولى أمورنا  
ويغفل عنا فأقبل عليّ فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج  
عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله عليّ قلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثاً  
كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة  
لا أم لك لحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها  
وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علي وأنا أحزك لك وجعل ينفخ نحت  
القدر وكان ذالحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم  
القدر وقال ابغني شيئاً فأنته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعمهم وأنا أسطح  
لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقت معه فجعلت تقول جزاك  
الله خيراً إنك أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً إنك إذا جئت  
أمير المؤمنين وجدته هناك إن شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مريض  
السبع فجعلت أقول إنك لشأنا غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية بصطرعون  
ويضحكون ثم ناموا وهدموا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال يا أسلم إن الجرع  
أسهرهم وأبكامهم فأجبت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون  
مقصرأ بحق من ولى عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس إنني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم



وأقراكم عليكم وأشدتكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم  
ولكني عمرهم بمحزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها ووضعها  
أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فرجى الاستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن  
لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأيدته : لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس  
إلا دزته وهي عصا صغيرة كالمنحصرة كانت دائما في يده أنى سار وكان الناس يهابونها  
أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرّة  
تخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال أمط الطريق فلما كان في العام المقبل لقينى فقال  
ياسلة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فأنطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها  
على حبيك وأعلم أنها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ماذا كرتها قال وأنا ما نسيتها  
فعمركان مؤدبا حكيما ولعل دزته لم يسلم من خفقتها إلا القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا  
عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرّة وقال  
إنك أقبلت لانتهاج سلطان الله في الأرض فأجبت أن أعلمك أن سلطان الله  
لا يهابك والذي أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة  
لا يرى منها بدىلا

كانت الرعية - مع هذا تنهاه مهابة شديدة . روى أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا  
عبدالرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع  
أن نديم إليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبدالرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك  
والله لقد كنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتدت عليهم حتى خشيت الله وإيم الله  
لأننا أشد منهم فرقا منهم منى

عفته عن مال المسلمين

كان يجب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حبا عفته وأمانته فقد كان  
يرى مال المسلمين مرتعا وخيما لمن رتع فيه حتى أنه كان يقتر على نفسه تقثيرا ربما  
وجد مساعدا لاعتراض قصار النظر . كان عمر يرى أنه لا ينبغي أن يأكل إلا بما  
يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلى ما فوقه . كان يأخذ عظامه من بيت المال

ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فإذا حلّ ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يستد  
منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدّد منه ولما رأى بعض الصحابة ما يعانیه عمر  
من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطاحه والزيبر وقالوا لوقلنا لعمر في زيادة  
نزيدها إياه في رزقه فقال عثمان لم فلنعلم ما عنده من وراءه وراه فأتوا أم المؤمنين حفصة  
بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقبت حفصة عمر في ذلك  
فغضب وقال من هؤلاء لاسوائهم قالت لاسئيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم  
ما أفضل ما اتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس قالت ثوبين بمشقين  
كان يلبسهما للوفد واجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير  
فصينا عليه وهو حار أسفل عكّة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأى مبسط  
كان يبسط عندك كان أو طاً قالت كسامة نخين نربعه في الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا  
نصفه وتدرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر  
فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولاتبلغن  
بالترجية وإنما مثلى ومثل صاحبي كثلثة سلسكو طريقاً فضى الأول لسيله وقد تروّد  
فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سيله فأفضى إليه ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما  
ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقيهما

وكان يتحاشى أن يتنفع أحد من آل بيته بشئ ليس له فيه حق. روى مالك في الموطأ أنه خرج  
عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مر على أبي موسى الأشعري  
وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أه رأفة بكما به ثم قال بلى ههنا مال من  
مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلف كمامه فتبتاعان به متاعاً من متاع  
العراق ثم تبعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح  
فقال وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما  
بأباً فأربحاً فلما دفعا ذلك إلى عمر قال أكل الجيش أسلفه قال لا فقال عمر بن الخطاب  
ابنا أمير المؤمنين فأسلف كمامه أديا المال وربحه فأما عبد الله فسكت وأما عبيد الله فقال  
ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لونه نص هذا المال أو هلك أضمناه فقال عمر أدياه  
فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته  
قراضاً فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح



المال قالوا وهو أول قراض في الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب واحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبها وأهدت لها وفيها أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد اليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لاخير في أمر أبرم عن غير شوري من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذهة فصانع به ولا تحت يدك فتقيدك وقال آخرون فدكنا نهدى الثياب لنستئيب ونبعث بها التباع وانصيب شيئا فقال واسكن الرسول رسول المسلمين والبريد يريدكم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطائر إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة

ميله للاستشارة وقوله للنصح

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير في أمر أبرم من غير شوري وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قرش وغيرهم فما استقر عليهم رأيهم فعل به . ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزوم الناس وكانوا فيه تبعاهم ومن قام بهذا الأمر تبع الأولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاهم فجعل أولى الأمر منفيين لما رآه أولو الرأي والناس تبع ما أخذ به الامام من رأى أولى الرأي . وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأى مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهم فعزم أن يجعل للهراً حداً لا يتجاوزها الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد

قال الله تعالى (وَأْتِيَتْكُمْ لِحَدِيثِ قُنْطَارٍ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبيّنون له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد قال مرة في خطبته أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدقت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لورأينا فيك اعرجا جأ لقومناك بسيفنا فسرّه ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبدالمطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وعلي بن أبي طالب ونظرأؤهم

### رأى عمر في الاجتماعات

كان عمر يميل إلى أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوى إليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأن ذلك يدعوهم إلى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس أن عمر قال للناس من قريش بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وإيم الله إن هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم . ولأنى بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الإسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدموم لالفتكم وأهيب لكم في الناس . وفي الحق إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيق كثيرا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيد فائدة كبرى وهى نقل أفرأهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم إن كثرة المجالس تدعو بدرن ريب إلى كثرة الاختلاف فى المسائل التى تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة فى الدين والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس فى الدين اختلافا عظيما

### الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويجب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قورى يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيميا يضع



الشيء في موضعه يشتد حيناً ويلين حيناً حسبما توحى إليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم السير فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلمحها من أي إنسان ولذلك نقول إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التي تتحمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذي يقنى في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كالأدنانم مع تحمله مشقات الحياة وأنعابها . العربي يستدعي سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتدت معه أذلته فهلك وإن لنت معه ليكون رجلاً نافعا لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحرته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تناسك الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التي يجمعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العتاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

#### بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبدالله  
وعبدالرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جروم من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقتها  
في هدنة الحديبية

وتزوج قريية ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقتها في الهدنة

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصما وهذه طلقها

وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيدا ورقية ومات عنها

وتزوج لبية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عائكة

بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت الأمر

إليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغيبين عن أمير المؤمنين فقالت

نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته

فقال أكفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغني خبر أعيدك بالله منه قال ما هو قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثت نشات تحت كنف أم المؤمنين فى لىن ورفق وفىك غلظة ونحن نهابك وما تقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغاق بابها ويمنع خيرها ويدخل عابساً ويخرج عابساً

## المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر - عثمان وكيف انتخب - ترجمته - أول قضية نظر فيها كتبه إلى الأمصار - أول خطبة له - الفتوح فى عهده

### مقتل عمر

ما كان يظن أن تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضر به خنجر ولكن ذلك كان حتى بهلم الناس أنه ليس فى مكنة لإنسان أن يرضى الخاق كافة فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بما صنعه لهم وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراهم وذوى الساطان عليهم لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضر وأعدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختفون إلى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يومافى السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة ابن شعبة فإن على خراحا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وإيش صناعتك قال نجارة نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال قد



بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل زحاطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل لي رجا  
قال إن عشت لأعملن لك رجا يتحدث بهامن في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال  
عمر لقد توعدني العبد آتقا ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الاخبار  
فقال يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجد في كتاب الله  
التوراة قال عمر والله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك  
وحيلتك وإنه قد فني أجلك وعمر لا يحسّ وجمأ ولا ألما فلما كان من الغد جاءه كعب  
فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان  
وبقى يوم وليلة وهي لك إلى صيحتها . ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه  
القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يدا في مقتل عمر أو أنه كان عالما بما تم عليه الاتفاق  
بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فإذا يدعو كعبا إلى إنباء عمر بهذا النبأ  
والجواب على ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزا عظيما فإن كثيرا منهم يرون  
بعد ذلك أن توراته فيها علم كل شيء وأنه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة  
في تصديقه بما يوحى إليه وكعب هذا من أفاض علينا ثروة من الاخبار الإسرائيلية التي  
لا ندرى حقيقتها ولا ريب أن فيم أشيئا كثيرا هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس  
فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر إلى صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال  
صفوفا يسقونها فإذا استوت جاءه هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر  
له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرتة وهي التي  
قتلته وقتل معه كليب بن أبي البكير الليثي وكان خلفه قلبا وجد عمر حرا السلاح سقط  
وقال أفي الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر  
طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبدالله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلني قال  
يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة حمد الله أن لم يقتله رجل سيء  
الله سيءة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والانصار فيقول لهم أعن ملا منكم  
كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول :  
فواعدني كعب ثلاثا أعتها \* ولا شك أن القول ما قال لي كعب  
ومابي حذار الموت إني لميت \* ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

سم دعى له الطبيب فلم يجد للفضاء حيلة وتوفى ليلة الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبا أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته وروى أن طعنه كان يوم الاربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة من متوفى أبي بكر . والصحيح الأول ومدّة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنة حين قتل ٦٣ كصاحبيه

### ٣ - عثمان بن عفان

كيف اتخَب

لما طعن عمر وأحسّ بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده فتردد وقال إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ( يريد أبا بكر ) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ( يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته فإن سألتني ربي قلت سمعت نبيك يقول إن ساما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبد الله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لأرب لنا في أموركم ما حدثها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي إن كان خيرا فقد أصبنا منه وإن كان شرا فشرنا إلى الله حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إنى لسعيد

ثم كثر عليه القول بعد هنيئة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقاتلي لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحرأكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى عمر ثم رأيت أن لا أتحمّل أمركم حيا وميتا عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خال رسول الله صلى الله عليه وسلم والزيبر بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخبير



ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فإذا لولوا واليا فأحسنوا وازرتهم وأعينوه إن اتمن أحد  
منكم فلو دأ ماتته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس  
وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم  
راض إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم  
فيختاف الناس ثم عين لهم الأجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال  
للمقداد بن الأسود إذا وضعتونى فى حفرتى فأجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا  
رجلا منهم وقال اصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً  
وعبدالرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولاشئ له من  
الأمر وقرم على رؤسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وإن  
اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً  
فحكوا عبد الله بن عمر فأبى الفريقين حكمه فليختاروا رجلاً منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر  
فكروا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس  
فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة  
عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أباطلحة  
أن يجهبهم فتنافس القوم فى الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن  
تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام  
الثلاثة التى أمرتم ثم أجاس فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبدالرحمن بن عوف أيكم  
يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال  
أنا أو لراض ثم تابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطنى ميثاقاً  
لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تختص ذارحم ولا تألوا الامة فقال عبدالرحمن أعطونى  
موثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق  
الله أن لا أخص ذارحم لرحمه ولا آل المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله وبذلك صار  
الأمر فى عنق عبدالرحمن بن عوف فدار ليلته باقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وهن وفى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس يشاورهم ولا يخلو  
برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التى يستكمل فى صديحتها الأجل أتى  
منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يذهب إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير

في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الامر فقال الزبير نصيبي اعلى : وقال لسعد انا وانت كلاله فاجعل نصيبك لي فاخترنا قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحق إنى خلعت نفسي منها على أن أختار ولولم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردتها ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى علي فجاء فاجاه طويلا ثم أرسل إلى عثمان فجاء فاجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار والأمراء حتى التجم المسجد بأهله فقال أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدئين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قلب أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعان أيها الرهط على أنفسكم سيلا ودعى علياً فقال عليك عهد الله وميثاقه لنعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال اعلى فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك على تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع على يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين ليلية بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤  
ترجمة عثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموى القرشى وأمه أزوى بنت كرز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الأولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاعده ولكنه لم يحضر بدرأ خلفه عليه السلام لتمرير رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له



الرسول في غنائم بدر ثم زوجته بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاقه فيها كرشاه واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفي عليه السلام كان لأبي بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الأمور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ - فيبر سنة ٦٤٤ م)

#### أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركرا في دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والمرمزان وهم نجي فلما رهقهم ناروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأى شيء قتل جأؤا بالخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التي وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وبجته حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق فقال علي أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعانك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا ولهم قد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلاً حسناً لتلك المشكلة

### كتب عثمان إلى الأمراء والامصار

كتب عثمان إلى أمراء الامصار كتابا عاما هذه صورته ( أما بعد فإن الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتمطوهم مالمهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتمطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تتباون فاستفتحوا عليهم بالوفاء )  
وكتب إلى أمراء الاجناد بالثغور ( أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغيب عنا بل كان على ملائنا ولا يباغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإنني أنظر فيما أزمى الله النظر فيه والقيام عليه )

وكتب إلى عمال الخراج ( أما بعد فإن الله خاق الخاق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والامانة الامانة قوموا عايبها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تضلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم )

وكتب إلى الامة من المسلمين بالامصار ( أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالافتداء والاتباع فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الامة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والاعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا )

### أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ( إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتكم صبحتم أو أمسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم -



أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أناروها وعمروها وامتعوا بها طويلا ألم تلتفظهم ارموا  
بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير  
فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات  
الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا: المال والبنون  
زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)  
الامصار والامراء لاؤل عهد عثمان

كانت الامصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عثمان هذه

- (١) مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي
  - (٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي
  - (٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بني نوفل بن عبد مناف
  - (٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة
  - (٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي وهذه الخمس في الجزيرة  
العربية (٦) الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي
  - (٧) البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق
  - (٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي
  - (٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام
  - (١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي
- الفتوح في عهد عثمان

كانت مغازي أهل الكوفة الرى وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل  
الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى وكان بالكوفة إذذاك أربعون  
ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه  
في كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامى في تلك البلاد  
والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ففي عهد  
إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه  
فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة  
الباهلى إلى أرمينية فشتمت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان <sup>(١)</sup> سار إليها مجند كشيء فيه الحسن والحسين ابنا علي والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح وفي سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر <sup>(٢)</sup> حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادهم بمجموعهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة واهزم المسلمون فنفر قوا فرقتين فرقة عادت فقاتلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل علي ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخوه سلمان

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثر السند في عهد إمارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار إليهم عامر وأوقع بهم رقعة شديدة وفي عهد إمارة ابن عامر على البصرة قتل يزيد جرد آخر ملوك الفرس وبموته انتقضت الدولة الساسانية

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج إليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطيبين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان <sup>(٣)</sup> ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزماها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها. ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة وأما الشام فقد كانت جمعت كلها الممارية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم

---

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الري وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجليل (٢) هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدر بند (٣) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرق بلخ وغربي نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربي جيحون أيضا لئلا تبتعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدنها بطخارستان : طالقان



فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى قالقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس (١)

وفي سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يمتنى غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنع من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه فكتب إليه عمرو (إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاع العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية لا والذي بعث محمداً بالحق لأحمل فيه مسلماً أبداً

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تفرع بينهم فن اختار الغزوطا فاحمله وأعنه ففعل وسار إلى قبرس وأمه من مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك أسطولاً جعل أميره عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يفرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج في يوم طليعة في قارب فأنهى إلى المرقى من أرض الروم فنذربه فنكثوا عليه وقتلوه

وأما في مصر ففي عهد عمرو بن العاص انتفضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور الإسكندرية واستولى على كثير من مراكب الأسطول وسير عمر وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس

(١) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب

إلى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهى أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألف وخمسمائة ألف دينار وفي عهد إماره عبدالله بن سعد بلغه بجى ملك الروم بأسطول عظيم فيه ستائة مركب فسار إليه ابن سعد بأسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهمزت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهمز بمن نجح من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم ففي عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبدالله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد الحماية للنفور الإسلامية التي كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر

## المحاضرة السابعة والعشرون

### الأحوال الداخلية والفتن

#### الأحوال الداخلية

لا بد أن نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث روى الطبري عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حصر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا ياذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إنى سنت الإسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدسياً ثم بازلاً الأفهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد نزل الأول إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا إنى قائم دون شعب الحزبة آخذ بحلأقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار - فلما رى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رآوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع



من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا وزاعاً إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والاتقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنه كانت في العامة وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فإن الرجل ليستأذنه في الغزو وهو بمن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم الأنرى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر . وروى الطبري بسنده قال لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولا حقهم ومع هذا فهم متباعدهم العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً في الحجر على أعلامهم أن يباحوا حاضرة الخلافة

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التي جنى المسلمون مزاها أحقاباً طويلة وهم إلى الآن في آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم إذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤسائهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه . كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلاً إلى نزاع أو شر إلى ما قرئ في أنفسهم من الآفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلامعنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوقه وسها

ولى عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فافترض سعد من ابن مسعود مالا لأجل ولما حلّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية

على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا : يلوم هؤلاء سعدا ويلوم هؤلاء عبدالله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محبا إلى الناس رفيقا بهم : حدث في رمنه أن شبابا من شباب الكوفة تقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبيل بن أبي الأزدي فحُكوا وثبت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سمار يسمرون عنده ومنهم أبو يزيد الطائي وكان أبو يزيد نصرانيا ثم أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى أولئك نفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبازيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استرعننا بشيء لم تتبع عورته ولم تنتهك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت أى شيء أستر به إنما يقال هذا للعريب فتلاحيا وافترقا على تعاضب : ولم يكف ذلك أو تلك القوم بل صموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من اتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان من قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالوا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو بقاء الخمر فقال عثمان ما بقي الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى على بوجوب حده فحذوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله إنى قد بعثت اليكم وأنا كاره ولكنى لم أجد بدا إذ أمرت أن أتمر إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها والله لأضربن وجهها أو تعبيني وإنى لرائد نفسى اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة



والغالب على تلك البلاد روادف ردف وأعرب لحقت حتى ما ينظر إلى ذي شرف  
ولابلاء من نازلتها ولا نابتها : فكتب إليه عثمان (أما بعد فضل أهل السابقة والقدمة ممن  
فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعالهم إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوا  
القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزله وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق فإن المعرفة  
بالناس يصاب بها العدل ) فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام  
والقادية فقال لهم أتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا  
حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة وأدخل معهم من يحتمل من الواثق والروادف  
وخاص بالقرء والمستمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة ببساً شمלתه نار فانقطع إلى  
ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع  
أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة  
واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان في بعض الأحيان يجلس للناس  
جلوساً عاماً ولا يحجب عن مجلسه بأحد فينبأ هو ذات يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون  
إذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص أن من له مثل النشاستج  
لحقيق أن يكون جواداً والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث  
والله لو ددت أن هذا المطاط لك ( وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي  
يل الكوفة ) فقال الناس لذلك الشاب نص الله فاك تمنى له سواداً ثم نار إليه جماعة  
من سفهائهم فيهم الأشتر النخعي وعمير بن ضابئ ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن  
أن يمنع عنه فضر بهما كليهما في مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة  
لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك نفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولاهم لهم إلا الواقعة  
في سعيد ومن ولاءه فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج  
هؤلاء نفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبي سفيان  
فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرههم ثم قال لهم ذات يوم  
إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم السنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم  
وحويتهم مراتبهم وموارثهم وقد بلغني أنكم نقيتم قريشا وأن قريشا لو لم تكن عدتم  
أذلة كما كنتم إن أمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تستدوا عنى جنتكم وإن أمتكم اليوم يصبرون

لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتذنبن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم وبعدموتكم فردوا عليه ردّاً دل على تمكن الفتنة في رؤسهم فرد عليهم معاوية ردّاً شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة مه إن هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ما تصنعون وأنا أمامهم ماملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمري إن صنعكم ليشبه بعضه بعضا وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد فأدبهم عبد الرحمن تأديبا شديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم في الواقعة بعثمان وعماله رهزلاء هم رؤس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعي وكيل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدى وجنوب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحنق الخزاعي : وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليلغله أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغوه وقالوا والله لا يدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعري حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغرغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء ، وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من أثر

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج أهلها على أبي موسى الأشعري عاملهم واستغفوا عثمان منه فغزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين وثلاث سنين من إمارته بلغه أن في عبد القيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتسكر لهم وينفسد في الأرض ويصيب ما يشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرج من هنا حتى تأنسوا منه رشداً فكان لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقى إلى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل



يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت من يقول برجة المسيح ولا يقول برجة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى مايمائل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الانبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته فبلغ شئ من خبره عبدالله بن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك فقال مايلغنى ذلك فاخرج عنى فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر وهناك وجد مهده بعد أن نفت ما نفت بالعراق

أما الأمر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فإن ابن سبأ لما جاءها أتى إلى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي والكل نبي وصى وكان على وصى محمد ثم قال محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الاوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثن على وصيه وتناول أمر الامة ثم قال بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدعوا بالظن على أمرىكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تسميلوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر فبث دعواته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم لإخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لنى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا يا أمير المؤمنين بأتيتك عن الناس الذى بأتينا فقال لا والله ما جأنى إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يعث إلى الأمصار من يستقى أخبارها ويعلم علم ما فيها فندب لذلك رجلا سيرهم إلى الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق رجلا سواهم فى البلاد الأخرى فأقبل جميعهم

الإعصاراً فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم  
أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر  
يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن  
هليج وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان من أشدّ المؤلّين على عثمان بمصر  
رجلان : محمد بن أبي حذيفة . وكان الذي دعاه إلى ذلك أنه كان يتيماً في حجر عثمان فكان  
عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يا بني لو كنت  
رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلأخرج فلاطلب  
مايفوتني قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلى مصر  
كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية . والثاني : محمد بن أبي بكر وقد كان من الاسلام  
بالحل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذته عثمان من  
ظهوره ولم يدهن فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمماً  
بعد أن كان محمداً وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حافداً على عثمان  
فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب كلام  
فضربهما عثمان وكان قذفاً

أما الحال في الشام فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الخزم  
والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشذيع على عثمان وعمله  
وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أباذر فقال يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية  
يقول المال مال الله إلا أن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتججه دون المسلمين ويمحو  
اسم المسلمين فأباه أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله قال  
يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال فلا  
تقله قال فإني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء  
أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهودياً ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق  
به وأتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أباذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل  
يقول يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها  
في سبيل الله بمكوا من نار تسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع  
الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس



فكتب معاوية إلى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز إليه أباذر فأرسله إليه فلما قدم عليه ورأى المجالس في أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال يا أبا ذر على أن أقضى ما على وأخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوم إلى الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكنا من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأى فائل فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذي طلب منه ذلك فسيره وأجرى عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلى الإسلام : أما الحال في المدينة فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبثيون سببا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبدالله بن عاص ومعاوية وعبدالله بن سعد وأدخل معهم في المشورة سعيد ابن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة إني والله لخائف أن تكروا مصدوقا عليكم وما يعصب هذا إلا بي فقالوا له أمتبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ولا والله ما صدقوا ولا يترؤا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحد أفيقيمك على شيء وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الاتهام إليها قال فأشير وأعلى فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به في مجالسهم قال فادوا ذلك قال طالب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليتني فوليت قوما لا يأتيتك عنهم إلا الخبير والرجلان أعلم بتأخيتهما قال فالرأى قال حسن الأدب قال فما ترى يا عمر وأرى أنك قد لنت لهم وراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبك قدشئت في موضع الشدة وتدين في موضع اللين ، إن الشدة تدبني لمن لا يأو الناس شرأ واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين . فترون

أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لالهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرتتم به على قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن باب الذي يفاق عليه فيكشفكف به اللين والمؤتاة والمناعبة إلا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبدئ بعيب أحدها فإن سده شيء ففرق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد على حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي ووالله إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحز كما كشفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغترفوا لهم وإذاعة وطيت حقوق الله فلا تدنو أفئها . ثم رد الأمرام إلى أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنق فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقر على جيران رسول الله الأرزاق بجندي يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذي دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمراتهم الأمصار فلم يتبها لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري وأقره عثمان وما رجع الأمر لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بهمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلموا علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رأهما أو تلك القادة ون أخبروهما بما يريدون فقالوا إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعتها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا نقرناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فخطب به فخلعه فإن أبي قلنا فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نغفروا نقبل ونبصرهم بمجهودنا ولا نخذل أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفرأ إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجوهها على عند من لا يعلم



قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لاتتم إلا وإن قدمت بلداً فيه أهل فأتتمت لهذين الأمرين أو كذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حتى وإنى والله ما حميت حتى قبلى والله ما حواشيتاً لأحد ما حوا إلا ما غاب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً وانصهروا الصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يلها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوها منها أحداً إلا أن ساق درهما ومالى من بدير غير راحلين ومالى من ناغية ولا راغية وإنى قد وايت وإنى أكثر العرب بديراً وشاة فسالى اليوم شاة ولا بعير غير بديرين لحجى أ ك ذلك هو قالوا اللهم نعم وقالوا كان القرآن كتباً تتركها إلا واحداً إلا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء أ ك ذلك هو قالوا نعم

وقالوا أنى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم بحكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول إلى سيره ورسول رده أ ك ذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعمات الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعاً محملاً مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قبل لى فى استمهاله أسامة أ ك ذلك هو قالوا نعم

وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وإنى إنما نقلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نقل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أ ك ذلك هو قالوا نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم فأما حبي فإنه لم يمل معهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطائهم فإنى إنما أعطيتهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغية من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حرص شحيح أخين أتيت على أسنان أهل بيتى وقتى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الماحدون ما قالوا وإنى والله ما حملت على مصر من الأوصار فضلاً فيجوز ذلك إن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم إلا الأئمة ولا يحل لى منها شيء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا يتفقت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتباع منه ما آكل إلا من مالى

وقالوا أعطيت الأرض رجالاتها وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت فن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت في الذي يصيبهم بما آفاه الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كعب بن عجرة من يعطى فيه فبدأ بي أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فمكثوا بينهم وانفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والألف وأميرهم جميعا الغافقي بن حربب العكي ولم يجترؤا أن يعلوا الناس بخروجهم إلى الحرب وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدي وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضياعه كانت يبلدهم وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب علي وابن أبي حذيفة بينهم : ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذاخشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة وانفقوا جميعا أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلدا عليا وطلحة والزبير وقالوا إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ماجئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فشكلهم أبي ذلك عليهما فرجع الراءدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليا ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن



أهل الكوفة نفر أنوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالامر فرد عليهم ردا شديدا وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى اتهموا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكرروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها فزولوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كفيده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأنهم على فكلهمهم وقال ما ردكم بعددنا بكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال السكر فيون والبصريون جئنا ننصر لإخواننا كما كنا على ميعاد فقال لهم على كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتهم مراحل ثم طرقتهم نحرنا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لاحاجة لنا في هذا الرجل ليعتزل لنا ثم قالوا لعلي إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا إليه قال والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتابا فظن بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم علي وخرج من المدينة . ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أملاك ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو أبى وكان لا يزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره . وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبي وجاوز الحزام الطيبين وبلغ الأمر أشده ثم تمثل بهذا البيت) (فإن كنت ما كولا فكن خيرا آكل وإلا فأدركني ولما أمزق) وكانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلي ضلعا في هذا الامر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما في القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة

المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك عليّ المدينة رأساً في هذه الفتنة التي نطّان أنه لم يكن في إمكاه قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل مافي النفوس لأنّ الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أنّ رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمسكتهم أن يقاوموا هذا السبل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعّلوا ما فعلوا . لو كان هناك نظر بعيد لرؤس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فزقت كلمة المسلمين

استمرّ الحصار على عثمان واشتدّ عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شيء إلا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آخر ويعظّمهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شدّدوا عليه الحصار لما بلغهم أنّ جنداً من الأمصار أقبلت لنصر عثمان . وفي أثناء الحصار ولي عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطوّلاً يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه فسار ابن عباس أميراً على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر يريد أ قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافق بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة وانقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أموى له بعضهم فضرب عنقه وانتهوا مافي البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فانتهبوه وأذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً وكان قتله لثمان عشر ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ ( ٢٠ مايو سنة ٦٥٦ ) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم



## المحاضرة الثامنة والعشرون

أسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب —

ترجمته — أول خطبة له — أول أعماله —

إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان

بعد ان أتينا على تفصيل الحوادث التي أدت إلى هذه الفاجعة تتبعها بيان بحمل لما يستتج من تلك الحوادث

السبب الأول

وهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مرید سوء سبياً للدين والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكرامة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة وبجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الامور فإن من يصفح أحواهم وما كان يبدو على أسنتهم من الكلمات الشديدة المأولمة في حق عثمان سوام في وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكر وهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الأحيان نهلاً ونعل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للفض منه ويقول في لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخضب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التي أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ما تحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً إذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثاني

كان عثمان معروفاً بخاق الحياء واللين. أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته وفي إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام ( ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ) وخاق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فإن الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك

من استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا دعاه الخلق الاقول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية بل لا بد لمقام الخلافة من عيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللاتني بهم : انظروا إلى ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجرع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلا بمركبه فإنه خفقه بالدرّة وقال جئت لانهاب سلطان الله في أرضه فأجبت أن أعلك أن سلطان الله لا يهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفاً أردلة : والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا إليه وثبت أنهم يدرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يشيرون العامة بما يضره من الاحاديث الملققة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبا بقره بل اختار الابن على الشدة لئلا يكون فاتحاً باب الفتنة الذي يخيفه : ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلونها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فزادهم ذلك لإفساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتنفعهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلماء أعجزهم باب عدلوا إلى غيره

#### السبب الثالث

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في إعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم مما حبه إليهم ولكن ترتب عليه ما حذر عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لاسابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقرؤوا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم في يوم من الايام كانوا أقرب الناس إليهم فبه بذلك ذكرهم وإلا فلما إذا كان أهل البصرة يريدون مطلقه وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً . صحيح أن علياً لم يهجر مصر ولكن جاءه ما من هو أمس الناس بهرحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها على بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه على فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الاعلام أولئك هو منهم بسبيل حتى



يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم الأمر الآخرين اجتماع عليه ، لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتأمرين والذي يؤخذ عليهم هو هودتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمات وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

#### السبب الرابع

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهونون وما يحبون وهم في هذه الأحوال لا يصبرون حتى يثبتوا مما باقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه وبألمون له إن كان مؤملاً ويسرون إن كان ساراً : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عرباً يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التي بألفونها وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم على بن أبي طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبي وصى وأنه من اللازم أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غائم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحا لعلي بن أبي طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلها على نفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله في القلوب خصوصا إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتبع من أصابهم من ولاية عثمان أذى في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤيدونه لا غراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزونات فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأقر فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيون معاوية وهذا لم يوجد عثمان بل ولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العيال من استمره وثوقاه من عمر حياته كلها إلا أفراداً قلائل منهم

معاوية بن أبي سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيبون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لآلانه ظالم أو جائر وإنما الأمر آخر وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان ففعا عنه ولم يملوا أن الرسول كان إذاعنا فإنا ما جر على الذنب ستر الأيزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو واليا له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجرد العمال وأحكامهم بالقسط فلم تسكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيلة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاقت مصلحة الأمة . وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعه أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعه في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سديا دائما لتفريق كلمة المسلمين : ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلا أن المسألة البست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبتته وما يخلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسئلة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بمضمهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لأن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنها وتهيجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفة أن يفتنوها ويلقنوها عما يصلحها ويحملوا بأسها بينها



شديداً : وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك إن كان سراها بمن يساعد على فتح باب السر بإغضائه وتهاونه إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

#### دفن عثمان

من غريب ما فعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن إلا بصعوبة واستنار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

#### بيت عثمان

- ١ - ٢ - تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت ولداً اسمه عبدالله فمات ثم تزوج بعدها أم كلثوم أختها
- ٣ - وتزوج فاخنة بنت غزوان بن قيس عيلان وولدت له عبدالله الأصغر فمات
- ٤ - وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسي فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمراً ومريم
- ٥ - وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد
- ٦ - وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات
- ٧ - وتزوج رملة بنت شيبه من بنى عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو
- ٨ - وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم وقد توفي وعنده فاخنة وأم البنين ورملة ونائلة

#### عمال عثمان

العلاء بن الحضرمي على مكة - القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف - يعلى بن منية على صنعاء - عبد الله بن ربيعة على الجند - عبد الله بن عامر على البصرة - سعيد بن العاص على الكوفة - عبد الله بن سعد على مصر - معاوية بن أبي سفيان على الشام

## ٤ - علي بن أبي طالب

#### كيف انتخب

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب مشابهة لما كان عليه

الحال في انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اعلام الصحابة بالمدينة فاختاروا قليلاً ثم تابوا إلى الجماعة وأجمع رأيهم على انتخاب أبي بكر وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لانه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود في المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قائلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم من كان خارج المدينة ومنهم المرابطون في الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيماً بالمدينة

كانت الكلمة العليا في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من عليّ للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلاً ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الأشر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلا في الشورى وإن تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما . روى الطبري عن الزهري أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الأشر وسل سيفه والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لها إن أحببنا أن تبايعاني وإن أحببتنا بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالوا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجرى بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال خلوا سبيله . وجرى بعبد الله بن عمر ليبايع فقال لا أبايع حتى يبايع الناس قال ائتمني بحميل قال لا أرى حميلاً قال الأشر خل عني أضرب عنقه : قال عليّ دعوه أنا حميل إنك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً : وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبوسعيد الخدري ومحمد ابن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب ابن عجرة وكان هؤلاء عثمانيه يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة



وبايعة من عدا هؤلاء من أهل المدينة لإمان فر ولحق بالشام

### ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان عليّ مرافقاً وكان مقرباً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لا يرثاب المترصدون في وجوده بيته ثم هاجر بعد أن أدى الواجبات التي أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجته عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهدته عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فإن الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الأثر المحمود والمقام الذي لا يبجل في جميع الغزوات وكان شجاعاً يخوض الغمرات ولا يبالي بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا يعدلون به غيره لماله من شرف القرني والصحراء ولكن المسلمين رضوا بأبي بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كما استشار واستشير عمر كثير في الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضى وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى أن اسمه استعمل للتغريب بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً إن لم تقم معنا فلم كتبت اليك ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحاف على ذلك : ولما انتهى أمر عثمان بوبع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

### أول خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه إلى الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم

إلى الجنة إن الله حرم حراما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن ما من خلفكم الساعة تحذركم تخففوا تلحتموا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض

ولما أراد عليّ الذهاب إلى بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها إليك واحذرن أبا حسن هـ إنا نمر الأمر لمرار الرسن  
صولة أقوام كأسداد السفن هـ بمشريات كغدران اللبن  
ونظعن الملك بلين كالشطن هـ حتى يمزن علي غير عن

فقال عليّ وذكر ما كان

إني عجزت بحجة لا أعتذر هـ سوف أكيس بعدها وأستمر  
أرفع من ذبلي ما كنت أجر هـ وأجمع الأمر الشيت المتأثر  
إن لم يشاغبي العجول المنتصر هـ أو يتركوني والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا يملككم هاهم هؤلاء فدثارت معهم عبادانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما يزيدون قالوا لا قال فلا والله فلا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله إن هذا الأمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذها أبداً إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ماترون وفرقة مالاترون وفرقة لاترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب موافقها وتتخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا - واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفترق القوم وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر لاقدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا



إلى ما قال على أمثل وبعضهم يقول نقضى الذى علينا ولا تؤخره والله إن علياً لمستغن  
برأيه وأمره عناد لانزاه إلا سيكرن على قريش أشد من غيره

### أول أعمال على

رأى على أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاية عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل  
الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أتولا وابن عباس ثانياً فأبى ذلك إباء  
تاماً كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصاحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين  
وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملاً نقص في دينه ولو كان الأمر قد استتب وبإيعه  
أهل الأمصار لما كان في عزل الولاية شيئاً لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاية سلطانهم  
فهو حر في اختيار عماله واسكن هذه السرعة الغربية لم تفهم مع أنه قبل أن يؤخر الحد  
على فتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال على الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة وعماراً بن شهاب إلى الكوفة  
وعبيد بن عباس إلى اليمن وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر وسهل بن حنيف إلى الشام  
فأما سهل فإنه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسأله من أنت فقال أمير على الشام  
فقالوا إن كان عثمان بعثك فخيلاً بك وإن كان غيره بعثك فارجع قال أو ما سمعتم بالذى  
كان . قالوا بلى فرجع إلى على

وأما قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها فرقا فرقة دخلت في الجماعة  
وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتي وقالوا إن قتل قتلة عثمان فبحن معكم وإلا فحن  
على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع على ما لم يقدر إخواننا وهم  
في ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فإنه سار حتى البصرة وكان أهلها فرقا كأهل مصر وأما عماراً فإنه  
سار حتى إذا كان بزباله لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان  
خرج يدعو إلى الطلب بدمه نطلع عليه عماراً فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم  
بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عماراً وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى  
كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمسال

### اضطراب الحبل

اضطرب الحبل في جميع الأمصار الكبرى الإسلامية

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر و عثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع إليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض أن يدخل في بيعته لأسباب (١) أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان (٢) أنه آوى قتلته في جيشه (٣) أنه كان بين الرجائين نفور أدى إلى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل محتاراً في بيعه تديجتها لإذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أبق الإمارة عليهم ولم ير لعل بيعته توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً

أرسل علي إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشيء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عيس فدفع إليه طوماراً محتوماً عنوانه

### من معاوية إلى علي

وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض علي أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العباسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ما وراءك قال إني تركت قوما لا يرضون إلا بالقعود قال ممن قال من خيظ نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألسنت موتوراً كثره عثمان اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان نجا والله أقتله عثمان إلا أن يشاء الله ومن الغريب أن علياً لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل إني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخاص الرجل إلا بشق الأنفس أحب الناس أن يعلموا رأى علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهل القبلة أن يحسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا إليه زياد بن حنظلة التيمي فجلس إليه ساعة ثم قال له علي يا زياد



تيسر فقال لآي شئ قال تغزو الشام فقال زياد الأناة والرفق أمهل  
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم  
فتمثل على

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتذبك المظالم  
نخرج زياد على الناس فسألوه عماوراه فقال السيف ثم دعا على ابنه محمد فأعطاه  
لواءه وعبأجنده واستخلف على المدينة فثم بن عباس وأقبل على النهب والنهز . وبينما  
هو على ذلك إذ بجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة  
ومن لف لفهم ولأنهم توجهوا إلى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة  
وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبعد عن المدينة في هذه الأوقات وقد علت وهي  
بمكة أن عثمان قتل ولأنه قد بويع لعلي بعده تخبطت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا  
نصها (إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا إن  
عاب الغرغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل  
أسنانهم قبله ومراضع من مواضع الحى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح  
غيرها فتابعهم ونزغ لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خالجوا  
وبادروا بالعدوان ونبا قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام  
وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصعب عثمان خبير من طباق  
الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله  
لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخالص منه كما يخالص الذهب من خبثه أو الثوب  
من درنه إذ ماصوه كما يخالص الثوب بالماء)

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله بن عامر قدم  
من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت  
كلتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه  
ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج  
معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما  
علم بقدمهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي اتدب رجلين هما عمران  
ابن حصين وأبو الأسود الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلوا استأذنا على

عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدمها فقالت لهما إن الغوغاة من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه واتهبوا المسال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرن على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس ورايتنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا وقرأت لآخر في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ) تنهض في الإصلاح من أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والآن في هذا أننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكرتها كم عنه ونحضكم على تغييره : ثم سألت طاعة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قال ألم تبايع علياً قال بلى والهج على عتي وما أستقبل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فغرم على النهي لمنعه من البصرة ولم يكن أهلها على رأي واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه في مسيرة المربد ووقف الآخرون في ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاند يكون بين الفريقين شرٌّ فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنى ما جاءت له فانتزع أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأناشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا بحكم حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفي غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يتأشدهم ويدهوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشرّ وعضهم نادوا بالصالح فاصطاحوا على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرهما فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولاً هو كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة.



يوم الجمعة فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم أأكره  
هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة عليّ أم أتيا طائعين فلم يجبه أحد من القوم إلا  
ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان فوثب  
عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام شخصه من أيديهم صهيب  
ابن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده  
صهيب إلى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلى  
البصرة . وكان علي لما دلم بخبز كعب كتب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها  
على فرقة وولقد أكرها على جماعة وفضل وإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان  
غير ذلك نظرنا ونظرنا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان  
أن يخلى لهم الأمر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك  
البصرة وعاد إلى علي وكان الحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معه عدد عظيم من  
له شركة في دم عثمان ثم نادى الزبير وطلحة بالبصرة إلا من كان فيهم من  
قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم نجى بهم أذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش  
بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا  
بمثل ما قاموا هم به . واستمروا منتظرين ما أتاهم به الأقدار

روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة  
رأيت طلحة وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بالحيته على زوره فقلت يا أبا  
محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بالحيثك إلى زورك ألا كرهت  
شيئا فاجاس فقال يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا صرنا جباين من حديد  
يطالب بهضنا بهضنا إنه إن كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب  
دمه فأت فرد محمد بن طلحة : فإن لك ضيعة وعبالا فالإيك شيء يخلفك فقال ما أحب  
أن أرى أحدا يخف في هذا الأمر فأمنعه فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقت فإن  
حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته قال ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره

## المحاضرة التاسعة والعشرون

الجل - صفيين

أمر على

لما بلغ عليا مسير من سار إلى البصرة وهو يتهبأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطالب اليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفين له . ولما وصات الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيباً وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جرائم العرب فأغمدوا السيوف وأذعلوا الأسمنة وافطروا الأوتار وآورا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة فتكلمت رسل علي وأغلظت لأبي موسى القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لأهل الكوفة يا أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يديه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما تبليتنا وابتليتكم به فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن إنى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فقفز من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا لإخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجروا داويتهم بالرفق وبايتهم حتى يبدأوا بظلم ولن ندع أمرافيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله . ثم إن عليا اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أي أمة ما أشخصك وما أؤدمك هذه البلدة قالت أي بني إصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كمنصد عائشة فقال لهما القعقاع ما هذا الإصلاح قالوا قتله عثمان فإن هذا إن ترك



كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد تمنا قتل عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم فنلتم ستان رجل لارجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذلك الذي قلت ( حرقوص ابن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأدبلوا عليكم فالذي حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تسكروا وأتم أمحتهم مضروريعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصره لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا النار بعثه الله في هذه الأمة هزاهن فأثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوك إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمر ولا كقتل الرجل الرجل ولا نفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم أحسنت وأصبت فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحن غداً أحداً أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عى أنفسهم . فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء إن عزمك في خبطة الناس فصانعهم وإذا بقي الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغهم للظن فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تسكروا فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون . ولما وصل على إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا نزل ونظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل . قام السبئيون في الغلس ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة الزبير ما هذا قالوا

أطرفنا أهل الكوفة ليلا فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبيون قد وضعوا رجلا قريبا منه يخبره بما يريدون فقال له ما جئنا إلا وقوم منهم يتوننا فرددناهم من حيث جاؤا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بدأ من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعا دينيا وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشراً فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل      ننعى ابن عفان بأطراف الأسفل  
الموت أحلى عندنا من العسل      ردوا علينا شيخنا ثم يجمل  
ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف  
نادى اعزوا الجمل لجاء الإنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه  
قفل يمارى فيه من النبل لجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعوا مرضة الرجل  
واحتملا الهودج فتجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى دخلها البصرة : وقد ترك  
الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو  
ابن جرهموز فأتبعه حتى إذا كان بوادي الساع غافل فقتله  
قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من  
أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (و كاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن  
عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب  
وبعد أن انتهت الموقعة مرّ علي بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم  
قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى  
على القتلى وأمر بدفنتهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه فسلم  
عليها فعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة تجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها  
ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعها إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا



ما يكون بين المرأة وأحماها وأنه عندى على معتبى من الأخيار وقال على أيها الناس صدقت والله ورت ما كان بينى وبينها إلا ذلك وأنها الزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها على أميالا وسرح بنه معها يوماً

بعد انتهاء الواقعة أخذ على بيعة أهل البصرة وأمر عايبا عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الواقعة التى سهات على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيماً مهيباً لا يمكن أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد نصر الإمام فى إقامته أو اتهم بالهرادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أو لا للظفر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم يظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضاهم ولكنهم يقولون إن الذين إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبيئت ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتم هذا الصدع أحسن مما كان حقيقة أن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشؤوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقه من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وأن من الخطأ العظيم أن يستعين على بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق إنما يقع على رموسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضيق

المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظاً لأنفسهم على أن يجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاماً وهو عندنا الصادق في قوله والنتيجة أن تبعه هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يتعد عما يحدث الريبة وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والآن ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته والسكى لا يكون إلا آخر الدواء

### أمر صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفضاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين

انصرف على من البصرة إلى الكوفة فاختر جرير بن عبدالله البجلي ليكون رسولا إلى معاوية بن أبي سفيان يطالب إليه البيعة فشنخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فمأطله واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم والشام يجمع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المخنك فامتلك قلوبهم وصاروا أطوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمة بالاشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أى عمل في القصاص منهم فجاه جرير علياً وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير على إلا المسير والقتال . خرج فمسكر بالنجلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام أخذ على بجنوده طريق الجزيرة وعب الفرات من الرقة . هناك قدم طلائمه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحت جنود علي ومعاوية فمسكرت الطائفتان في سهل صفين وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض

اختار على ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشير بن عمرو



الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك وإني أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا قال يأمر بك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك قال معاوية ونظلم دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يا معاوية إني قد فهمت ما رددت : إنه والله لا ينبغي علينا ما نغزو وما نطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأجبت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمنى أمينته وفوق أمينته والله مالك في واحدة منهما خير إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك وإن أصبت وما نمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقاتلة الشديدة إلا الرد شديد وأمره إياهم بالانصراف فأتوا عيالاً وأخبروه بالخبر كان القوم جميعاً يبون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصالح واختلفت بينهما الرسل في ذلك فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي ويزيد بن خصفة وشبث بن ربعي وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حقه سبباً في عدم الجراح لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال إن أئتيك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقق به الدماء ويؤمن به السبل ويصالح به ذات البين إن ابن عمك سيد المرسلين أفضلها سابقاً وأحسنها في الإسلام أقرأ وقد استجمع له الناس وقد أرشدكم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فأنته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك يوماً مثل الجمل فقال معاوية كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصالحيها يا عدى كلا والله

لإني لآبن حرب ما يقف على بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيات يا عدى قد حلت بالساعد الأشد فقال شبت وزيادة أيتناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع ما ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيها بعمنا وإياك نفعه - وقال يزيد بن قيس إنا لم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولؤدى عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا إنا لنا عليك به حجة وإنك راجع به إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى وإن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا إنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهدي في الدنيا ولا أجمع لحصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد فإنكم دعوتهم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتهم إليها فمعناها وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرايتم قتلة صاحبنا أستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة فقال له شبت أيسرك يا معاوية أنك إن مكنت من عمار تقتله فقال وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان واسكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبت لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق ، وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصالح والدعوة شيئا في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحا أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب ابن مسلمة الفهري وشرحيل ابن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستقلتم حياته واستبطأتم وفاته فدعوتهم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شوري بينهم بولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له ما أنت لأأم لك



والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتربني  
بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجابت بخيالك ورجلك لأبقي الله عليك إن أبقيت  
على أحقره وسوا اذهب فصوب رصعدهما بذلك وقال شرحبيل بن السمطل ركبناك فلعمري  
ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبت به فقال علي  
نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم  
قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسن السيرة وعدلا  
في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا عليا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى  
عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل  
أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ولإنا  
نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف  
معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن طليق  
حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا  
في الإسلام كارهين فلا غرو لإخلافكم معه وانقيادكم معه وتدعون آل نبيكم الذين  
لا ينبغي لسكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً إلا أنى أدعوكم  
إلى كتاب الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد  
أن عثمان قتل مظلوما فقال لهما لأقول أنه قتل مظلوما ولأنه قتل ظالما قالوا فمن  
لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منه برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول  
لما انسخ المحرم أمر علي من بنادى الأإن أمير المؤمنين يقول لسكم إنى قد استدمتكم  
لتراجعوا الحق وتنبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدهوتكم اليه فلم تناهوا عن  
طغيان ولم تجيبوا إلى حق وإنى قد نبذت اليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ففرغ  
أهل الشام إلى أمرتهم ورؤسائهم وكتبوا كتابهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة  
الجيوش : وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب  
من غير أن يقف كل الجمعين وجهها لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من  
هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى  
لاناهاض هؤلاء القوم بجمعنا وانفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك  
يقول كعب بن جعيل النخعي

أصبحت الأمة في أمر عجب      والمملك بمجموع غدا لمن غلب  
فقلت قولا صادقا غير كذب      إن غدا تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف على بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام  
وفي ذلك يوم مشؤم لا يزال المسلمون يعدونه شؤما من لدن ذلك الحادث إلى الآن .  
تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء  
وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول  
وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فشى نحو الميسرة فانكشفت  
عند مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به في ذلك الوقت الاشر النخعي فقال له على  
انت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فلما هب اليهم الاشر وهبج الناس  
لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ولا يجمع  
إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وأخلفهم بصفوف معاوية  
بين النصر والمغرب ولم يزل الاشر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية  
يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطابية

أبت لي عفتى وأبي بلاني      وإقدامي على البطل المسيح  
وإعطائي على المكروه مالي      وأخذني الحد بالثمن الريح  
وقولي كلما جشأت وجاشت      مكانك تحمدي أو تستريح

فنعني هذا القول من الفرار : وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر  
ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل  
ويسمون هذه الليلة ليلة الحرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح  
يوم الجمعة أخذ الاشر يزحف بالميمنة ويقا تل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يده  
بالرجال لما رأى من ظفره . وبيناهم في الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت  
على رهوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا  
وبينكم من لشغور الشام بعد أهل الشام من لشغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى  
أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علي يا عباد الله  
امضوا على حتمكم وصدقكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب  
ابن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف



بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبهم رجالا فكانوا شرأطفال وشر رجال ويحكم  
انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلدون بما فيها ومارفعوها لكم إلا خديعة ودهاء  
ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزوجل فنأبى أن نقبله وقال مسعر  
ابن فدكى التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذ ادعيت إليه وإلا ندفعك  
برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفاف إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله  
عزوجل والله لتفعلنها ولنفعلنها بك : ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشر ليرك القتال  
فأرسل إليه رسولا فقال الأشر للرسول ليست هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني  
فيها عن موقعي إني قد رجوت أن بفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما انتهى  
إليه حتى ارتفع الريح وعلت الأصوات من قبل الأشر فقال له القوم والله ما نراك  
إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال للرسول  
ويحك قل للأشر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة  
الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريد فلما ذهب إليه قال له  
معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث  
منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعمل بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم تتبع ما اتفقا  
عليه فقال له الأشعث هذا الحق ثم رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا  
فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وإنما قد رضينا  
أبا موسى الأشعري فقال علي قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن وبين  
لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر على السير  
على مارأوا

## المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم - نتائجه - الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى على علي أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا نزل همد حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كان الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نجي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به ومالم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العمود والمواثق والثقة من الناس أنهما آتتان على أنفسهما وأهلها والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلنهما عهد الله وميثاقه أنا على ماني هذه الصحيفة وإني قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدتهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحببا أن يؤخرا ذلك أخرها على تراض منهما وإن توفى أحدا الحكمان فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألون أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحب فلا يحرصهما فيه لإامن أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ماني هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحادا وظلما اللهم إنا نستنصرك على من ترون ماني هذه الصحيفة ، . وبلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين -



وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفتحهم نيران السلاح لاستوصلت البقية الباقية وضاعت الثغور. ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته

يظهر للمتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والفرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفسك حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلاً عنه ولماذا؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا كرها حينها لم يجدوا مناصاً من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه الناس فيه بالخلافة ورددوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به إنسان ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ومثله لا ينال إلا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير على أن يتنزل إليها أما معاوية فإنه بدون ريب كان يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعة النسبية ثم كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والآثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن علياً لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له

بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وجدأمامه شهاباً تفسح له المجال في تلك المناوأة (١) أنه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتي ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي (٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثأرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالى لهم على فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يتمتع عن البيعة وبأخذ نفسه الحيلة حتى لا يقع في المذلة والمهان

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار رسالاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صالح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلى كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صالح حتى أن رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بالهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى بينهم وكلا الأمرين لا يرضى به علي أما قتلة عثمان فلا أنه إذا أراد انزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلا أنه لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صالح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الخطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي

### نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي فإن الأشعث ابن قيس خرج بكتتاب الصلح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقراه عليهم فقال عروة أتحمكون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة



خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمضى رؤساء بني تميم فنصلوا إليه واعتذروا  
فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متواتون  
أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم  
ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج  
يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا  
فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا  
ونادى مناديتهم أن أمير القتال شدبث بن ربعي التميمي (وهذا كان رسول علي إلى معاوية  
وكان يتوقع في خطابه ويعجب من معارفة كيف لم يبايع علياً وهو سيد المسلمين وابن  
عم سيد المسلمين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر  
شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فبعث  
إليهم علي عبدالله بن عباس وقال له لانه جل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيتك فخرج  
إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقتمتم من الحكمين وقد  
قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم  
فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر  
به - أما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة وفي  
السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فإن الله عز وجل  
يقول يحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين  
المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين : وقالوا إن هذه الآية بيننا أعدل عندك ابن  
العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل  
حزبه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا  
أو يرجعوا وقبل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم  
بينكم وبينه المودعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمودعة بين المسلمين  
وأهل الحرب منذ نزلت برامة إلا من أقر بالجزبة ثم جاء علي فوجد ابن عباس  
يخاصمهم فقال له انه عن كلامهم ألم أنك . ثم سألم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم  
يوم صفين فقال أنشدكم الله ألسنت قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتهم على رأيي ولما

أيتهم إلا ذلك اشترطهم على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن وأن يمينا ما أمات القرآن فإن حكما يحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وإن أيا فنحن من حكمهما براء قالوا له نخبرنا أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال قالوا نخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الآلة أدخلوا مصركم رحمكم الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى الله فبما كنا تبنا نبأيك وإلا فنحن مخالفون فبايهم على وقال أدخلوا فلنمكك ستة أشهر حتى يجي المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليا كان إماما ببيعبيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافراً فإذا يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحيثئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لأمعنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للشروع إن قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصا فالذين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لاحكم فيه إلا الله وهذا في نظرهم جريمة وفاعاها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء : فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضا باطلة . أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شها في نفس إمامة الإمام أمي منعقدة أم لم تتعد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيميا للرجال في دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف يبنى عليه حكم فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أولا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بتقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من على شك في إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء المطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلا



أيضا لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فإذا رأى من خصمه إنكاراً أو تمسكاً بشبهه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محكمين يكون حكمهما قاطعاً انزاع خصمه . وعلى الجملة فإن هذه الفئمة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تتضح فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض و صار لعل عدوان والمتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها إلا غاو في نظارهم وإلا فكيف يقول فعالمهم ؟ كانوا بالأمس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه بهذه المباينة [ ويرون أنه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد .

### اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث علي أربعائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي ومعهم ابن عباس يهـلى بهم وبلى أهورم وأبو موسى الأشعري معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا يرجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء . وإذا جاء رسول علي جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أميرناؤم . حين فإن كتبهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعلمون أماترون رسول معاوية يحيى لا يعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم بما رجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان وبخنا فيما جاء الأجله وهو لإصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو وقال ألسنت تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسى أشهد - قال عمرو ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه - قال بلى - قال عمرو فإن الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً) فما يمنك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإن

لك بذلك حجة تقول إنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو آخر أتم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان بقوله إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبى طالب وأما قولك إن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأولى معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما نعر يضك لى بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كاه ما وليته وما كنت لأرأشى فى حكم الله عز وجل ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو إن كنت تحب بيعة ابن عمر فإني منعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال إن ابنتك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة . وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلافهما فى خلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى فى كل كلام فنقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نرأصلح لأمرها ولا ألم لشعبها من أمر قد أجمع عليه رأى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنازرا - ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتب صحيفة فيها خلع على ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن طبع كثير من المؤرخين تذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتنفيذ معاوية شيئا لأن الذى ثبته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتماع عليه لا ما رضى به أحد الحكيم ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدى



إلى نتيجة لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة  
ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أى طريق يسلكه رقيقته يميل إلى معاوية ويحب تأييده  
وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمله إلا أن يصل  
إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان : قال المغيرة  
ابن شعبه لبعض من معه من قرش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان  
فدخل على عمرو فقال يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه كيف نرانا معشر المعتزلة  
فإننا قد شككنا في الأمر الذى قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن تتأني وتثبت  
حتى تجتمع الأمة فقال عمرو أراكم بامعشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء  
أبا موسى فسأله كما سأله عمرا فقال له أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف  
المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضى بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد  
إلى الحكيم أن يحميها ورضى به معاوية طبعاً لأن أقل ما في الحكم أن ليس لعلى  
وصار الأمر للناس يولون من شأوا وعنده جند عظيم يمتازونه ولا يفضلون عليه  
أحدًا فزادت آماله في أن يكون خليفة المسلمين

رأى على أنه لا بد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرضه له معاودة  
الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا  
يظنون أن علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له إن  
الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر  
فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لاحكم إلا الله وعلى يقول  
كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب  
الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من  
هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدائن منكبين  
لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين  
منهم فكلهم يأبأها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أمار الله لا آخذها  
رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فابعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا  
أن يخرجوا وحداناً مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان وكتب ابن وهب

للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعته على إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونخلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أيتيم لإلاما أردتم فكنت أنا وأتم كما قال أخوهوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج الولى ه فلم يستبينوا الرشد إلاضخى الغد  
فلمأصوني كنت منهموقدأرى ه مكان الهدى أو أتى غير ههدت  
وهل أما لإلامن غزية إن غوت ه غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكيمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحييا ماأمات القرآن واتبع كل منهما هواه اغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولاسنة ماضية واختلعا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا ونأهبوا للسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الإثنين . وكتب إلى الخوارج يدعهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه ( أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين ) فلما فرأ كتبهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالبخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة وإلى أمير المدائن يأمره أن يرسل إليه جندهما فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي . هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام فقام بينهم خطيبا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت : بلغ عليا وهو في مقامه بالبخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء ورامانا بخلفوتنا في أموالنا وعيالنا سربنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سربنا إلى عدوتنا من أهل الشام فلم يجد بدأ من موافقتهم ونادى



بالرحيل فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفخوا إلينا قلة إخواننا منكم تقتلهم بهم ثم  
أنا تارككم وكاف عنكم حتى أتى أهل الشام ففعل الله يقبل قلوبكم ويردكم إلى خير  
مما أتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماكم . ولم تنجح  
فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها وهم يسمعون فرجع راية  
مع أبي أيوب الأنصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم بمن لم يقتل ولم يستعرض  
فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن  
لأنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قلة إخواننا منكم في سفك دماءكم فانصرف منهم جمع  
وخرج إلى علي جمع وتقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى  
الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه  
ووجدوا من جرحاهم نحو ٤٠٠ من ٤٠٠ فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرتهم وقال احملوهم  
معكم فداووهم فإذا برعوا نخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم اعلى الظفر قال للناس  
توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبأنا وكلت سيوفنا  
وانصلت أسنننا ما حنا وعاد أكثرها تصدأ فأرجع إلى مصر نالنا مستعداً بحسن عدتنا ولعل  
أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من ملك منافاةه أو في لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر  
الناس أن يلزوا عسكريهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقولوا زيارة نسائهم  
وأبائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أياماً ثم أسلخوا من معسكرهم فدخلوا  
إلأرجالاً من وجوه الناس قايلاً وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة  
وانكسر دأبه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤسائهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم  
وما الذي ينظرون ففهم المعتل ومنهم المسكروه وأقلامهم من نشط : وهو في كل يوم يأتي  
عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يمر  
ولا يجلي ضعف سلطان أماءهم في أنفسهم وفضلوا الدعوة على تلك الحروب المستطيرة  
التي كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم . أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت  
على العكس من ذلك جنود مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظام  
ولذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما كان يستعين به من الحيل  
كان مما يهيم معاوية أن يستولى على مصر فإنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم

للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح : كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان  
فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلى ولى عليها قيس بن  
سعد بن عبادة وهو من عظام شيعة وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلاً سياسياً  
خبيراً بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية  
خرتبي قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصارى فبعث اليهم قيس  
إني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أنقل شيء على معاوية وجود  
قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على أهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع  
بينهما فكاكته معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل  
له حربه فكتب اليه كتاباً لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عك ولن  
يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكيدة فكتب  
له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة  
والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله يئأس منه واستنبط وجه الحيلة  
في إخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه  
فإنه لنا شيعه يأتينا كيس نصيحته سرّاً ألا ترون ما يفعل بأخوانكم الذين عندهم بحررتي  
يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه  
منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلى جراسيس بالشام فبعثوا اليه الخبر فانهم قيساً  
وكتب اليه يأمره بقتال أهل خرتبي وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم  
وكتب إلى علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرفهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا  
منى أن يؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد عدلت أن هوام مع  
معاوية فليست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذي أفعل بهم ولو أنى غزوتهم  
كانوا قرناهم أسود العرب فذرفي فأنا أعلم بما أدارى منهم - فأبى على الإقتالهم . أبى قيس  
أن يقاتلهم وكتب اليه إن كنت تهمني فاعزني عن عمك وابعث اليه غيري فعزله  
وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين بخيرهم  
بين أمرين الدخول في طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتى  
ننظر إلى ما نصير إليه أمورنا ولا نتعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم  
فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام



لعلي وأن علياً ومن معهما رجعوا عن أهل الشام اجتمعوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك علياً قال ما نصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم : والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالفلزم ويقال إنه سم في شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب علي إلى محمد بن أبي بكر ( أما بعد فقد بلغني موجودتك من تسريحي الأشتر إلى عمك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجدد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لو أيتك ما هو أيسر عليك في المؤونة وأعجب إليك ولاية منه : إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقي حمامه ونحن عنه رضوان فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أمرك ويعنك على ما ولاك أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته )

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بنهبها من ساهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة ابن مخلد ومعاوية بن شديج يقويهما ويمينهما فكتبتا إليه بخير من معهما وأنهم يمتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلب المدد فجوز إلى مصر عمرو بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أذاني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب إلى ابن أبي بكر ( أما بعد فتشع عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لأحب أن يصيبك مني ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلوك لو قد التقت حلقنا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين ) فكتب محمد إلى علي يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج إليه محمد في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يهتموا بهجمة الجنود الشامية ومن مالا هم من جنود مصر فقتل من قتل وفر

الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما علي فلم ينجح في إخراج الجنود لإغاثة مصر إلا بعد شدة حيث اتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلاً حتى بلغ علياً ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف علي يذيقها فأرسل النعمان بن بشير إلى عن التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلى فكتب إلى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا إليه فثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة . يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظالمكم انبحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انبحر الصب في جحره والضبع في وجارها المفرور من غررتموه ولئن فاز منكم فاز بالسهم أو خيب لأحرار عند النداء ولاخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا منيت بكم عمي لا تبصرون وبكم لا تطفون وسم لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون

ووجه معاوية بن أبي سفيان بن عوف في ستة آلاف للإغاثة على هيت والإنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الإنبار وبها مسلحة لعلى فطلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية فخرج على في طلبهم فلم يلحقهم ووجه عبدالله بن مسعدة إلى تيماء ، وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فرجه له على جيشا يقدمه المسيب بن نجبة الفزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتلوا قتالاً شديداً وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فأنهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للإغاثة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب إلى اليمن وكان والياً عبيد الله ابن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر إليه فر إلى الكوفة حتى أتى علياً واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله وكان بسر عسرفاً أسرف في قتل من رآه من شيعة علي



هكذا كانت الحال في تلك الأزمنة الثقيلة التي كانت إلى الفوضى أقرب  
ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلى فارقه وترك البصرة  
التي كانت قد ولاه عليها وجاء مكة لأن عليا اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين

## المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي — بيت علي — صفته وأخلاقه — الحسن بن علي —  
مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة —  
القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور —  
النقود — الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبدالرحمن بن ملجم والبرك بن عبدالله وعمرون  
بكر التيمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحوا عليهم  
وقالوا ما نضع بالبقاء بعدهم شيئا إخواننا الذين كانوا دعاء الناس لعبادة ربهم والذين  
كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شربنا أنفسنا فأئينا أئمة الضلالة فالتسنا قتلهم  
فأرحنا منهم البلاد وتأمرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال  
البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فنعاهدوا  
وتوافتقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه  
فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة نخلة من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل  
على صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيه صاحبه . فأما ابن ملجم  
المرادى وكان عدده في كندة نخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئا  
كرهه أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم على يوم النهر عشرة وفيهم  
امرأة يقال لها قطام ابنة الشحنة قتل على أبائها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلبارأها  
أذله عماء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفى لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة  
آلاف وعبودية وقاتل علي بن أبي طالب قال هو لك مهر أما على فلم أرك ذكره لي وأنت

تريديني قالت بل أتمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويميتك العيش معي وإن قتلت فاعند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ما جئت هذا المصير إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومه واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يربد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادى بالحكم لله لالك ولا لأصحابك ففرع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على علي فقالوا له إن فقدناك ولا نفقدك فبنايع الحسن فقال ما أمركم ولا أنها كم أنتم أبصرتم أوصى أولاده وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته

أدا البرك بن عبدالله فانه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودوى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد . وأما عمرو ابن بكر فجلس لعمر بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لانه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرا وأراد الله خارجة

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب

- (١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى
- (٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفر وأحمد وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت

له عمر ورقية (٦) أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأما زينب بنت رسول الله

صلى الله عليه وسلم فولدت له محمداً الأوسط



- (٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية  
(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى  
(٩) حياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة  
وكان له بنات من أمهات شتى منهن أم هانيء وميمونة وزينب الصغرى ورملة  
الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر  
وجمانة ونفيسة وأمها من أمهات أولاد شتى وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين  
ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

### صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من لحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال  
كيف دانت قریش لشيخين أولهما من بنى تميم بن كعب والثاني من بنى عدى وخضعت  
لها الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى  
إذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نفصت على أولها حياته في آخره ولم  
يصف الأمر لثانتهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم  
من قرب بنى عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم تشيرته الأدنون وسادة  
قریش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانتهما من المميزات  
الكبرى التي لم تجتمع في غيره . لا بد لذلك من أسباب : أما ما كان من أمر عثمان  
فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فإننا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق  
علي وما كان من الظروف التي أحاطت به  
كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي

### الشجاعة — الفقه — الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المهدودة وخاض غمرات  
الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بيانه  
موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدونه حتى إذا  
خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه ثم في بدر وما بعدها  
من المشاهد كان دليلاً لا يخفى مكانه يبارز الأقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة

هجمانه وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جزده على مخالفيه فعمل به الأفاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صرلته وقوة ضربته وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيته من ذكاه بنى عبدمناف ثم بنى هاشم ولم يزل معه إلى أن توفى عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداخل المزال إلى جواد الفضل والجمال

وطوراً كانت تنكشف لي الجبل عن وجوه بأسرة وأنياب كأشعة وأرواح في أشباح النور ومخالب النور وقد تحفزت للرناب ثم انقضت للاختلاب تغلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دورن مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء : وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدياً فصل عن المركب الإلهي واتصل بالروح الإنساني تغلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجل وسكن به إلى جانب التقديس بعد استخلاصه من شرائب التلبس وآفات كآني أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويصرهم مواضع الارتباب ويحذرهم مزلق الاضطراب ويرشدهم إلى دقات السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كبيراً



هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلاً على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفناها ويرى بذلك له الحق في ولاية الأمر دونهم فقد قال لقد تمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي ينحدر عن السيل ولا يرقى إلى الطير . وقال فوالله ما زلت مدفوعاً عن حق مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ . روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتها والاستعانة في الأمور بهما فقال لهما لقد نعمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً لا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتمكما عنه وأي قسم استأثرت عليكما به أم أي حق أرفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية أربة ولا كنسكم دعوتهموني اليها وحلموني عليها فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الاسوة فإن ذلك لم أحكم أنا فيه برأي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضى حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر . وأي نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزدها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أم خطأ فلما آل الأمر إلى علي كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قراده العظام بصفين . كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على

فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإمام لرددته فإن  
في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيقت : ببيع وولاية الأمصار من  
علية قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من  
أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قرلاب بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم  
حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فآووه وكانوا عليه يدأ واحدة  
أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة  
الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم  
ولا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان : وما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض  
وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على  
البصرة فقيم قلنا ابن عفان وكانت سأمته منهم وسأمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن  
له على أنفسهم سلطان يدعهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده  
كبراء قريش وعظماؤها فأرهم قومه بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهائين  
الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل ببعض الشيء لرؤس أجناده  
ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على القير والقطمير  
في وقت هو محتاج اليهم حتى كان شيء من ذلك سببا في تغير قلب ابن عباس عليه  
وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة . ليس شأن على في ذلك شأن عمر فإن عمر  
كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان مهظم الأمة عليه فضلا عن أن  
كثيرا من النهم كانت تلصق بعماله من قوم يشنون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله  
ابن عباس . وعلى الجملة إن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى  
عقيدته في نفسه وثقته المتنامية بما يراه واستغنائته عن رأى الأشياخ من قريش وشدة  
عليهم شدة لم يهدلها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حقه من السياسة

### الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبایعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن  
الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجد جندا لا يركن اليه وخصما  
قوى الشكينة وفرق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيرا لنفسه



وللامته من أن يتنازل لماوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة

### مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين

اصطاح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الإسلامية والعربية لعهدهم ونريد بالمدنية بجمع النظام الذى اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية سرام في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم

### الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس بسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثانى الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملاً لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة ذنوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعا في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لانص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لاحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وإنما هي سلطان أساسه الدين لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بنى تيم وعمر من بنى عدى وعثمان وعلى من بنى عبدمناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة

كونها لاتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبى بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة على لانه أباهما لمعارض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور أو أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحس الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الامر فى المسجد بعد أن يدعو (للصلاة جامعة) فيقول كل ما بداله وربما استشار بعد ذلك خلصته . وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم فى اعوجاجا فليقرمه . ورجال الشورى كانوا مخزنين من قبله إلا أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة ولم يكن يتقص هذا النظام البديع إلا شئ واحد وهو تعيين من لهم الصوت فى انتخاب الخلفاء بوصف بينهم لأن عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقة بين على ومعاوية لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم فى ذلك أهل الامصار الاخرى فتنابىع أهل المدينة لو احدثت تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لاتتم إلا برضا أهل الامصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شئ من شارات الملك ولا أهمته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره أن يكون لعماله - حجاب حتى أنه أرسل لسعد بن أبى وقاص من أحرق باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكرهم إليه



### القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأنّ معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجوش وتديبرها فتوضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم أنموذجاً يسرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين : ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من النخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواهم في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لامراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولي فلان قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة : وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعينك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتهدى في الزلّة ولا يحصر من النية إلى الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم إلى أقصاه أو يفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدديه إطراء ولا يستميله لإغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك )

وكان في كل عصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن بمجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة

فلا يرى فيها نصاً ويكرن النص وهو الحديث عنده غيره وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الافضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والافضية

لم يكن القاضى في أحكامه موكولاً إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولاً إلى الاجتهاد في فهم القانون الشرعى وتطبيقه على الحوادث والوقائع حقيقة أن ذلك القانون لم يعين بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضى والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه ولذلك أعدته المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة ما نعا الخلفاء من نظر أى خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء في آتات كثيرة فكان القضاء كانوا نواباً للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولأن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه مادام التنفيذ في يد القاضى فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاية الأمصار لأننا رأينا قضايا يحكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا يبدون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

#### قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود



الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش من يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر في معادئهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلامن عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دقن لهم الدراوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجده ويقال إن هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون في الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر مرتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسبق بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم على بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجنود ويقضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما عبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة السكتر والفتروهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفتر ويكتر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاماً رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنتظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تسكون في الأمام وهي التي تبدأ الماوشات وتتعرف الطريق وترتاد الماواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجنود ومجنبتان يمين ويسرى أو جناحان وساقه لكل فرقة أميراً تسمى بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤثروا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول ( وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً بتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم ساءرون إلى عدوهم مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يجيئون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قري أهل الصلح والذمة فلا

يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة  
ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولواهم خيراً ولا تنتصروا  
على أهل الحرب بظلم أهل الصالح . وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك  
وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض  
من تطعن إلى نصحه وصدقه فإن الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه  
والغاش عين عليك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تسكثر الطلائع  
وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم  
واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخبر لهم سوابق الخيل فإن لقوا  
عدواً كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاء  
ولا تلخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حايبت به أهل خاصتك  
ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكابة فإذا عاينت  
العدو فاضم إليك أفاضلك وأجمع إليك مسكيدتك وقوتك ثم لاتعاجلهم بالمناجزة  
مالم يستكروك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كعرفة  
أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من  
اليات جهدك الخ

### الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالاً مستقلين عن العمال  
والقواد وقليلاً ما كانوا يكون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق  
الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تنصيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار  
الخلافة ليصرف في مصارفه

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة : أما الأولى فهي  
الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضى التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها  
في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجره للأرض التي أقيمت في أيديهم وكانوا يجعلونه  
أحياناً شيئاً مقدراً كما جعل عمر في السواد وأحياناً يجعلونه حصصاً شائعة مما يخرج من الأرض  
أما الأراضى التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها



المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب فهذه أرض  
هشر ومثلها الاراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين : والعشر  
هو عشر ما يخرج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الارضين التى فتحها  
المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر فكيف  
يمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحينئذ  
ما هذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف فما رأى ما الارض والعلاج إلا ما أفاء  
الله عليهم فقال عمر ما هو إلا ما تقول واست أرى ذلك والله لا يفتح بعدى بلد فيكون  
فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلاجها  
وأرض الشام بعلاجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد  
وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء الله علينا بأسيا فإنا  
على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولا بناء القوم ولا بناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر  
لا يزيد على أن يقول هذا رأى قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا  
فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة  
وابن عمر رأى عمر فأرسل إلى عشرة من الأنصار وخمسة من الأوس وخمسة من  
الجزرج من كبارهم وأشرفهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال  
لبنى لم أرعجكم إلا لأن تشركوا معى فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم  
اليوم تفرقون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا  
هذا الذى هوأى . معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر  
أريده ما أريد به إلا الحق قالوا قل نسمع يا أبا عبد المؤمن قال قد سمعتم كلام هؤلاء  
القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت  
ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيتهم غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد  
أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلاجهم فقسمت ما غنمنا من أموال  
بين أهلها وأخرجت الخمس فوجته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس  
الارضين بعلاجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية  
ولمن يأتى من بعدهم : رأيتهم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها رأيتهم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراج العطاء عليهم فن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج فقالوا جميعاً الراى رأيك فنعماً قلت ومارأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما ينفقون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم : فقال قد بان لى الأمر فن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يخطر على فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعته إلى أم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المنقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خير وكان أشد الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر إذا أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الاعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرزقة ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كانت يوضع على رؤس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا يمن لاقدره له على العمل

روى أبو يوسف القاضى فى كتابه الموسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أى أهل الكتاب أنت فقال يهودى قال فما ألجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجق والسنة قال فأخذ عمر يده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون



وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه  
وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحول الناس ويسارهم لاتزيد عن ٤٨ درهما  
في السنة ولا تنقص عن اثني عشر. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من  
ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند  
وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعدهم  
وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

### الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر  
والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقد بينت الشريعة لكل ذلك  
نصا بما معينا لا تجب الزكاة فيما دونه وقدرا معينا لا يؤخذ فوجه بين ذلك في كتاب كتبه  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده وكانوا يعينون لأهل  
البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية

### العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر  
أموالهم فكاتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض  
الحرب فيأخذون منهم العشر فكاتب إليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين  
وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المئتين  
شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى  
عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فمشاور عمر أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلا  
من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفا فأخذ منه ألفا ثم مر عليه راجعا  
في سنته فقال أعطني ألفا أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفا قال  
نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوفاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليه فقال من أنت قال

رجل من نصارى العرب وقصّ عليه قصته فقال عمر ( كفيت ) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلا فقال الرجل قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا وإنى أشهد أنى على دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب

قد اتبع المسلمون عمر فى تشيير أموال التجارة التى تردّ من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملونى على عشور الإبله فأبيت فلقبى أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبت ما عمل عليه الإنسان قال فقال لى لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين من ليس له ذمة الشرك

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة إلى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفرأ وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقى يردّ إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

#### النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم السكروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قيراطا



فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٢٤ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المتقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كل منها - ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمتقال كنسبة ٧٠:١٠ نقل المرحوم علي مبارك باشا في خططه عن المقرئ الميرزا قال وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها الله أكبر

### الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبرا في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوه من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلبا يتخلفون وكان أكثرهم تولى الأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب حج سنيه كلها لم يتخلف أبدا إلا أنه حصل خلاف في السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبدالرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهرا عظيما وفائدة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض وأن الخلفاء يجيئهم من الأخبار ما لا يمكن أن يكون بواسطة الولاية

### الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه وكان في كل مصر مسجد جامع واحد تؤدي به الجمعة ولا ينصب منبر في غيره فلم تكن تقام إلا الجمعة واحدة في المصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالي ولم يبلغنا أنه تعددت المنابر في البلد الواحد في عهد الخلفاء الراشدين

### العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله صلى الله

عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فدايه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير من يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع في صحف في عهد أبي بكر وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار ليكون كل مصحف لإمام أهل المصر الذي أرسل إليه . أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع في كتاب . وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة وإنما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال فيها على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم لإنشاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا يتعلم سابق

## المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية — معاوية وترجمته — انتخابه

حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد والمال وأكثره العصبية كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لامية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فبنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبوسفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الاعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان



حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم رهن لسدادها ولده أبا سفيان : وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلا وأبوسفيان كان صديقا للعباس بن عبدالمطلب فلم يكن هذان البطان متعادين في الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية وإنما كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحيان المتقاربة وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطان مختلفين فيما به الشرف في الجاهلية الأولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطا وافرأ لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بني عبد شمس جمع كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك إلا أن بني هاشم وبني المطلب حذبا على رسول الله للعصية القومية العربية حيث حماه أبوطالب كبير بيته . وكان يزاحم بني عبد مناف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان المؤمنون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بني هاشم إلا أبو لهب : جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل من بني عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش في بدر من بني عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم في أحد والأحزاب أبوسفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة وكان أبوسفيان رجلا عظيما في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالبا بحجة الذخر والذكر فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفا له وتحببا إليه ما لم يعطه أحدا وهو أن أمر مناديا ينادى بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبوسفيان فهو آمن فسوى بين بيته وبين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله الآن وفي ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرا الناس بإسلامهم وكان يقابلهم قائما فاتحا ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان بن أمية

والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عفوه عنهم سيكون  
عيباً لاحتسابهم يعيرون به في مستقبل أيامهم

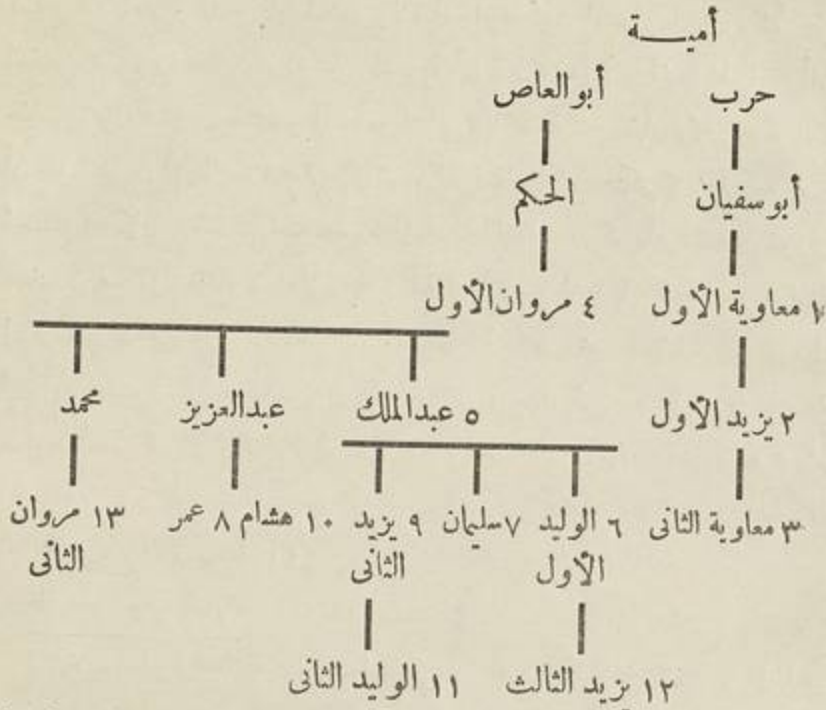
وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابان بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح  
ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيماً وأغروا غنائم حسناً  
ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم في شرق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذي  
عليهم الإسلام حتى يكتب لهم في نصرته ما يمحوا ما كتب عليهم في مغاضبته

ومن أشهر غنائمهم وعظم ذكركم يزيد بن أبي سفيان فقد كان ولاءه أبو بكر قيادة أحد  
الجنود الأربعة التي توجهت لفتح الشام وكان الوالي على دمشق لعمر بن الخطاب وكان  
أخوه معاوية عاملاً على إحدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه  
معاوية مضافاً إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحسن منه بحسن السياسة رقة التدبير  
والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية  
فصار والياً العام ويولى على الكور عمالاً من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش  
ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهقوها بالطاعة

وعلى الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام وقد  
قال عليه السلام ( الناس معادن يخارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا )  
فانصلت له السياتان

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبي العاص  
ابن أمية وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة على الشكل الآتي :





فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة ومدّة خلافة هذه الدولة  
تبتدئ من اليوم الذي بويع فيه معاوية بيعة عاقمة في ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهي بمقتل  
مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر

## ١ - معاوية بن أبي سفيان

ترجمته

هو معاوية بن أبي سفيان صحز بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة  
قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في  
الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة أبي بكر ولادة قيادة جيش مدد لأخيه يزيد بن أبي سفيان  
وأمره أن يلحق به فكان غازيا تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا  
وعرقه وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاء عمرو ولاية الأردن : ولما توفى  
يزيد في طاعون عمواس ولاء عمرو بن الخطاب عمل يزيد على دمشق ومأمعها . وفي عهد

عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاية أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان ويوبع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة في أمر عثمان وإيواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه علي بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان وانفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية لإمام أهل الشام وعليّ لإمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي ابن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية وحينئذ اجتمع على بيعه معاوية أهل العراق والشام وسمى ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية بالخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة . فلما قتل وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه في ربيع الأول سنة ٤١ فبيعه اختياراً من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق إلا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج حال الأمة عند استلام معاوية الأمر

تولى معاوية أمر الأمة وهي أقسام ثلاثة القسم الأول شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية . القسم الثاني شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالامر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان يسيلد العراق وقليل منهم بمصر . القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة عليّ لأنّ كلا قد ألد على زعمهم في الدين ومع



ما بينهما وهم من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه  
الامة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب الأمن عليها : أما معاوية  
نفسه فلم يكن أحد أو فر منه يدأ في السياسة صانع رموس العرب وقوم مضر بالإغضاء  
والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه  
لا تنزع ومرقانه فيه تزل عنها الأقدام

كان الذي يهيم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلبا ينفع معهم حسن السياسة  
لأنهم قوم غلوا في الدين غلوا عظيما وفهموا كثيرا منه على غير وجهه ففقر قرا كلمة  
الامة ورأوا من واجههم استعراض الأنافس وأخذ الأموال ولنبدا بذكر أخبارهم  
ليبان تفاصيل أحوالهم

لمابويح معاوية بالكوفة كان فروة بن زرفل الأشجعي معتزلا في ٥٠٠ من الخوارج  
فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية  
جمعا من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله  
لا أمان لكم عندي حتى تكفونهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج  
أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبنا كنا قد كفيناكم عدوكم  
وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة  
قهرا وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل  
الكوفة فقتلهم وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما إن أبالي إذا أرواحنا قبضت ٥ ماذا فعلتم بأوصال وأبشار  
تجرى الحجر والنسران عن قدر ٥ والشمس والقمر الساري بمقدار  
وقد علمت وخير القول أنفعه ٥ أن السعيد الذي ينجو من النار

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثة الأسدى فسار حتى قدم النخيلة  
في ١٥٠ وانضم إليه فل ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثة ا كفى أمر ابنك  
فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له يا بني أجيتك بابنك  
فلعلك تراه فنحن إليه فقال يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كهوب الرمح  
أشوق مني إلى ابني فرجع إلى معاوية فأخبره فقال يا أبا حوثة عتنا هذا جدا ولما  
نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا

سلطانها واليوم تقاتلون مع معاوية لتشددوا سلطانها فخرج إليه أبوه فدعاها إلى البراز فقال  
يأبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم وهو يقول

أكرر على هذى الجموع حوشرة \* فعن قليل ماتت المعقرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فدم على قتله .  
ثم توالى الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لا بد من تولية العراق  
رجالا ذرى قدرة وحكمة يأخذون على أيدي السفهاء ويشددون في طلب المريب فاختر  
رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة  
فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان والياً له على فارس وقتل علي وهو بها فذكر  
معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً في استقدامه فأتى المغيرة زياداً  
وقال له إن معاوية استخفه الوجل حتى بعثني إليك ولم يكن أحد يمد يده إلى هذا الأمر  
غير الحسن وقد بايع نخذ لنفسك قبل النواطين فيستغني عنك معاوية فقال زياد أشر  
علي وأرم الغرض الأقصى فإن المستشار وتوتمن فقال له المغيرة أرى أن تصل حبلك  
بجبله وتشخص إليه ويقضى الله : وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج  
زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما  
حمل إلى علي وبما بقى عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقى عنده

وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً الحقه بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان  
بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلى زياد في حياة علي يعرض له بولادة  
أبي سفيان إياه فلما علم بذلك على كتب إلى زياد يقول له ( إني وليتك ما وليتك  
وأنا أراك له أهلاً وقد كانت من أبي سفيان فنته من أمانى الباطل وكذب النفس  
لا توجب له ميراثاً ولا تحل له نسا وأن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن  
خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام ) فلما قتل علي رأى معاوية  
أن يستميل زياداً واستصفي مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبي سفيان  
وإن كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول  
لها من زياد بن أبي سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت إليه من  
عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وأراد زياد أن يجمع بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك  
أخوه أبو بكر وكان له مهاجر الجاه إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يا بني قل



لايك إنني سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك إلى المدينة ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم فإن أذفت لك فأعظم به خريا مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا فترك زياد الحج وفي السنة الخامسة والأربعين ولاة معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما في هذه الخطبة من روائع الكلام وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد أحبنا إيرادها قال  
أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغنى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام يثبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتسكونون كمن طرقت عينيه الدنيا وسدت مسامعه السموات واختار القافية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله : ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاية يمنع الغواة : عن دجل الليل وغارة النهار قربتم القرابة باعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفبه صنيع من لا يخاف عاقبه ولا يرجو معادا . ما أنتم بالحلما ولقد أتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوسا في مكائس الربيب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بصالح أوله : ابن في غير ضعف وشدة في غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولي بالمولي والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يأتي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم إن كذبة المنبر بقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله في أيي ودجل الليل في أي لا أوتى بمدجل إلا سفكت دمه وقد أجلسكم في ذلك بمقدار ما أتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإيأي ودعوى الجاهلية في أي لا أجد

أحدا عليها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقلبا أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً فنته فيه حيا فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لسانى ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بينى وبين أقوام لآحن جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ومن كان مسيئا فليزغ عن إساءته إني لو علمت أن أحدا منكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترأ حتى يبدى لى صفحته فإذا فعل لم أنظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدمونا سيسر ومسرور بقدمونا سيبتئس . أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونزود عنكم بنيه الله الذى حولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بلييل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانته ولا يجرأ لكم بعشأ فادعوا الله بالصلاح لا تمتسكم فإنهم ساستكم المؤذبون وهم فمكم الذى إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدرکوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وإيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعى

فقام إليه عبد الله بن الأهم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذلك نبي الله داود فقال لا تحف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والشاء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثنى حتى نبتلى فقال صدقت : فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبا الله بغير ما قلت قال الله تعالى (ولإبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد إنا ان نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك حتى تخوض فى الباطل خووضاً

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد



إليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ذات ليلة أعرابيا فأتى به زيادا فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيتني الليل فاضطرتها إلى موضع وأقت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقا ولكن في قلبك سلاح الأئمة ثم أمر به فضربت عنقه . وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكده الملك للمعاوية وجزد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفا شديدا حتى أمن بعضهم بعضا وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغاق أحد بابيه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف . وقيل له إن السيل مخرفة فقال لا أعاني شيئا وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني فقيره أشد غلبته منها فلها ضبط المصر وأصلحه تكلم ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجزد السيف حتى تزول النهمة . ووجه يوما بحينة بن كيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأى الخوارج جأء بحينة فأخذه فقال إنى أريد أن أحدث رضوا للصلاة فدعنى أدخل إلى منزلى قال ومن لى بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءا ثم خرج فأتى به بحينة زيادا فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عنى فأنكرت ذلك فدكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملا نخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلتم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضرا ولا نفعا لنفسه ولا حياة ولا نشورا فزرقت الله منه ما نرون . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذى يمنكم عن إيتانى إلا الرحلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشونى الآن واسمروا عندى وبلغ زيادا عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عماله

في كل سنة مائة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خير أمن لزوم الطاعة والتقلب  
بين أظهر الجماعة فلم يزل واليا حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من  
حبسه حتى مات

وفي سنة ٥٠ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبه فصار  
والى المصريين وهو أول من جمعه فصار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب  
وهو على المنبر فجلس حتى أسكوا ثم دعا قوماً من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال  
ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقوان لأدرى من جليسي ثم أمر بكرسي فوضع له  
على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون ما مناصبك فن حاف خلاه ومن لم يحلف  
حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب . وكان  
يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندي وعمرو بن الحمق  
وأشباهما فبلغ زياد أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد  
المنبر وقال أما بعد فإن غيب البغي والغى وخيم إن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجتروا  
على الله إن لم تستقيموا لأدوا ينكم بدوائكم واست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر  
وأدهه نكالا لمن بعده ويل أمك يا حجر ستط العشاء بك على سرحان . وأرسل  
إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأنى حجر أن يجيء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث  
إليه جماعة ففعل فسيهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيدو تأسون  
بأخرى أبدانكم معى وقلوبكم مع حجر الأحق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لى  
براهتكم أو لا تينكم يقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأى لإطاعتك  
وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر  
أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق إلى حجر فأتى به فإن أبى فشدوا عليهم  
بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جىء به فلما رآه زياد قال له مرحبا  
أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براش فقال حجر  
ما خلعت طاعة ولا قارقت جماعة وإنى على يعنى فأمر به إلى السجن ثم طلب أصحابه  
فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا فأودعهم السجن وأحضر شهوداً  
شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين



وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤس أصحابه علي مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتبت شهادتهم وأرسل بها وبججر وأصحابه إلى معاوية فسير بهم حتى اتهموا إلى مرج عذراً عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتاهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عنى ذلك من حملاء قومي وحملنى ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم تغير شيئاً إلا صارت بنا الأور إلى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترى حجرأ وكانت تتشيع

ترفع أهبها القمر المنير تبصر هل ترى حجرأ يسير  
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير  
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورتق والسدير  
وأصبحت البلاد له محولا كأن لم يحبها مزن مطير  
ألا يا حجر حجر بن عدى تلتقتك السلامة والسرور  
أخاف عليك ما أردى عديا وشيخا في دمشق له زئير  
فإن تملك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير

وتوفى زياد في سنة ٥٣هـ بالطاعون

والمطالع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفي فإن أخذ الولي بالولي والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعي الذي يقصر على المسؤولية على المجرم وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتية . ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثه كما قال من نعب عن بيت نقبت عن قلبه وهن نبش قبرا دفنته فيه حيا ومن ذلك : عقوبته للدجل بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لأهل

العراق وقد أفادت في إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقلّ خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحى في سبيل الوصول إلى ذلك شيئا كثيرا والتاريخ إنما يعطى الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضما لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاية العراق إسرافا في الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعده فقال إنه لا يحتاج عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن إبانة ولا يجرهم بعثا وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالي وصدقها لا نجد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زياد لم يحتاج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلا لأن عليهم بصدقه في الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم وعلى الجملة فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق أسفا وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة وإذا ولهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصائب وأجرموا إلى الأمام أو الخلفاء من غير مينة واضحة

## المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح في عهد معاوية  
بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال إن فلانا يرى رأى الشيعة وإن فلانا يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه مختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يأتى بعضهم بعضا ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان ويرون أن في الإقامة الغيب والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التيمي من تيم الرباب وحيان بن ظبيان



السلي ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفسة لانه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣٤ فكانوا في جهازهم وعدتهم لجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب - قال المغيرة بلى قد بلغنى ذلك عنكم قد صدق ذلك عندى جماعتكم . قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أفرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمرهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع لإخوانهم بأخذهم فخذروا وخرج المستورد وأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم فقام في أهل السكوفة خطيباً فقال :

( أما بعد : فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإنى والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهايتكم فأما العلماء الانقياء فلا وإيم الله لقد خشيت أن لا أجد بدأ من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفية الجاهل فكفوا أيها الناس سفهايتكم قبل أن يشمل البلاء عواتكم وقد ذكر لى أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وإيم الله لا يخرجون في حى من أحياء العرب في هذا المصر إلا بأبديتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار ) فقام إليه معقل بن قيس الرياحى فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلمنا منهم فإن كانوا منا كفيناكمهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأنتك كل قبيلة بسفهايتهم فقال ماسمى لى أحد منهم ولكن قد قيل لى إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أمصلحك فإنى أسير في قومي وأكفيك ما هم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه : فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفى كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فوالذى لا إله غيره لا تحولن عما كنتم تعرفون

إلى ماتكرون وعمّا تحبون لى ماتكرون فلا يلم لاسم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر  
نخرجت الرؤساء إلى عشائهم فنادوهم الله والإسلام إلا دلوم على من يرون أنه  
يهييج فنتة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا فى إحدى دور عبد القيس قام صمصمة بن صوحان العبدى  
وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه فى دار العبدى فكره أن يؤخذوا فى عشيرته  
وكره مساة أهل بيته من قومه فخطبهم خطابا حسنا قال فى آخره ( ولا قوم أعدى لله  
ولكم ولاهل بيت نبيكم وجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا  
واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فإياكم أن تؤوم فى داركم أو تكتموا عليهم  
فإنه ليس ينبغى لى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله  
ذكر لى أن بعضهم فى جانب من الحى وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكى لى  
ذلك حقا تقربت لى الله بدمائهم فإن دماهم حلال ) ولما بلغ ذلك المستورد كره  
المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى محبس المغيرة لإجماع أهل المصر على نفي من كان  
بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين فى ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه لله أن يترحلا  
أقمم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا  
فشدوا على القوم العداة فإنها إقامتكم للسذيج رأيا مضللا  
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا  
فيا ليتنى فيكم على ظهر سابج شديد القصيرى دارعا غير أعزلا  
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأس المنية أولا  
يعز على أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد فى المحلين منصلا  
ولما يفرق جمعهم كل ماجد إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا  
مشيحا بنصل السيف فى حمس الوغى يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا  
وعز على أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذابث أسيرا مكبلا  
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم أثرت إذا بين الفريقين قسطلا  
فيا رب جمع قد فلك وغارة شهدت وقرن قد تركت مجدلا  
ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سوراً فقتلوا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة



فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد  
أخرجهم الجبن وسوء الرأي فمن ترون أبعث اليهم فقام إليه عدى بن حاتم فقال كلنا  
لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأبنا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس  
فقال إنك لا تبعث اليهم أحدا ممن ترى حولك من أشرف المطر إلا وجدته سامعا  
مطيعا ولهم مفارقا ولهلاكهم محبا ولا أرى أصلحك الله أن تبعث اليهم أحدا من  
الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني اليهم فإني أكفيكمهم بإذن الله فقال أخرج  
على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخبروهم من نقاوة شيعة على وفرسانهم  
فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبو الرواغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم  
بالمذار مقيمين فبات ليلة حتى إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من  
معه فماتت لهم إنسان ثم إن أبو الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم الله سائر  
اليوم الكرة الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا  
فقال لهم الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لانزايهم حتى يقدم علينا أميرنا  
فما أوجح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال  
وتكثر القتلى فقال له رجل إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ  
لا أكره الله فينا مثلك إننا لم ندع المعركة فلم نهزم إننا متى عطفنا عليهم وكننا قريبا منهم  
فمنكن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل  
فشكر أبو الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله إن لهم شدات منكرات  
فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من بقائهم وكن أنت من وراء الناس  
درما لهم فقال نعم رأيت فما كان ربما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه  
انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه  
أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه  
الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفي أثناءه بلغ الخوارج أن جيشا  
من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقفوا بين جيشين فرحلوا  
من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ  
على مقدمته في ٦٠٠ فلحقهم بجر جريا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا  
فيها الحملة فانكشف جند أبو الرواغ وبقي معه نحو مائة رجل فعطف عليهم وهو يقول :

إن الفتى كل الفتى من لم يهمل إذا الجبان حاد عن وقع الأسفل  
قد علمت أنى إذا البأس نزل أروع يوم الهياج مقصداً بطل  
ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردهم إلى مكانهم  
الذي كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا  
وأبو الرواغ في آثارهم . قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبي الرواغ هم حزب أصحاب  
معقل فهم فلنقابل معقلاً قبل أن يلتقي بأصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ  
بعد أن خدعه ولم يكن إلا قليل حتى التقي بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما  
رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى يا عباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من  
٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا  
على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال إذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب  
الرواغ واشتد القتال وكانت تديجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة  
منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيده معقل  
السيف ويده المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان  
من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرأ ميتين وبذلك  
انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يمانلهم أحد في شداتهم المنكرة قال  
الشعبي ما أولينا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقاً بصالح من كان قبله من العمال .  
وأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهرأ وهو من أحسن شيء سيرة وأشدّه  
حباً للعافية غير أنه لا يدع ذم على والووقع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء  
لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لأحب أن أبتدئ أهل  
هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دماهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيا معاوية  
ويذل يوم القيامة المغيرة ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم .  
وواعظ سفيهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيدكروني لو قد جربوا العمال بعدى .  
قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدنا خيرهم أحدهم للبرى . وأغفرهم  
للسى وأقبلهم للعذر . وتوفى المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لأنه  
أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف  
ومن ولاية العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولاة معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد



اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبو زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً  
وفي الحرب جماعة أخرى ومن قتل صبراً عروة بن أديه أخو أبي بلال مرداس  
ابن أديه وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج في رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع  
الناس وفيهم عروة بن أديه فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن في الامم قبلنا فقد صرن  
فينا : (أتبنون بكل ربيع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلمكم تخلدون وإذا بطشتم  
بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين . فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه  
إلاومعه جماعة من أصحابه فقام وركب وترك رهانه : فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله  
ليقتلنك فنواري فطلبه ابن زياد في الكوفة فأخذها فقدم به على ابن زياد فأمر به ففقطعت  
يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى قال أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك  
فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلاً بالأهواز  
فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعلمهم ابن حصن التيمي فهزمه الخوارج  
فقال شاعرهم

ألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بأسك أربعونا  
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم لكن الخوارج مؤمنونا  
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا

ولم يزل عبيد الله واليا على البصرة حتى توفي معاوية  
وفي مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل واليا عليها  
حتى مات سنة ٤٣ هـ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاية سيأتى ذكرهم  
متى بدأنا فى تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائماً من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن  
الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب  
ولاية الطائف فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاء مكة معها فإن أحسن الولاية وقام  
بها ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل هو فى  
أبي جاد فإذا ولاء مكة قيل هو فى القرآن فإذا ولاء المدينة قيل هو قد حذق : وكان  
ولاية المدينة فى الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يبحج بنفسه إلا مرتين  
سنة ٤٤ و ٥٠ سنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاية وكلهم من بنى أمية

الفتوح في عهد معاوية

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة، الذي كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبدالله بن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند القيقران<sup>(١)</sup> مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقران بالبرك فقتلوه وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بنة ولاهور<sup>(٢)</sup> وهما بين الملتان وكابل فلقبه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقران ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ماجعل هؤلاء الأعاجم أولى بالنشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث ملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغاناس الذي ولي من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تنزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجرار فرتب معاوية الغزو إليهما براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجمال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غائمة وافتتحها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شئ على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثّر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما في البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محنوظة من العدو وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية برأربحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمرأبه يزيد أن يغزوهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلبي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتل المسلمون والروم في بعض الأيام

(١) من بلاد السند ممالي خراسان (٢) مدينة بابل



واشدت الحرب بينهم فلم يزل عبدالعزیز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :  
قد عشت في الدهر أطواراً أعلى طرق شتى فصادفت منها اللين والبشعا  
كلا بلوت فلا النعماء تطربني ولا تخشعت من لاوائها جزعا  
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا  
ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فمشجره الروم برماهم حتى قتلوه  
فبلغ خبر قتله معاوية فقال لآبيه والله هلك قتي العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك  
فأجرك الله فقال :

فإن يكن الموت أودى به وأصح منخ الكلابي زيرا

فكل قتي شارب كأسه فإما صغيراً وإما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمائة أسوارها ومنعة موقعها وفك  
النار الإغريقية بسفنهم . وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد  
وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن  
خارج المدينة قريبا من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار الآن وعليه مسجد  
مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا  
كثيرا من جنودهم ومرآكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان في إفريقية في سنة ٥٠ هـ ولي معاوية عقبة بن نافع  
وكان مقبلا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد  
وفتوح فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل إفريقية وانضاف إليه  
من أسلم من البربر فكثرت جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل  
عليهم أمير اطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكشوا وارتد من  
أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكرن بها عسكر المسلمين وأهلمهم وأمواهم ليأمنوا من ثورة تكون  
من أهل البلاد فقصده موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمربنيام  
المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومسالكهم وكان دورها ٣٦٠٠  
باع وتم أمرها سنة ٥٥ هـ وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل  
السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من  
هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم الذي بين منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بأراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفىء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم الآن فإنه ما ولى لإنسان عمال بعد رجل آخر إلا أن اجتهد أن يسمي سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولى سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفى عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتى يكزن للأول الاسم وحده والأمة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح أو تسود

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذرا إليه ووعدته باعادته إلى عمله وتمسك الأمر حتى توفي معاوية وسندين لكم في خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله

#### البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فإنه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذووا أسنانهم وإنما بقي أبناءهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقدك البيعة. قال أو ترى ذلك يتم قال نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعتقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لي بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع إلى عمك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفدًا عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزبنوا



له بيعة يزيد فقال معاوية لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوى  
عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل إلى زياد يستشير به فأحضر زياد عبيد بن كعب  
النميري وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودع وان الناس قد أبدع بهم  
خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد  
رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه  
وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف إن أمير المؤمنين  
كتب إلى يستشيرني في البيعة ليزيد وأنه يتخرف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة  
أمر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد  
فائق أمير المؤمنين وأذ اليه فعلات يزيد وقال له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم  
لك ولا تعجل فإن دركا في تأخير خير من فوت في عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال  
وما هو قال لا يفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن  
أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخرف خلاف الناس عليه  
لحنات ينقمونها عليه وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحکم له الحجة على الناس  
ويتم ما يزيد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الامة فقال  
زياد لقد رميت الأمر بحجره أشخص على بركة الله فإن أصبت فما لا ينكر وإن يكن  
خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضى الله بغيب ما يعلم فقدم على يزيد فذكر  
ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة  
وأن لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى  
مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له إنى كبرت سنى ودق عظمي وخشيت الاختلاف  
على الامة من بعدى وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع  
أمرأ دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذى يردون عليك فقام  
مروان في الناس فأخبرهم فقالوا أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألوا  
فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد اليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم  
فقال إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد : فقام عبد  
الرحمن بن أبي بكر وقال ما الخيار أردتم لامة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها  
هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر

وعبد الله بن الزبير فكتب مروان إلى معاوية بذلك  
وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريب يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود  
من الأمصار فكان فيمن أناه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحفف بن قيس  
في وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راع مسئول عن رعيته فانظر  
من تولى أمر أمة محمد ثم ان معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت  
الوفود عنده إني متكلم فإذا سكت فمكّن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها  
فلما جالس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله  
به من طاعة ولاة الامر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته فقام  
الضحاك لحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين أنه لا بد للناس من وال بعدك  
وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً  
في العاقبة والايام هوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد بن أمير المؤمنين في  
حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت وهو من أفضلنا علماً وحلباً وأبعدنا رأياً فوله  
عهدك واجمله لنا دليلاً بعدك ومفرعاً ناجياً إليه ونسكن في ظله : ثم تكلم غيره بمثل  
كلامه فقال معاوية الأححف بن قيس ما تقول يا أبا بجر فقال تخافكم أن صدقنا ونخاف  
الله ان كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم يزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله  
ومخرجه فإن كنت تعلمه الله والأمة رضا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك  
فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان  
معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوسق له أ كثر الناس  
وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز في ألف فارس فلما دخل  
المدينة خطب الناس فذكر يزيد فدحه وقال من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله  
وموضعه وما أظن قوماً بمنتمين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان  
أعنت الذر ثم أنشد متمثلاً

قد كنت حذرتك آل المصطاق وقات يا عمرو أظعنى وانطاق

إنك ان كلمة تنى مالم أطق سامك ماسرك منى من خلق

دونك ما استسقيته فاحسن وذق

وكان أوامك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية إلى مكة وقضى



بها نسكهم ثم جمعهم ثلاثهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذي يخاطبه بن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلاتي لأرحامكم وحملتي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال بن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال أعرضن: قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر: قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بني أبيه فاستخلفه. وإن شئت فأصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فإني أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر أني كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رؤس الناس فأحمل ذلك فأصفيح فإني قائم بمفالة فأقسم بالله إن ردت على أحد منكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها للسيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بمحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ولأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواده وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها ونقول أن فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وأنه مادام لم توضع قاعدة لا انتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطالب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذي ينتقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين

يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لا جرم إن كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد إن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذو الرفعة على سائر الناس أماراً في ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً احتمالاً بدمنه لصالح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعشعهم فإنه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإن الاختلاف لا بد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبدمناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضى الناس عن أسرة وداؤوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين أن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل علي ويسوقون الخلافة في بنه يتركها الأب منهم لابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لا بدمنه مع الحال التي كانت عليها البلاد الإسلامية

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين

إن الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تأسس بالقانون الشرعي تماماً يأخذ كل إنسان ماله ويعطى ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبه الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدى الميل لم تكسر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرج منه عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآلف والتآزر والتحاب أما في هذا العهد فإن الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل



إمراق الدماء ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابي الذي أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه لـكنه قال إن في قتلك صلاحاً للبيعة . لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلاً لنا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حمله الواسع ويجب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتهشير بعلى على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره وكان يعلم يقيناً أن هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأفقون ويتذمرون ولا ندرى ما الذي حمله على أن جعل ذلك فرضاً حتماً في كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به .

من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية البريد بمعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهياة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعاً حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها صاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال في أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة بريداً . وروى ياقوت في معجم البلدان أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات لم يكنه فلما جاءته الرسل سألتها عن سبب بطئها فشكروا من مزوا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكبرن أذناب خيل الرسل وأعرانها مقطوعة لتكبرن علامة لمن يمزون به ليزيحوا عنهم في سيرهم فتقبل بريد أي قطع فعرب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت إنه روى هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين وإنما اتخذته بعد أن كان ما كان من إرادة الخارجي قتلها

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمر بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسها فمضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث

معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم  
كان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لهده بالرومية ويظهر أنه  
كاتب الحراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه  
وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ثم أبو إدريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي  
الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

### بيت معاوية

(١) تزوج ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلي  
فولدت له عبد الرحمن وعبيد الله ومات عبد الرحمن صغيراً (٣) نائلة بنت عمارة  
الكلابية وهذه طلقها (٤) كتوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس فماتت معها هناك

### وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائباً فحضر معاوية الضحاك  
ابن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها (يا بني إني قد  
كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذلك لك الأعداء وأخضعت لك رقاب  
العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك  
منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن  
عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك  
وغيتك فإن رابك من عدوك شئ فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فانهم  
إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة  
من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر  
فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقفته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين  
ابن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت  
به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم .  
وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همسة إلا في النساء  
واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو  
فعلها فظفرت به فقطعه إرباً إرباً واحقن دماء قرمك ما استطعت ) ثم مات بدمشق



لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ إبريل سنة ٦٨٠ م) نخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن معاوية كان عود العرب وحد العرب وجدّ العرب قطع الله به الفتنة وملسكه على العباد وفتح به البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلى يوم القيامة فن كان يريد أن يشهده فعنده الأولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد فقال في ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يحب به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا  
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم قال الخليفة أمسى مثبتا وجعا  
ثم انبعثنا إلى خوص مزيمة نرمى الفجاج بها لانا تلى سرعا  
فادت الأرض أو كادت تميد بنا كأن أغبر من أركانها انقطعا  
من لم تزل نفسه توفى على شرف توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا  
لما انتهينا وباب الدار منصفق وصوت رملة ريع القلب فانصدعا  
ثم ارعوى القلب شيئا بعد طيرته والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا  
أودي ابن هند وأودي المجد يتبعه كإنا جميعا فإنا قاطنين معاً  
أغز أبلج يستسقى الغمام به لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا  
ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه

## المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الأول - كيفية انتخابه - مقتل الحسين - وقعة الحيرة

حصار مكة - الفتوح في عهد يزيد - بيته ووفاته

### ٢ - يزيد الأول

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمه ميسمون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى في حجر الإمارة ولما شب في خلافة أبيه

كان يرشحه الإمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرماً بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامي بعد كيفية انتخابه

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن علي وعبدالله ابن الزبير وعبدالله بن عمر : فلما توفي معاوية لم يكن يزيد إلا ما بيعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له ( أما بعد فخذ حسناً وعبدالله ابن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام ) فلما أنه نعى معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سرا ولا يجتري بها منى سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إنى عائد بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخرفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

#### حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد أزم بجانب الكعبة فهو قائم يصلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأى وهو أقبل خلق الله على ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجعوا يزيدوا اجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي وانفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه



ليبايعوه فكتبوا اليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم  
 (أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت اليكم يا أخى وابن عمى وثقتى من  
 أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب  
 إلى أنه قد اجتمع رأى مائتكم وذوى الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسالتكم أقدم  
 اليكم وشيكا إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط  
 والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره  
 بتقوى الله وكتبان أمره والطف فإن رأى الناس يجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم  
 نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصارى فأقبلت اليه الشيعة فختلف اليه . ولما  
 بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما  
 تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية  
 ثم قال إني لأقاتل لإمامن يقاقتنى ولا أئب على من لا يئب على ولا أئبه نائمكم ولا أتحرش  
 بكم ولا أخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أديتم صفحتكم ونكتكم  
 بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذى لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفى مائتة قائمه يدي  
 ولولم يكن لى منكم ناصر ولا معين أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم  
 أكثر من يرديه الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له إنه لا يصاح ماترى  
 إلا الغشم إن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة  
 الله أحب إلى من أن أكون من الأعزى فى معصية الله ونزل . فكتب ذلك الرجل  
 إلى يزيد يخبره بقدم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة  
 حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فإن النعمان  
 رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير  
 البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد  
 إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم  
 وفيتكم وأمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم  
 وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنتكم  
 كالوالد البر والمطيعكم كالإخ الشفيق وسبقى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى  
 فليبق امرؤ على نفسه ) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذوا شديدا وقالوا اكتبوا لى

الغرياء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الرب الذين  
دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلى برئ ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا ما في  
عراقته أن لا يخالفنا فيهم بخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة  
وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عراقته من بغية أمير المؤمنين أحد لم  
لم يرفعه الينا صلب على باب داره ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعان الزارة  
سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهاني بن عمرو المرادي فأجاره متكرهين وصارت  
الشيعة تختلف إليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هاني فاستقدم هانئا فقدم عليه  
ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال هاني وما ذاك فقال يا هاني ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين  
والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك  
يخفي لك وقد أراد هاني أن ينكر فلم يجد إلى الإنكار سيلا فطاب منه ابن زياد  
أن يسلم إليه مسلما فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وجسه  
بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد  
بأبعه ثمانية عشر ألفا وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع إليه ناس كثير فعباهم  
وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلاء المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع  
ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته  
ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج  
فيمن أطاعه من مذبح ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث  
أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل  
ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناسا بهم فخرج الذين أسروا بالخروج  
يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل  
المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل في المسجد  
إلا ثلاثون رجلا فخار في أمره أين يذهب واختنى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل  
إليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إنني أراك تعجز عن أمانتي فهل  
تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل



بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذي كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جرى بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هاني بن عروة المرادي أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمرؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه من يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع . فقال قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عباس أعيدك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أنسیر إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهرهم وعماله تجبي بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك فقال الحسين فإني أستخير الله وأنظر ما يكون . ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال يا ابن عم إني أنصبر ولا أصبر إني أخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهي أرض عريضة طويلة ولا يلبك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعائك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية . فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فإن كنت سائراً فلا تسر بنساءك وصديقتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونسأوه وولده ينظرون إليه فلم يفد كلامه شيئاً . ثم سار بأهله وأولاده فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء . ثم جاءه كتاب من عبدالله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله إلا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتم على وجهه فقابله عبدالله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله

في حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقنتلك واثن قتلوك لايهايون  
بعدك أحداً والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت  
السكرفة ولا تعرض نفسك لبني أمية فأبى إلا أن يمضي

ولما كان بالعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله  
إلا ما رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالسكوفة ناصر ولا شيعة بل نخوف أن يكونوا عليك  
فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا ونذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن  
العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله إلا ما انصرفت فوالله ما تقدم إلا على الآسنة  
وحد السيف إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا ككفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء  
فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً فأمأ على هذه الحال التي تذكر فلا أرى أن تفعل فأبى أن يرجع  
ولما ترك شراف قابله خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التيمي فقال لهم الحسين أيها  
الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إنني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا  
إمام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى فقد جئناكم فان تطوفنا ما أطمن إليه من عهدكم أقدم  
مصركم وإن لم تفعلوا كنتم لمقدمي كارهين انصرفت منكم إلى المكان الذي أقبلنا منه فلم يجيبوه  
بشيء في ذلك ثم قال له الحر إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفرقك حتى نقدمك السكرفة على  
عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا عنهم  
الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد فقال أما والله لو غيرك من العرب يقولها  
ما تركت ذكر أمه بالشكل كائن من كان ولو سكتني والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن  
ما يقدر عليه ثم صار الحر يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة فسار الحسين  
يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين  
يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل الحسين رسولا يسأله ما الذي جاء به فقال  
الحسين كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فلما أذكرهوني فاني انصرفت عنهم  
فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال

الآن إذ عرضت مخالبتنا به يرجو النجاة ولاة حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا قبل ذلك رأينا رأينا  
وأن يمنعه هو ومن معه الماء : وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوهم يرجع  
إلى المكان الذي خرج منه وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد



فلم يقلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١ أنشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصدبان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أَرْضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفرت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا قال أبو خير من أبيه وأمى خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحتاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمى فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمى وأما قوله جده خير من جدى فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقرن المئاتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ثم قرب إليه على بن الحسين وجهزن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلي يابني كاتبني بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزون انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الاناة والتبصر في العواقب فإن الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعا عرض الحائط وظن بأهل العراق خيرا وأهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيرا منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الاعناق ومع كل ذلك لم ينفهوه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم . أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمرأؤه فاعتز ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه هل كان لإلّا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبي طالب وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما في خروجه هذا الذي

جر على الأمة وبالفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها : غاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمر لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحبل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين ومن يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيحا وقد ذهب الجميع إلى ربهيم يحاسبهم على ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظام الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كانت معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لا بد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف

#### وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي في نظرنا أدهى وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهبوط الوحي الإلهي وهي التي حرّمها عليه السلام كما حرّم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة أحدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمتها معاً في سنة واحدة

أما حادثة المدينة فإنه في عهد إمارة عثمان بن محمد أبي سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشرف أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الأنصاري وعبدالله ابن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبدالله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيدياً مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبدالله ابن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلى المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل



الشام فلم يجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحسروا من  
في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم  
قال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذي في سيجتي فبذلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المزني وكان عدة من تجهز معه  
اثنا عشر الفا وقال له يزيد ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت  
عليهم فأبجها ثلاثا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجنود فإذا  
مضت الثلاث فأكف عن الناس وانظر على بن الحسين فأكفف عنه واستوص به  
خيرا فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل  
المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكروا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم  
أن لا يبغيهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم  
يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى فدعا بعمر بن عثمان وقال  
له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا اليهود والمواثق أن لا ندل على  
عورة ولا نظاهر عدوا فانتهره وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل  
عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فاذا انتهيت إلى  
ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من تمره فاذا أصبحت من الغد مضيت وتركت  
المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيتهم من قبل الحرة مشرقا ثم تسبق القوم فاذا استقبلتهم  
وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم إذا هاورون  
من اتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا تزونه أنتم ماداموا مغربين  
ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد  
دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد الملك فلما كلمت من رجال قريش رجلا  
شبيها به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إن أمير  
المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إرافة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثا فنار عوى  
وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا الخجل الذي بمكة وإن أيتهم  
كنا قد أعذرنا إليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جدا ولكن

انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس  
ويأخذون المناع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول  
له يحكم في دعاتهم وأموالهم وأهلهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلي بن الحسين  
فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الواقعة للدلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣٣  
وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة  
في قيامهم وخدمهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن  
يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أبتكونون مستقلين  
عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم بلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول  
في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا  
الأمر أحد من الجنود الإسلامية - إنهم فتقوا وفتقوا ارتكبوا جرما فعلهم جزوا عظيم  
من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف  
في معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتل  
الحصار كثيرا لأنه ليس فيها ما يهون أهلها وماؤها ينجى من الخارج فلو قطعوه عنهم  
ما استمروا يومين كاملين وربما يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه  
كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين . بعد الانتصار لم يكن هناك  
معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثا احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وإننا نعوذ  
بالله من الروس التي إذا هاجت لا تنتظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل

#### حصار مكة

وثالثة الحوادث التي معظم تبعها على عبدالله بن الزبير حصار مكة فإن مسلما انتهى  
من أمر المدينة سارقا صيدا مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي  
وقد أدركت المنية مسلما بالشل فاستخلف على الجند الحصين بن نهر كأمر يزيد فسار  
بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز  
لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمنع البيت : فخرج ابن  
الزبير بمقام أهل الشام فخار بهم حربا انكشف فيها أصحابه فسار راجعا إلى مكة فأقاموا عليه  
يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد  
بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فرقف القتال : هذه ثلاث



كبيرة داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكرها حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعاتها بل إن الذي يتحملة جزء صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عمة تكلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وإنما الذي عليه تلك الشدة التي أجزتها جنوده بعد أن تم لها النصر

### الفتوح في عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والاموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهمزوا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصروهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الراب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم ثم رحل إلى تاهرت : فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولسكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقبه بطريق رومي اسمه ييان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقبه البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكراً ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفاً منه ولما وصل إلى مدينة طنجة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فرجاً فرجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهودا لينظر إليها في نفر يسير فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشمموه وقاتلوه وهويدهوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأسأه إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه فتأون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع

عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثرت اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين واستولى على إفريقية وسنين ما كان من أمره بعد

#### وفاة يزيد

لأربع عشر خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ ( ١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣ ) توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنة تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

#### بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمي العرب وكان له من الأولاد عبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر وعتبة وحرب وعبد الرحمن لامهات وأولاد شتى



## المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثاني - عبدالله بن الزبير - حال الشام مروان الأول

عبد الملك - تغلبه على ابن الزبير وقتله - الحجاج بالعراق

معاوية الثاني - عبدالله بن الزبير

بعد موت يزيد كانت بيعتان أحدهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكة والحجاز  
لعبدالله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنة إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد  
موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس لحمدالله  
وأثنى عليه ثم قال ( أما بعد فأني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن  
الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم  
فأتم أولي بأمركم فاخاروا له من أحببتم ) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة  
أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه  
القدرة على لم شعثها وإصلاح أمرها

أما ابن الزبير فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه  
الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد ملك طاغيتكم فلم  
يصدقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما  
قال له أنت أحق بهذا الأمر لم فلنبايعك ثم أخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند  
الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر  
هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لا أهدر الدماء والله  
لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سرا وهو يجهر  
ويقول والله لأفعل فقال له الحصين قد كنت أظن لك رأيا وأنا أكلك سرا وتكلمني  
جهرأ وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل إلى

المدينة فالشام فوصلوها وقد برح معاوية بن يزيد  
هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن  
زيد لما بلغه نعى يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة  
إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدى فيكم ولقد وليتكم وما يحصى ديوان مقاتلكم  
إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم إلا تسعين  
ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم  
إلا رهو في سجنكم وإن يزيد قد توفى واختلف الناس بالشام وأتم اليوم أكثر الناس  
عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختروا لأنفسكم رجلاً  
ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتوه فان اجتمع أهل الشام على  
رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيه فيما دخل المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم  
على أحد يليكم حتى تقضى حاجتكم فإيكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغنى  
الناس عنكم : فقالوا له قد سمعنا مقاتلك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك  
فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان  
ويقولون أياظن ابن مرجانة أنا ننقاده في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة  
من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بايائهم أظهروا النفرة منه  
وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعته ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن  
زيد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدي ثم بمسعود  
ابن عمرو سيد الأزدي فأجراه حتى هرب إلى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم  
عبيد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببيبة فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة وذلك  
أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ و كذلك اختار أهل الكوفة لهم أمير وكتب أهل  
المصريين إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل في بيعته ابن  
الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام

#### حال الشام

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك بن  
قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعوله وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين  
زفر بن الحارث الكلبي وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين



حسان بن مالك الكلبي وهو اه في بني أمية وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يمنحهم هذين الغلامين عبد الله وخالد ابني يزيد لأنهم قالوا لانا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلاغتهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتابا آخر سله لرَسُوله وقال له إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلا فقمه وأقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرم أخرجهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو إلى ابن الزبير وكتب تدعو إلى بني أمية

خرج الضحاك بمجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين وانفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط وكانت الواقعة في المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا فنبهه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسر بن مهرب فالتحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان بطلبه فقال الشابان لزفر أنج بنفسك فإننا نحن نقتل فضى وتركهما هقتلا وقال زفر في ذلك

أرنبى سلاحى لا أبالك إنى • أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا  
أتانى عن مروان بالغيب أنه • مقيد دى أو قاطع من لسانيا  
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب • إذا نحن رفعتنا لهنّ المثنيا  
فلا تحسبونى إن تغيبت غائلا • ولا تفرحوا إن جئتمكم بلقائيا  
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أذهب كلب لم تنلها رماحنا \* وتترك قتلى راهط هي ماها  
لعمري لقد أبقت وقية راهط \* لحسان صدعاً بيننا متائيا  
أبعد ابن عمرو وابن معن تابعا \* ومقتل همام أمني الأمانيا  
فلم تر منى نبوة قبل هذه \* فرارى وتركى صاحبي وراثيا  
عشية أعدو بالقران فلا أرى \* من الناس إلا من على ولا ليا  
أيذهب يوم واحد إن أسأته \* بصالح أيامى وحسن بلائيا  
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا \* وتثار من نسوان كلب نسايا  
ألايت شعري هل تصيبن غارقي \* تنوخا وحيي طي من شفايا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها

لم تطل مدة مروان في سلطانه فإنه توفي في رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

#### ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه أمية بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبراً وولى لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولى أمر الأمة من بعده ابنته

#### ٥ - عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية ابن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ولما شب كان عاقلاً حازماً أديباً ليلاً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي



ماذا كرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه لإعبد الملك فإني ماذا كرته حديثاً إلا زادني فيه ولا شعراً إلا زادني فيه

ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال في البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته وشيعة تدعو إلى آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل فتاى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذ من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يعيهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتله وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن سرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آله الحرب ويدعون الناس سرّاً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن سرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام فقال إن الله قد أهلك من رموس أهل العراق ملحق فتنة ورأس ضلالة سليمان بن سرد ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيح خذاريق وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الأزدي وعبد الله بن وال البكرى ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله ابن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذي أرسله للأخذ بثأر

الحسين ولقبه بالإمام المهدي وكان هذا التلقب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجود وكان يود أن يتبعه على رايه إبراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الأمر فقالوا له إن المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مقتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي إلى إبراهيم ابن مالك الأشتر) فقال إبراهيم قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلى فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال ابن الأشتر فن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة من مع المختار أنه كتابه فأنخر إبراهيم عن صدر الفرائش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي بيناه . ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون بالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقاتل المحلين والدفع عن الضعفاء وقاتل من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذي أرسله عبد الملك لاقتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعا ومنهم عمر ابن سعد وغيره من كان في ذلك البعث ثم دخلت في بيعته البصرة وكان عمل المختار سببا لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها

ثم إن المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الأشتر العمال إلى البلاد الجزرية بعد أن تم الأمر للمختار ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا



عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) وأشار نحو الشام - (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض) - وأشار نحو الحجاز - (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تاقبون أمراءكم وقد لقيت نفسي بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشرف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجدد مصعب جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعه أشرف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فالتدب له جنداً قابل مصعباً عند المذار وكان النصر لمصعب فانهمز جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقلاً فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول  
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتييل  
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جسر الذبول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكانه يشدنا حيث يقول

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه حسان عليها عقد دز يزينا  
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت وبكى مما عناها قطينا

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم بن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق الذين كانوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نيابهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأشدد

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء  
وولى على المصريين عمالا من قبله قال بعض الشعراء في مقتل مصعب  
حى أنفه أن يقبل الضيم مصعب فسات كريما لم تدم خلائقه  
ولوشاء أعطى الضيم من رام هضمه فعاش ملوما في الرجال طرائقه  
ولكن مضى والبرق يبرق خاله يشاوره مرأ ومرأ يعانقه  
فولى كريما لم تنله مذمة ولم يك وغدا تطيه نمارقه

بذلك لم يبق خارجا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندا  
إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه في جمادى  
الأولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبيرها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر  
على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فنفقوا عن ابن الزبير وخرجوا  
بالأمان إلى الحجاج وكان بمن فارقه أبناء حمزة وحبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم  
يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئا دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه  
خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من  
صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيتك فقالت أنت أعلم بنفسك إن  
كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من  
رقتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت  
نفسك ومن قتل معك وإن قتلت كنت على حق فلما أذهن أصحابى ضعفت فهذا ليس  
فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن . فقال :

يا أماه أخاف إن قتلتى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبوني : قالت يا بنى إن الشاة  
لا تتألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيتى والذى  
خرجت به دابئا إلى يومى هذا ما كنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ومداعانى  
إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرما ته ولكننى أحببت أن أعلم رأيتك فقد  
زدتني بصيرة فانظرى يا أماه فإني مقتول يومى هذا فلا يشد حزنك وسلى الأمر  
إلى الله فان ابنك لم يتعهد إثارة منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر  
فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته  
ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكننى أقوله



تعزية لأمي حتى تسلو عني فقالت أمه لارجو أن يكون عزائي فيك جميلا أن تقدمتني  
احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك أخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك فقال  
جزاك الله خيرا فلاندعى الدعاء قالت لأدعه لك أبدا فن قتل على باطل فقد قتلت  
على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثا وسبعين سنة وبعد قتله صلبت  
جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه ببيع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير  
صفا الأمر لعبد الملك في جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقي  
الحجاج والبايعي مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين  
فسار إلى الكوفة في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد  
المنبر وهو متنم بعمامة خز حمراء فأجمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت  
حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني  
يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأني  
أنظر إلى الدماء بين العمامم واللحي ثم قال

هذا أو ان الشد فاشدى زيم<sup>(١)</sup> قد لفها الليل بسواق حطم<sup>(٢)</sup>  
وليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم<sup>(٣)</sup>  
ثم قال :

قد لفها الليل بعصلي<sup>(٤)</sup> أروع<sup>(٥)</sup> خراج من الذوى<sup>(٦)</sup>  
مهاجر ليس بأعرابي

وقال قد شممت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا  
والقوس فيها وترعرد<sup>(٧)</sup> مثل ذراع البكر أو أشد  
لا بد مما ليس منه بد

- (١) يعنى فرسا أو ناقة (٢) الحطم الذى لا يبقى من السير شيئا  
(٣) الوضم كل ما قطع عليه اللحم (٤) الشديد (٥) ذكى  
(٦) الصحراء الواسعة التى تسمع بها دويا بالليل ويريد بها الغماء الشديدة  
(٧) شديد

إني والله يا أهل العراق ما يقع على بالشنان<sup>(١)</sup> ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاه<sup>(٢)</sup> وقتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فجمع<sup>(٣)</sup> عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم<sup>(٤)</sup> في الفتنة واضطجعتم في مرافد الصلال والله لا حزم منكم حزم السلة ولا ضرب منكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذفها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أم إلا مضيت ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئاً فقال الحجاج أكف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نبيه<sup>(٥)</sup> أما والله لاؤدبكم غير هذا الأدب أولستقيموا فقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد في المسجد إلا قال على أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال أيها الأمير إني من الضعف على مانري ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى فتقبله بدلاً عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضابيه البرجمي الذى يقول أيوه

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبسكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما رد قال أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار إن فى قتلك

- 
- (١) وأحدها شت وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به تقرت الإبل فضرِب ذلك  
مثلاً لنفسه (٢) الذكاء حدة القلب (٣) مضغها لينظر أيها أصليب  
(٤) الإيضاع ضرب من السير  
(٥) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج



أيها الشيخ صلاحا المسلمين يا حرسى اضربن عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره  
فيرتحل ويأمر وليه أن ياحتمه بزاده ففى ذلك يقول عبدالله بن الزبير الاسدى  
تجهز فإقما أن تزور ابن ضايه عميراً وإما أن تزور المهلبا  
هما خاتما خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثايج أشهبا  
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أوهى أقربا

من هذه الخطبة وما تلاها تبين خطة الحجاج التى أراد أن يسوس بها أهل العراق  
وهى خطة العسف والجور التى قدّمنا أنها لا تصلح أمة لإصلاحاً حقيقياً أبداً وإنما  
تضع على المرء غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتدين حال أهل العراق  
وسكونهم إلى هذه الذلة يجيئهم الحجاج فى بضعة عشر ركباً وفيهم الأشراف  
والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرتد أحد منهم  
عليه قولاً ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم  
الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقى  
وبعد ذلك ذهب إلى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأنى برجل  
يشكرى فقال أيها الأمير إنى فى فتقاً وقد رآه بشر بن مروان فعذرنى وهذا عطافى  
مردود فى بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى  
تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتى نزل رستفابان فى أول  
شعبان سنة ٧٥ ومعها وجوه أهل البصرة وكان بيده وبين المهلب ١٨ فرسخاً فقام فى  
الناس فقال إن الزيادة التى زادكم بها ابن الزبير فى أعطياتكم لست أجزها فقام إليه  
عبدالله بن الجارود العبدى وقال إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين  
عبد الملك أثبتنا لنا فكذبه وتوعدّه فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس  
فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى المهلب وهو  
يقاتل الخوارج وانصرف إلى البصرة

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان فغزار تبيل وقد كان مصالحا  
وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج  
إلى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا فى بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم  
فرأى الحجاج أن يجهز إليهم جنداً كشيء الفجوز عشرين ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة

وجد في ذلك وشم وأعطى الناس أعطيائهم كلاً وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح  
الكامل واستعرض الناس ولا يرى رجلاً نذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ولما  
استتب أمر دينك الجند بن ولي عليهم عبدالرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم بيجستان  
فصعد منبرها وقال أيها الناس إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم  
الذي استباح بلادكم وأباد أختياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة  
أخرجوا إلى معسكركم فمسكروا به مع الناس . فمسكر الناس في معسكرهم  
ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل  
أول بلاد رتييل وصار كلها حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً ووضع  
البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاء على العقاب والشعاب ووضع المسالخ بكل  
مكان مخوف حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملاً يديه من الغنائم حبس الناس  
عن الوغول في أرض رتييل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها  
ونعرفها ويحترئ المسلمون على طرقها ثم تعاطى في العام المقبل ما وراهها ثم لم نزل  
ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذرايرهم  
وفي أقصى بلادهم ويمتنع حصونهم ثم لا نزائل بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب إلى الحجاج  
بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج أما بعد فإن كتابك أناني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك  
كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المروعة قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا  
من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغدوهم في الإسلام عظيماً لعمر ك يا ابن أم عبدالرحمن  
أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندی وحدي لسخى النفس عمن أصيب من  
المسلمين إنى لم أهدد رأيك الذي زعمت أنك رأيت رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه  
لم يملك عليه إلا ضعفك والنيث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم  
والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذرايرهم وقال في كتاب آخر إن لم تفعل فإن  
إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس نخله وما وليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس  
وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضى أم يخالف فزينوا له المخالفة  
واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه نخلوه وبيعوا على ذلك عبدالرحمن فبعث  
إلى رتييل فصالحه وعاد من بيجستان إلى العراق مصمماً على منازل الحجاج ونفيه من  
العراق وبين يديه أعشى همدان يقول



شطت نوى من داره بالإيوان \* إيوان كسرى ذى القرى والريحان  
من عاشق أمسى بزابلستان \* أن ثقيفاً منهم الكذابان  
كذابها الماضى وكذاب ثان \* أمكن ربي من ثقيف همدان  
يوما إلى الليل يسلى ما كان \* إنا سمونا للكفور الفتان  
حين طغى بالكفر بعد الإيمان \* بالسيد الغظريف عبدالرحمن  
سار بجمع كالديب من قحطان \* ومن معه قد أتى ابن عدنان  
بمحفل جم شديد الارنان \* فقل لحجاج ولى الشيطان  
يثبت لجمع مذحج وهمدان \* فإنهم سقوه كأس الديقان  
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك  
تخلعوه وبايعوا عبدالرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المخلين : ولما  
بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر  
وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار  
بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقا بلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج  
يوم الأصحى سنة ٨١ وأنت الحجاج الهزيمة فأنصرف راجعا حتى نزل الزاوية وجاءت  
جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها فى آخر ذى الحجة سنة  
٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جئى أعلى ركبته  
واتضحى نحو آمن شبر من سيفه وقال الله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان  
ذلك العمل مما قوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فضى  
ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دبر قرى  
وخرج ابن الأشعث حتى نزل دبر الجاجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار عبد الملك  
مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم  
فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله ليعرض ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع  
الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالججاج  
أمير الناس لجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع  
عبد الملك وحيثنذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك

وجندك فاعمل برأيك فإننا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقف  
 بدير الجماجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة  
 ٨٣٣ فقيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادى من رجع  
 فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يباعونه فلا يرضى  
 مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه  
 رجل فقال الحجاج إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال أخادعى أنت عن  
 نفسى أنا أكره أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد . كان الحجاج قد أمر فودى  
 بعدهزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمنه فلحق به كثير من منهم عامر  
 الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يوم ما قيل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث  
 إليه بالشعبي فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر  
 بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا حقا والله سودنا عليك وحرّضنا  
 وجهدنا عليك كل الجهد فما ألوانا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة وقد نصرك الله  
 علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبنونا وما جرك إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد  
 الحجرة لك علينا فقال له الحجاج أنت والله أحب إلى قولنا من يدخل علينا يقطر سيفه من دما تنائم  
 يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف فلما شى قليلا ناداه ثم قال له كيف  
 وجدت الناس يا شعبي بعدنا فقال أصلح الله الأمير اكتحلث والله بعدك السهر  
 واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير  
 خلفا قال انصرف يا شعبي وجرى إليه بأعشى همدان فقال إيه يا عدو الله أنشدنى قولك  
 بين الأشج وبين قيس باذح قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحها أهلها :

أبى الله إلا أن يتم نوره	ويطفىء نور الفاسقين فيخمدوا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن	ويعدل وقع السيف من كان أصيدا.
وينزل ذلا بالعراق وأهله	لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحد نوا من روعة وعظيمة	من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
وما نسكثوا من بيعة بعد بيعة	إذا ضمونها اليوم خاسوا بها غدا

وهى قصيدة طويلة فرجاله الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به  
 قتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم



فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم  
أما ابن الأشعث فقد تقلبت به الأحوال وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل  
مستغنياً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده  
إن لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق  
قصر فسات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه وأرسل بالرووس  
إلى الحجاج

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن  
والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان  
لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون الله في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا  
المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا نخلى ولالة أمرها من تبعه  
تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة إكراها  
من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه  
من الضروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبار الخوارج في هذه المدة لتكون صورة  
الأمة كلها بمثابة أمام أنظاركم في ذلك العهد

## المحاضرة السادسة والثلاثون

### الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة الخوارج  
منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا إلى ابن الزبير لينعوا  
مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقوالهم أم يخالفهم فلما جاؤوه وعرفوه  
بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل  
فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو مبتدل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول في  
الشيخين قال خيراً قالوا فما تقول في عثمان الذي أحى الحمى وآوى الطريد وأظهر  
لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بقرى

المسلمين . وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير نائب ولا نادم وفي أيك وصاحبه وقد باعنا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلني عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا النصر رأيك الأول وتصويب أيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته خذلك الله واتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إن الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولاخيه صلى الله عليهما في فرعون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الأحياء بسب الاموات فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنة وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجداد في المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنبا وقد كان يغيثكم عن هذا القول الذي سميت فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كنا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للذين آمنوا لا يؤمنوا بالله ولا بالرسول الذي يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسنا) وهذا الذي دعوتهم إليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري إن ذلك لا حرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فظن بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان من سار إلى البصرة نافع بن الأزرق في أصحابه وقد أمره عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحدا ويناظرهم الناس وطرده أعمال السلطان عنها وجبوا فيء ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهر من نافع ابن الأزرق القول بكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال الداردار كفر



إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بهيس هبصم بن جابر الضبعي وعبدالله بن أباض المري . أما أباض ومن نحا نحوه من التجديية فإنهم كانوا يقولون إن عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لانحرم منا كحتمهم وموارثهم لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كهار للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسماوا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبدالله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بهيس فإنه قال أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجرى عليهم وزعم أن مناكحهم وموارثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكهم عند الله حكم المشركين وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق وأباضية أصحاب بن أباض وبهسية أصحاب أبي بهيس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أوجب المقالة جبا الخراج وفشا عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف ابن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ماترى فقال الأحنف إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عيسى بن كرز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وأضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة بن عيسى نافع بن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغدافي وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبيدالله بن بشير بن المساحوز السليطي فكان الرئيسان من بني يربوع فاقتلوا قتالاً شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الخيمري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بآلات الدروع والجراشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم

بعضاً وملوا القتال فإنهم لتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم في حماهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر

لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش مالم ألق أم حكيم  
من الخفريات البيض لم ير مثلها شفاء لذي بث ولا لستيم  
لعمرك إني يوم أطمم وجهها على نائبات الدهر جدت لئيم  
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان قتي في الحرب غير ذميم  
غداة طغت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم  
وكان لعبد القيس أول جدما وأحلافها من يحصب وسليم  
وظلت شيوخ الأزدي حومة الوغى وعموم وظلنا في الجلال ذموم  
فلم أريوما كان أكثر مقعصا يمج دماً من فائظ وكليم  
وضاربة خدأ كريماً على قتي أغر نجيب الأمهات كريم  
أصيب بدولاب ولم تك موطناً له أرض دولاب ودير حميم  
فلو شهدتنا يوم ذلك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم  
رأت فنية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعروا ولم يروا لأمر الخوارج إلا المهلب ابن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكرن له ولاية ماغلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوى الشرف من أحب أجابوه إلى ما شرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلي وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجوده فاقتلواهم والخوارج حتى كاد أهل البصرة يهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قوام حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة. بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإيا قدلقينا الأزارقة المارقة



يحد وجد فكانت للناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان  
شداد وسيوف حداد فأعقب الله خسير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا  
درته رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر  
هذه النعمة كأولها والسلام فكتب إليه الحارث : قد قرأت كتابك يا أبا الأزد  
فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله  
وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة  
والرياسة فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام . فلما قرأ المهلب كتابه ضحك  
ثم قال أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الأزد . ما أهل مكة إلا أعرب ولم يزل المهلب يطارد  
الخوارج مدة الحارث بن عبد الله . فلما ولي مصعب العراق استقدم المهلب وأمره  
أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولي مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج  
عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعلهم الزبير بن علي السليطي فشخص  
اليهم فقاتلهم وأخ عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا  
واستعدوا : ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريبا منهم فقال له مالك بن حسان إن  
المهلب كان يذكي العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعد المسافة منهم  
فقال له عمر اسكت خاع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفي ذات  
ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمالك كيف رأيت قال قد سلم الله  
ولم يكرنوا يطعمون من المهلب بمثلها فقال أما إنكم لو ناصحتوني ناصحتكم المهلب  
الرجوت أن أنفي هذا العدو ولكسبكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيرنا  
فتقاتلون معي تعذيراً ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالا شديداً حتى انهزموا وقتل في  
الموقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب . أما بعد فإني قد لقيت الأزارقة فرزق الله  
عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر ففرقوا شذر مذر  
وبلغني عنهم عودة فيممتهم وبالله أستمين وعليه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد  
عادوا إلى فارس فأرسل عليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأمواز  
وقد ارتحل عمر إلى اصطخر : وما زالوا يروحون ويفدون ويعيشون في الأرض  
فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم وكانوا  
قد ولوا أمرهم قطرى بن العجاة المازني فخرج اليهم المهلب ولما أحس به قطرى

يم نحو كرمان فأقام المهلب بالاهواز ولما استعد الخوارج كروا عليه فخاربههم  
المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد  
الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون  
في مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل . ولما  
كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون  
في مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج  
يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله  
ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه  
أن لا يفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالاهواز وعمر بن عبيد  
الله بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى لإعزله وولى حرب الخوارج  
أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتى قابلهم بداربجرد فمزموه هزيمة منكرة  
ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبد الملك به فكتب إليه عبد الملك أما بعد فقد قدم  
رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وهزيمة من هزم وقتل  
من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه عامل لك على الاهواز فقبض  
الله رأيك حين بعثت أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك  
يجبى الخراج وهو الميمون النقيية الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها  
وابن أبنائها أنظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالاهواز ومن وراء الاهواز  
وقد بعثت إلى بشر ان يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل  
فيهم برأى حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه أن شاء الله . فشق عليه أن قيل رأيه في  
بعثه أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رايه خالصاً حتى قال أحضره المهلب واستشره  
فيه وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختر لهم خمسة  
آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء  
الاهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ما هالمهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على  
حامية وأتبعهم خالد داود بن قحزم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة  
آلاف من أهل الكوفة فأتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع  
ورجع عامة ذنك الجيشين مشاة إلى الاهواز



وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجي فغلب على البحرين وقتل نجدة  
ابن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الأهواز وأمر أبو فديك  
فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبي فديك فانهزم  
ولما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب إليه أما بعد  
فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة وليتخبط من أهل مصره وجوهرهم وفرسانهم  
وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه في الحرب فإنى أوثق شيء  
يتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً وابعث عليهم رجلاً  
معروفاً شريفاً حسيباً صليبياً يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم  
أهل المصرين فليتبعمهم أى وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك  
قدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمره أن ينتخب من يشاء وشق على بشر  
أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يعث غيره فأوغرت صدره  
عليه حتى كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال  
له إنك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى  
عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عد حسن ظنى بك أنظر إلى هذا  
الكذا والكذا يقع فى المهلب فاستبد عليه بالامر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً  
وتنقصه وقصر به - فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام  
وأقبل يغريه بآبن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصحب ويستجهل . وهكذا فى كل  
زمان وفى كل أمة من يدريس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة  
ولا تهمة الآمة سعدت أو شقيت . رجل يكره رجلاً فما بال مصالح الناس وعامة  
المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه . خرج  
الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فترامى العسكران ولم يلبث الناس إلا  
عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فإرض ناس كثير من أهل  
البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد الله بن  
خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبد الملك فلم  
يحمد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم الأسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً  
ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما

تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضاً الأزارقة حتى أجلوه عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان : كان المهلب يخذق دائماً على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك بن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديداً وكانت كرمان في أيدي الخوارج وفارس في يدي المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به لا يأتهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث إليه الحجاج مع البراء ابن قبيصة كتاباً يقول فيه : أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك : وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانض اليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والعلل والباطيل والامور التي ليست لك عندى بسائفة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنه كل ابن في كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار . ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيتك فرساناً قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنيه في كتائبهم فقاتلوهم كقاتلهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليلته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حساب ذلك أن رجلاً من فرسانهم يقال له المقطر قتل رجلاً كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يملكهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأوّل فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فغلبوا قطرياً وولوا عبد ربه الكبير وبقى على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى



المهلب فتركة الحجاج ورأيه : استمر الخوارج يقتلون نحرأ من شهر ثم إن قطريا  
خرج بن اتبعه نحو طبرستان وباع عاقمتهم عبد ربه الكبير فهاضهم المهلب حتى  
قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين :  
ولكعب الأشفري قصيدة طويلة يذكروم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها  
يا حنص إني عداني عنكم السفر \* وقد سهرت فأودي نومي السهر

وهي من غرر الشعر العربي وقد أشدها بين يدي الحجاج فقال له أشاعر أنت  
أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرني عن نبي المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفي  
ببزيدي فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيمهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفتر من مدرك  
وعبد الملك سم نافع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفناك بالمفضل نجدة قال  
فكيف خلقت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما ملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف  
بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا ألبوا ففرسان البيات قال فأبهم كان  
أنجد قال كانوا كالحلقة المفترغة لا يدرى أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوكم قال  
كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم  
فقال الحجاج إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كادنا نصرنا  
منه إلى الذي تحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا أثر من الفل قال فكيف  
كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف  
اغتباط الناس قال فشافهم الآمن وشمائم النقل قال أكنت أعددت لي هذا الجواب  
قال لا يعلم الغيب إلا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث  
وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ماسواه الذي  
حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا  
ما قد بلغك وكننا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوونا ويسوهم  
منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة  
ونوم به الرضيع فاتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها وأدبنا السواد من السواد حتى  
تعاققت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا  
والحمد لله رب العالمين) : فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين  
خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فإذا ورد

عليك كتابي فأقسم في الناس فيهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم ببقية بخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهما من ولدك ولا ترخص لاحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدمهم على ومجل القدم إن شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يابني إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إلى وتفضل على قومك ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر لإكرامه وبره وقال يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الأيادي

وقلدوا أمركم لله دزكم \* ربح الذراع بأمر الحرب مضطلعا  
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه \* هم يكاد حشاه يقصم الضلعا  
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده \* ولا إذا عض مكروه به خشعا  
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره \* يكون متبعاً طوراً ومتبعاً  
حتى استمرت على شزر مريرته \* مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعاً<sup>(١)</sup>

فقام إليه رجل فقال أصلح الله الأمير والله لكأنى أسمع الساعة قطرباً وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادي ثم أنشد الشعر ففسر الحجاج حتى امتلأ سروراً فقال المهلب إننا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمع الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج إذ كرتي القوم الذين أبوا وصف لي بلائهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم مني وغبت لإنهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الأمير إنني كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي

(١) القمح آخر سن الشيخ ، والضرع الصغير الضعيف



فرسانا فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد  
وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حنبله من أصحاب المهلب :

إني امرؤا كفتى ربي وأكرمني      عن الأمور التي في رعيها وخم  
وإنما أنا إنسان أعيش كما      عاشت رجال وعاشت قبلها أمم  
ما عفتني عن قفول الجند إذ قفلوا      عني بما صنعوا عجز ولا بكم  
ولو أردت قفولا ما تجهمني      إذن الأمير ولا الكتاب إذ قرأ  
إن المهلب إن أشق لرؤيته      أو أمتدحه فإن الناس قد علموا  
إن الأريب الذي ترجى نوافله      والمستعان الذي تجلى به الظلم  
القائل الفاعل الميمون طائرته      أبو سعيد إذا ما عدت النعم  
أزمان أزمان إذعض الحديد بهم      وإذ تمنى رجال أنهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى  
تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله فقتل  
ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم في قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوه  
حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧ . وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم  
مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

ومن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التيمي ورفيقه  
شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا محبنا مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا  
من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال  
لهم ذات يوم ما أدري ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا  
العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاية على الناس إلا علوا وهتوا وتباعدوا عن الحق وجرأة  
على الرب فاستعدوا وابتعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء  
إلى الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فتلتقون ونظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت  
إن خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج وقدم  
عليه فأتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه  
اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوما يريدونكم  
وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضبا لله حيث انتهكت محارمه وعصى في الأرض

فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا  
ثم تعملوا بها فإن كل ما أتم عاملون أتم عنه مسئولون . ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث  
عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيدين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان  
مخزجهم فبعث إليهم جندا عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث  
جندا آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجرت الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا ومضوا  
حتى قطعوا الدسكرة فأرسل إليهم الحجاج جندا عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى  
قتل أميرهم صالح بن مسرح لجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقعةهم حتى نزلوا المدائن .  
وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجنود يرسل إليهم تلو الجند فيزموهون جنود  
الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عدا وأخيرا جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب  
سلطان الحجاج وعاثوا فيها فسادا وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة  
فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة  
وخرج فسارت الجنود ورايه لكنها لم تمل منه منالا وهو في كل مرة يهزمها حتى  
استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب  
إليه أن يرسل إليه جندا من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج إليهم  
نحو من خمسين ألفا من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفا من الغريب أن الألف  
هزمت الحسين : وكان لشبيب بعد ذلك دحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجدا فخرج  
إليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع  
والطاعة والصبر واليقين ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقسكم غضوا الأبصار  
واجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الاسنة فجثوا على الركب وأسرعوا  
الرماح وكانهم حرة سوداء وأقبل إليهم شبيب في تعبية فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف  
الاسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدما وما زال القتال بينهم عامة اليوم  
وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة  
هزم فيها وترك أمراته غزاة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه  
بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب  
في النهر وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها  
والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة .



## المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة - الفتوح في الشرق - الفتوح في الشمال - الحج  
السكة - ولاية العهد - وفاة عبد الملك وبيته وصفته  
الوليد الأول - الإصلاح الداخلي

### بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التي حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبنائها في سنة ٦٥ هـ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رمت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده في نابوت في سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثوب أو طيب عند الحجبة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب في إدخاله الحجر ضمن البيت ما روت أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

### الأحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لأن الأمة إذا كان بأسها شديداً تحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تنصر يديها من الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بظهور الضعف إلا في بعض الأحيان

### الفتوح في الشرق

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج ولأه الحجاج خراسان في سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأناه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدنا إلى غزوا الختل فوجه

معه ابنه يزيد فنزل في عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل في عسكره على ناحية بيت  
السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر  
حين اعتزل عسكرهم فأمره الملك وقتله في قلعة فأتى يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه  
الملك على فدية حملها إليه ورجع إلى المهلب ووجه المهلب ابنه حبيدا إلى ربنجن فوآفي صاحب  
بخاري في أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب  
ومكث المهلب بكس سنتين فليل له لو تقدمت إلى السفد وما وراء ذلك قال ليت حظي  
من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس  
على فدية وأناه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديداً  
وولى مكانه ابنه يزيد : ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فوفى بها ولما شعر بدنو أجله دعا من  
حضر من ولده ودعا ببهاهم فحزمت وقال أترونيكم كاسر بها بمجمعة قالوا لا قال أترونيكم  
كاسر بها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم  
تنسي في الأجل وتثري المال وتكسر العدد وأنها كم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار  
وتورث الذلة والقلّة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمرهم ولا تختلفوا وتباروا بمجتمع  
أمرهم إن بني الأثم يختلفون فكيف بنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم  
أفضل من قولكم فاني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه وانقوا الجواب وزلة  
اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته وبزل لسانه فيهلك اعرفوا المن يغشاكم حقه فكيف  
بغدوا الرجل ورواحه إليكم لذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب وارضظنوا  
العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنعة عنده عليكم في الحرب  
بالأناة والمكيدة فانها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فان أخذ  
رجل بالحزم فظهر على عدوه قبل أني الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل  
مافرط ولاضيع ولكن القضاء غالب عليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين  
وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيدو جعلت حبيبا على الجند  
حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقد مناه ومات المهلب  
وأوصى إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب إياه  
خافره وتوفى في ذي الحجة سنة ٨٣ فقال نهار بن توسعه التيمي

ألاذهب الغزو المقرب للغي ومات الندى والجود بعد المهلب



أقننا بمرور الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب  
إذا قيل أي الناس أولى بنعمة على الناس قلناه ولم تهيب  
أباح لنا سهل البلاد وحزنها بخيل كارسال القطا المتسرب  
يعرضها للطعن حتى كأنما يجملها بالأرجوان المخضب  
تطيف به قحطان قد عصبت به وأحلافها من حي بكر وتقلب  
وحيا معد عوذ بلوائه يفدوننه بالنفس والام والاب

وفي ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك بإذ غيس واحتلها وكان ملكها قدخرج  
عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليه مافي القلعة. من الخزائن ويرتحل عنها ببعاله  
وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن يعمر العدواني ونص كتابه  
«لما لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرا طائفة ولحقت طائفة برؤوس  
الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار» فلما جاء الكتاب الحجاج  
سأل عمن يكتب لزيد فقيل له يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد حمله على البريد فقدم  
عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالأهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت  
كلام أبي وكان فصيحاً قال من هناك قال فأخبرني هل يلحن عنيسة بن سعيد قال نعم  
كثيراً قال فقلان قال نعم قال أخبرني عنى ألحن قال نعم تلحن لحنا خفياً تزيد حرفاً  
وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن وإن في موضع أن قال أجلتك ثلاثاً فإن  
أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج  
يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل . وفي عهد المفضل عزيت بأذغيس  
وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر - ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطى الناس  
كلما جاءه شيء وإن غنم شيئاً قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى  
مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وسيكون له ذكر جميل في خلافة الوليد

#### الفتوح في الشمال

لم يكن من الممكن في عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم  
الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من  
المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح  
ملك الروم على أن يؤدي عبد الملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما

انقضت هذه السحابة واستقر الامر لعبد الملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشوأت والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفي سنة ٨١ فتحت قالقيلا وكان أمير جندهما عبيد الله بن عبد الله وفي سنة ٨٤ غزا عبد الله بن عبد الملك ففتح المصيصة

### الحج

كان الذي يقيم الحج عبد الله بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية بن الحنفية في أصحابه في لواء وابن الزبير في لواء ونجدة الحروري في لواء ولواء بني أمية . قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعا فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فإنا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلي ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف علي فيه اثنان ولكن انت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة قال جئت ابن الزبير فسكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبإيعوني وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعظمت عليه وكتبته كما كلمت الرجلين فقال أما إن أبتدئ أحدا بقتال فلا ولكن من بدا بقتال قاتلته قلت فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك . ثم جئت شيعة بني أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا إلا إن قاتلنا . ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس . وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج . وبعد قتله كان يقيمه عمال بني أمية

### السكة الإسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيرطا والدينار عشرين قيرطا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها



بالعراق وقد نقش عليها أولاً باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطبايع فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخالصة الزيوف والسوقة والهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسوضح أمر السكة بعد

#### ولاية العهد

كان مروان قد ولي عهده عبد الملك ثم من بعده عبدالعزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولى مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة ابن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعت ما انتطح فيه عزان فينا هو على ذلك إذ جاء الخبر بوفاة عبدالعزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب يبيعه لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن اسماعيل الخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على ما فعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنما لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف

#### وفاة عبد الملك

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ ( ٩ أكتوبر سنة ٧٠٥ ) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويج بالشام إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لأنه ولد سنة ٢٦

#### بيت عبد الملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام بن اسماعيل الخزومي

- فولدت له هشاما (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي فولدت له أبا بكر واسمه  
بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له الحكم  
(٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة  
(٧) شقراء بنت سلمة بن حليس الطائي  
(٨) ابنة لعلي بن أبي طالب  
(٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر  
وله من الأولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج  
لأمهات الأولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لا تزعه الشدائد ولى أمر الأمة وهي  
في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين  
لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدوء والطمأنينة ولكن الضحايا  
التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الأمة حية نشيطة لاتدين إلا للقوة القاهرة  
التي هي فوق طاقتها والأمواه متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يتر منه  
إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد  
أقوى على هذا الأمر مني وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن  
لبخله لا يصلح أن يكون سائساً: ومما عتد من مساوي عبد الملك أنه قال مرة وهو  
على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتقى الله ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن  
كثيراً من الناس كانوا يقفون في هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم  
من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على  
أية حال عذراً. ومما عتد من مساويه وهو قبيح غدره بعمر بن سعيد وقتله إياه بعد  
أن أتمته وقالوا إن هذا أول غدر حصل في الإسلام ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها  
ولائم من عمل بها إلى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على أن كبار الرجال الذين أقدموا على العظامهم يسلبوا من الهنات  
في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبرية ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحاً  
عالماً بالأخبار فقيهاً وقد قدمنا شيئاً من ذلك في أول خلافته



## ٦ - الوليد الأول

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسى ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك ببيع بالخلافة في اليوم الذى مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحمله عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفترطاً، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام إليه الناس فبايعوه

### الحال في عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية ففيها قام بإصلاح داخلي عظيم واشتهر في الأمة تواد عظام فتحو الفتح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبته في أنفس الأمم المجاورة لها وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الامور ومهد لها فاستلها الوليد والأمة هادئة مطمئنة بجمعة الكلمة وخبث نار الاهواء فإن الخوارج ذهبت حذتهم وشوكتهم وقلت جمعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحزكوا ساكنة ولم يوقظوا فتنة

### الإصلاح الداخلى

كان الوليد ميالاً إلى العمارة فاهتم في زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب إلى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقى منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : وإصلاح الطرق

من أهم ما يذكر لولاية الأمر في إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء دينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يسكنون متى ذراع في مثلها ومن أبي فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليهم ثمنها فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمئة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمئة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملاً فابتدئ بعمارتها وأدخلت فيه جميع الحجر التي لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثك جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة منحماً . أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالاً عظيماً حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسائلهم عنها إذا تقالوا : وبنى الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء

ومن الإصلاح العظيم حججه على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم واعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته : وبما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة ، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بناءه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد وبق سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجوه وما عليه إلا لاريطنان ماتساويان خمسة دراهم فقيل له لو قتت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذي كان يقوم فيه فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء أن يرى سعيداً حتى يقرم فخانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال من ذلك



الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم يا امير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد : قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فندار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل يا امير المؤمنين . وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الاسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلاً . أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلاً وعلم بذلك ذوو السلطان فاشترؤا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكاتبتهم وأما ذوو السلطان فإنهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فينتجهمون لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرفهم واجباً فيحاربونهم لقصد إذلالهم وخط درجاتهم ولكن الذى يريد الله ومصلة المسلمين بنصيحة فإنه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبدالعزيز الذى أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح فقد ولاة المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبابكر بن عبد الرحمن وأبابكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم ابن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال إني إنما دعوتكم لامتزجوا به وتكونون فيه أعوانا على الحق ما يريد أن أقطع أمراً إلا ب رأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو يبلغكم عن عامل إلى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني فخرجوا بجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جدته من قبل أمه وقد عزل له الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن بوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المزنى فولاه المدينة

## المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح في عهد الوليد - ولاية العهد - وفاة الحجاج

وفاة الوليد - سليمان

الفتوح في عهد الوليد

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجل الأثر في الفتح الإسلامي وهم :

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي

(٣) موسى بن نصير

(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل<sup>(١)</sup> فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلام فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوقة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا ستمين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصالح ثم جعل لا يتر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران<sup>(٢)</sup> فأناه ستمين سرديدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربهته :

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(١) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة



ثم إن محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بدهار في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتلوا قتالاً شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل فقتل هند المساء وانهمز المشركون فقال في ذلك قاتل داهر :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

أنى فرجت الجمع غير مغرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا نخلف بها عاملاً ثم سار فلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى يسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى إلى الرور (١) وهى من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدنهم وقال ما لبد إلا كسكتائس النصارى واليهود وبيوت نيران الجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً ، ثم سار حتى قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزموهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى إليه الآه والوتذير له التذوير ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رموسهم ولحام عنده خازن محمد ذلك كله : وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى الرور وبغورور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلبان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتى الكرج فخرج إليه دهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دهر . بعد هذه الفتوح العظيمة التى نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوفى أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة حياته . وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج ابن يوسف ولأه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم : إن الله قد أحل لكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمانات ويزيد بكم المال

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطئ نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة بهذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل وبالقرب من الرور مدينة بغورور

استفاضة والعدو وقا ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ( ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يبطئون موطناً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ) ثم أخبر عن قتل فى سبيله أنه حتى مرزوق فقال ( ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإليكم والهويونا

ثم عرض الجند فى السلاح والكرراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماءهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأناه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ودعا إلى بلاده فضى مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيقت عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخاستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أذاها فقبلها قتيبة ورضى ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه فى تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن فى مقدم الناس وإذا قفلت فكن فى آخريانهم وساقتمهم

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان فى يد نيزك أسرى من المسلمين فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويهدده بخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لن لم يفعل ليغزونه وليطلبته حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل بادغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم فى جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دأب بين قتيبة وبين عدوه وفى ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره



فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها ففروا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ومارأوا قتيبة ابتداء بهمها سألوه الصالح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكندغدر وبالعامل قتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلاتها وأصاب فيها ما غنم كثيرة ثم عاد إلى مرو . ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكك وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف إليه الترك معهم الصغد وأهل فرغانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو ثم أراد أن يفتح بخارى فعبّر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعدله ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وإنما من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم ولسكز قتيبة سبقتهم إلى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فخطمهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فسكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوه حتى ردوهم إلى مواقيعهم فوقف الترك على نثر فقال قتيبة من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فحشى إلى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم فقال وكيع قدم يا هزيم ودفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع في الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم يا هزيم فطر إليه هزيم نظر الجمل الصوول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله إنك لاحق فقال وكيع مغضباً أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه وقال ما بعد أشد منه وعبر هزيم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقتل النهر

وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبى ومن لافليثت مكانه فعبى معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى إذا أعيوا أقدمهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل بجنبتيه وقال لهزيم إنى مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا لحملوا فماتوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنهم بالرمح فما كفوا عنهم حتى حذروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه . ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصفد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهى مدينة الصفد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدا وصلى فيه وكان معه فى هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهارين توسعة فقال يا نهارين قولك ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الذى والجود بعد المهلب أقام بمرور الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب أفغزو هذا يانهار قال لا هذا أحسن وأنا الذى أقول :

وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم  
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فيما مقسما بعد مقسم  
ثم ارتحل قتيبة راجعا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم وخالف عنده جندا كشيفا وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف إلى مرو فأقام بها وفى سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش<sup>(١)</sup> وفرغانة<sup>(٢)</sup> حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتى فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفى سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر<sup>(٣)</sup> وهى أدنى مدائن الصين سار إليها من مرو وفر فرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعه ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان

(١) إقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنسك وله مدن كثيرة خربت

(٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخ ومن ولايتها خجندة

(٣) مدينة يسافر إليها من سمرقند وهى فى وسط بلاد الترك



بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل إليه قتيبة وفدا عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فإنني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهاكك فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادر عليها وغزاك وأمانخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضى صاحبك قال إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فإننا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاهم ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلة ورددهم ووطئ الأتراب ثم عاد إلى مرو

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العطاء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلماهم: كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكم بعده على خاتمة حياته وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام في قارة أوروبا ولما كنا عازمين أن نفرّد تاريخ الأندلس بفصل خاص نعقد له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء الله فإننا نؤجل الكلام عن فتحه الآن وأما مسلمة بن عبد الملك فإن عزمته ظهرت في حروب الروم فكان في كل سنة يسير إليهم الجنود فيفتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التي اقتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذا ورلية وهرقلة وقرونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

#### ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولي عهده ابنه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه في حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن

الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخوارج  
من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه  
ويبعة عبد العزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب  
ولسكن منيته حالت دون ذلك . ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج  
ومن على رأيه

### وفاة الحجاج

في شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما  
من المشرق كله وكانت سنة ٥٤ سنة واستخاف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج  
وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم  
وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم  
من العظماء أوسيد من السادات فإن فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم  
تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كانت لتلك النفس قوة  
فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت  
ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالانباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم  
وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن  
عندهم امتناع : أسرف في القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاة حتى انتهى  
أمره إلى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد : قال له عبد الملك يوماً كل امرئ يعرف  
عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عنى شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود : ومتى  
كانت هذه الصفات في ذى سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا  
وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تسدر  
من صاحبها وربما كفته شراً عظيماً : وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة  
من أهل زمانه وكانوا يقرنون به الحسن البصرى وكان من قراء القرآن وحفاظه  
المعدودين : وعلى الجملة فإن الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك  
أرواحاً كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل جداً : وأنا كما علمتم



لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدّها إصلاحاً حقيقياً وإنما هي طريقة إذلال وإخضاع لا يدرم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوي على ما فيها من البغض والكراهة حتى إذا حانت لها الفرصة وثبتت وفاة الوليد بن عبد الملك :

في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ توفي بدير مران الوليد بن عبد الملك ( ٢٥ فبراير سنة ٧١٥ ) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر ( من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦ ) وكانت سنه إذ توفي ستاً وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابناً

### ٧ - سليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة بويج بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لأول عهده أحداث خيرة وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولائه وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الآلد : فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولي يزيد بن أبي كبشة السكسكى السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلاً

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كربة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد فلما وصل إلى العراق حبس بواسطة فقال :

فأئن ثويت بواسطة وأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب قينة فارس قد رعته ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقييل حتى قتلمهم وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لاهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتنامى ما فعله ذلك القائد من عظيم الأعمال ولا ندرى كيف تدبغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج

فلما ولي سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب إليه كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلامه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لها عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له ادفع إليه الكتاب الأول فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه إليه فادفع إليه الثاني فإن قرأه ورماه إليه فادفع إليه الثالث فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه ورماه إلى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول إلى دار الضيافة ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بخلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة فان قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعاً سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثرت بنيه . قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتهم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جملناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن احتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضره لو أتاني قال عبدالرحمن ابن جمانة الباهلي يرثيه :

كان أبا حفص قتيبة لم يسر	بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله	وقوف ولم يشمده الناس عسكرياً
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح إلى الجنات عفا مظهرأ
فأرزى الاسلام بعد محمد	بمثل أبي حفص فيسيكه غيرها

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع وعلى كل حال فإن الذي



حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك  
وأما القائد الثالث وهو موسى ابن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبه  
فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان  
منحرفا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيماً لم يقدر على وفاته  
فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما  
أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم  
أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا  
عليهم في عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلي أهل السجون وأحسن إلى الناس  
الفتوح في عهده :

في عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة  
ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الأصهبذ  
قتالا شديداً ثم صالحه أخيراً وبينما هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا  
بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها  
مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق  
على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك ( أما بعد فإن الله قد فتح لأمير  
المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه في  
خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابورذا الأكتاف وكسرى  
ابن قباد وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن  
بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة في  
نعمه عليه وقد صار عدى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي  
حق حقه من النى والغنيمة ستة آلاف ألفاً وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله )  
في بلاد الروم :

في عهد سليمان سنة ٩٨ هجر أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية  
وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف  
ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد :

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافق على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا وانقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان :

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه إذ توفي ٤٥ سنة

## المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثاني

٨ — عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أُم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه لما مات سليمان خرج رجاء بعهد الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والحيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتي أوفق لي وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه هيال أبي أيوب وفي فسطاطى



كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها . كذلك كان عمر بن عبد العزيز

في أول خلافته أرسل كتابا عاما إلى جميع العمال بالامصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان وإن الذى ولائى الله من ذلك وقد رلى ليس على يمين ولو كانت رغبى فى اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ما فدى بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا . ومسئلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) وهذا الكتاب ينبنى عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقى عليه من أمر المسلمين

بما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السرح إن قتيبة غدربنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدمنا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناها فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوما إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكروا ظلماً أصابهم وتحاملنا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقندى إلى معسكرهم وينابذهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظمراً : عنوة فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجد حرباً لأن ذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندرى لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عدواة فى المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا : وهذا عمل لمن تعلم أن أحدا وصل فى العدل إليه

ومما بين رفقته بالامة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحرّكهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا في الارض فإن فعلوا خلل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم ووجهه معه جنداً وأوصه بما أمرتك فجهر لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبدالله البجلي وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعو ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهم لم أناظرك فإن كان الحق بأيدنا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا ، فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم . فقال المنكلم ما نقمنا سيرتك إنك لتعصرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعرضنا من الناس ومشورة أم ابنتهم أمرهم : فقال عمر ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلى رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فأتركوني ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم . فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابراً منهم فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً الدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا وقال إبراهيم ( فن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ) وقال الله عز وجل ( أولئك الذين هدامهم الله فبدهام اقتده ) وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذماً ونقصاً وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فإن قامت إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون - قال أمامهم كفار بظلمهم قال لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقرب به وبشرائه قبل منه فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول



لا عمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم  
ولكن غلب عليهم الشقاء - قال الخارجي فأبرأ مما خاف علك ورد أحكامهم قال  
عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل  
أهل الردة سفك دماهم وسبي الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد  
السبايا بعده إلى عشائرم بفسدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال  
أفتبرؤن أتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم  
هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا وأن من خرج  
إليهم من أهل البصرة قتلوا عبدالله بن خباب وجاريتته وهي حامل قال نعم - قال فهل  
برئ من لم يقتل بمن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرؤن أتم من إحدى الطائفتين  
قال لا قال أفيسمعكم أن تولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم  
اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فإنكم  
جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردون عليهم  
ما قبل ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فإنكم يخاف  
عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند  
رسول الله أمنا وحقن دمه وماله وأتم تقتلونهم ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون  
دماءهم وأموالهم فقال الخارجي رأيت رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده  
إلى رجل غير مأمون أترأه أذى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أوترأه قد سلم قال عمر لا قال  
أقتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاءه غيري  
والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى قال أفترى ذلك من صنع من ولاءه حقا .  
وكان هذا السؤال الأخير محرجا لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه  
وكانت هذه المماظرة سببا لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده  
فأمر له بالعطاء أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لأفنت على المسلمين بأمر  
أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم . فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما  
علم أنهم إنما خرجوا طلبا الآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم  
ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق على أمته  
ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه

فتركه وكتب إلى الامصار بتركه وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء عما يقوله بنو أمية فقال عبيد الله متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في ذلك فقال عمر معذرة إلى الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال في ذلك كثير عزة :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف بريا ولم تتبع مقالة مجرم  
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالنتكلم  
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضيا كل مسلم  
ألا إنما يسكنى بعد زبغ من الآود البادى ثقاف المقوم  
ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات فى البلدان القاصية فقد كتب إلى سليمان بن  
أبي السرى أن اعمل غامات فمن مريك من المسلمين فأقروه يوما وليلة وتعهدوا دوابهم  
ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج بن  
يوسف فقد كتب إلى أمير العراق (أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة  
وجور فى أحكام الله وسنة خيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل  
والإحسان فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الإثم ولا تحمل  
خرابا على عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة  
الخزاج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز  
والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح  
ولا خزاج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع فى ذلك أمرى فإنى قد وليتك من ذلك  
ما ولانى الله) : ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه  
بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وما ذكر  
الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل فى مثل هذه الحدود ووضم رأى الخليفة  
إلى رأى القاضى الذى حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قدر وقع موقعه



رده المظالم لاهلها - لما ولي الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم إن فذك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلى ولم تكن من مالى أعود منها على وإني أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال للمولاه مزاحم إن أهلى أقطعونى مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونى وإنى قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك بخرت دموعه وقال أنكاهم إلى الله نخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيتى عنه فقال عبد الملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال إن مزاحم أخبرنى بكذا وكذا فمأريك قال إنى أردت أن أقوم به العشية وقال عجلة فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذرتى من يعينى على دينى ثم قام من ساعته فى الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأنته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقاتلك هذه فلاذكري شيئاً أبداً فرجعت لإيهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا

لما ولى عمر قال للناس فى خطبة « من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده : ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه ولا يفتان أحداً : ولا يعترض فيما لا يعنيه فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر ابن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه

عمر فقال يا بني كيف تجردك قال أجدني في الحق قال يا بني أن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك فقال يا أباه لأن يكون ماتحب أحب إلى من أن يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لآبيه يا أمير المؤمنين ما تقول لربك إذا أتيتك وقد تركت حقاً لم تحببه أو باطلاً لم تمته فقال يا بني إن أجدادك قد دعوا الناس من الحق فاتممت الأمور إلى وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلاً ألا تطلع الشمس على في يوم إلا أحيت فيه حقاً وأميت باطلاً حتى يأتي الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فإن عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمع بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذي بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء في حديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »

وربما يسأل عن اكتساب عمر هذه الأخلاق وهو في بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان فنقول إن عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهاؤها وصلحاءها فاكسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرافة بها . قال محمد بن علي الباقر إن لكل قوم نجية وإن نجية بني أمية عمر بن عبد العزيز وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله

لم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب وإحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد في أمرك إلا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها وحبس بحصن جلب فجاء عمر بخلد يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين إن الله منح هذه الأمة بولايتك وقد لتلينا بك فلا نكون نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليه فصالحني على ما سألت فقال عمر لا إلا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين إن كانت



لك بيته نخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر ما أخذه إلا بجميع المال نخرج بخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر ابن عبدالعزيز واستمر المهلب في سجته حتى إذا أحسّ بقرب موت عمر أعدّ للهرب عدته خوفاً من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد حرب آل أبي عقيل وهم أصحاب يزيد لأنه كان منزوجاً بينت أخى الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولاكنى خفت أن يبلى يزيد فيقتلنى شر قتلة فورد الكتاب ويعمر روق فقال اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه بى وهضه فقد هاضنى

ومن الحوادث الخارجية فى عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقول عنها إلى مالطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من مالطية ثلاث مراحل وكان عبدالله ابن عبدالله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ ومالطية يومئذ خراب وكان يأتهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولى عمر فأمرهم بالعود إلى مالطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

#### وفاة عمر بن عبدالعزيز

فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ فى تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوماً بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكره إلا أنه ذكر فى بعض الروايات أن سليمان توفى لعشر مضين من صفر بدل بقين منه وإذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية فى موت سليمان بل ذكر وفاته فى ٢١ صفر

## ٩ - يزيد الثانى

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة

بعد عمر بن عبدالعزيز فلما توفي عمر بويغ بها فلما تولى عمدا إلى كل صالح فعلة عمر فأعاده إلى ما كان عليه وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معايشة القيان وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدى بن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيماً يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك . خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثراباً من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغي لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسموه بن المهلب : وروى الطبري أن الحسن مزع على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعوننا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقة ثم قال إني قد خالفتهم خالفهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إني أدعركم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم برد إلى محبس عمر الذي فيه حبسه

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطاً فأقام بها أياماً ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالهم وأموالهم في السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قنديل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل ابن المهلب فإنهما نجوا : وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تنباهي الأمم بهم ولما تم على يدي مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاء أخوه العراقرين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزارى فقال في ذلك الفرزدق الشاعر راحت بمسلة الركاب مودعا فارعى فزارة لاهناك المرتع



عزل ابن بشر وابن عمرو قبله وأخوه مرة مثلها يتوقع  
وقد علمت ابن فزارة أمرت أن سوف تطمع في الإمارة أشجع  
من خاق ربك مامهم ومثلهم في مثل ما نالت فزارة تطمع  
يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمر ومحمد بن عمر بن الوليد  
وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان  
وولي ابن هيرة سعيد الخرشى على خراسان وكانت له مع الصغد أهل سمرقند وقائع  
عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها  
وفي عهده دخل جيش المسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم نيبث النهراني فاجتمعت  
الخزر في جمع كثير وأعانهم قنجاقي وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان  
يعرف بمرج الحجارة فاقتلوا هناك قتالا شديدا فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت  
الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنزهون إلى الشام فقدموا على يزيد  
ابن عبد الملك وفيهم نيبث فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ما جئت  
ولانكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعتت  
حتى انقص فرسخي وضاربت حتى انقطع سبني غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد  
ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد  
الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم  
من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برزعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فغير نهر السكرو  
ولما وصل إلى مدينة الباب والابواب لم يجد فيها أحدا من الخزر فدخلها بغير قتال  
ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفرا عظيما ثم  
سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم  
وتسلم حصنهم ونقلهم عنه ثم سار إلى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم  
فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب  
بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أهله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره  
بما يفعل العدو ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الويسندر وبه نحو أربعين ألفا  
من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة  
أثرا وفتحاً في تلك البلاد القاصية

### ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له إنه صغير فولى أخاه هشاما  
ومن بعده ابنه الوليد

### وفاة يزيد

تخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من أرض  
دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهر ٢٥ من  
رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٥٠

## المحاضرة الاربعون

هشام - الأحوال الداخلية في عهده - صفته ووفاته - الوليد الثاني  
يزيد الثالث - مروان الثالث

### ١٠ - هشام

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢  
من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت  
هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات أخوه يزيد مقبلاً بمصر وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم  
عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول  
سنة ١٢٥ أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً وكان هشام معدوداً من  
خير خلفاء بني أمية ولعمري إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك

### الأحوال الداخلية في عهده

في العراق والشرق - كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام  
فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسري وهو



قحطاني . فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجعيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداما غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبختري بن أبي درهم وحلق رموسهم وسيرهم إلى أخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

إذا للقيتم عند شد وثاقه بنى الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يوما فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق

والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني

فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب إلى خالد اعزل أخاك فعزله ثم ولي هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولأول عهده أرسل إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى أمير سمرقند إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة وإنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القران فارتفع خراجه : كان رسول أشرس إلى الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيदा صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منهم من ذلك فلجروا ولج وكانت النتيجة أن عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيदा ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيदा وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جرى بهم خبثهم واستخف بعد ذلك بعضطاء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد

واستجاشوا الترك فأعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا في جنوده حتى عبر  
النهر من عند أمل فأقبل اليه الصغد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد  
المسلمون يهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم : ثم سار أشرس  
حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشا لولا أن اتدب شيخعانهم  
إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم  
فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من  
المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأعاق  
المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق واستهاتوا في المدافعة عن حصنهم  
مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل  
إلى من بالمدينة يقول لهم إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نقتحها  
فترحلوا أتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا  
ما بدا لكم .

ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى  
سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ  
الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك  
وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفي سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد  
ابن عبد الرحمن المردى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضرباً  
وفي سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً  
إلى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند  
أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث  
الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأي ممن معه إن أمير خراسان  
لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جنديك : قال فكيف بسورة  
(أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من  
الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فساد  
الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبغ خاقان



في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنأظهرت  
العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما  
اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اخترا ما  
أن تهلك أنت أو سورة بن الحر : قال هلاك سورة أهون على قال فاكتب إليه  
فليأتك في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه : فكتب الجنيد  
إلى سورة يأمره بالقدم : فرحل سورة عن سمرقند في اثني عشر ألفا فلما كان بينه  
وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فأنكشفت الترك وثار الغبار  
فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط  
سورة فانقدت نخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فغزم على المسير إلى سمرقند  
فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون  
ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد  
أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً على تعبئة  
فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها : ولم يزل سائراً حتى ورد بخارى : والمسلمون  
بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير  
العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالي وكان  
هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاصلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم إن  
أدركته وبه رفق فأرهق نفسه بجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر  
الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الخنيد وعذبهم  
وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه  
والبيعة للرضا وتبعه خاق كثير فاستولى على بلخ والجزوجان ثم قصد مرو وبها عاصم  
فقاتله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو  
وفي النهر الأعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له ( أما بعد  
فإن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون موادها

ومعوتها في الإحداث والنواب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غيائه عنها فعزل هشام عاصما عن خراسان وولاه أسد بن عبد الله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد: ولما بلغ عاصما إقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاه وأن يكتبها جميعا إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإن أبي اجتمعا عليه نغم الكتاب بعض الرؤساء وأبي آخرون وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصم وحاسبه وطاب منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله: ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض: وأرسل أسد مبعثراً إلى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعته العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فقتلوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله إلى الصين: وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدتهم شكيمة وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوى الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للسهج ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لبين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلى الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلى الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأبخار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمتر ظفره عليه فإن تعلقت به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحق نوادر كثيرة ولى خراسان نصر بن سيار وولاه هشام وأمره أن يكتب يوسف بن عمر



وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سرأفيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ : وبلغت الأخبار يوسف بن عمرو وهو بالحيرة قهياً لهولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيدا وقالوا له . ما فؤلك في أبي بكر وعمر قال رحمهما الله وغفرلها ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسطان ما ذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الناس أجمعين فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفر أرقدولو اعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم : فقال إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لي ولكم ولا أنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن اجتمعونا سعدتم وإن أيتم فليست عليكم بوكيل فقارقه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة . وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتها أكثر من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقله عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق : وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً : ووضع الجزية عن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان

في أرمينية وأذربيجان - كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات إلى ما وراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزل هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث بن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك ياب اللان فلقى ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية

تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف ساءلما تجمعت الخزر جمعوا واحتشدت وساعدتهم  
الترك من ناحية اللان فلقمهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال  
رآه الناس فصرير الفريقان وتكاثر الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن  
معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل  
وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي وأتبعه  
بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط  
فاقتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء إلى أن وصل برذعة  
فزلها . كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورتان  
ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل  
حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من  
المسلمين أسارى وسبائا فسار اليهم ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في  
أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطاق  
الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان : ثم تجمعت الخزر مرة أخرى  
ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالاً شديداً انزعم فيه الخزرهزيمة منكراً وعلى  
الجملة فإن الحرشي أذل الخزر إذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه  
وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره  
بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلى الترك في  
شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصونا ودان له من  
وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما  
علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأودوا النيران ثم تركوا خيامهم وأنقالم وعادوه وعسكره  
جريدة وقدم الضعفاء وآخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى  
وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً  
مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمدّه بمائة وعشرون ألف  
مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة  
وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد



الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر بنفض مجموعته أمامه ذليلاً فأقام مروان في تلك البلاد أياماً ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح أقالع اردان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفاً شديداً ودانت له جميع البلاد التي على شاطئ بحر الخزر

### في الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جداً الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواني والصوائف دائماً الحركة ومن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الاصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان ابن هشام وقد افتتحوها في غزواتهم بلداناً كثيرة رومية منها قرنية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبدالرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبه

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبدالوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبدالله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبدالوهاب وصاح أن عبدالوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمز برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل: وفي سنة ١٢٢ قتل عبدالله البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنته مسلمة إلى بلاد الروم وأمره على رموس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلأته وقال إنه ثقة شجاع مقدمام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم

وإنما أشرنا إلى ذكر عبدالوهاب والبطال لأنهما بطلا رواية كبيرة ألفت في عصر لاندلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهممة والعامية يلفظونها (الدلمة) وهي أم عبدالوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) وتنفك بقراءتها واليوم لا نرى أحداً يقرأ منها شيئاً وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر أنهما ألفا في عصر واحد

في الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفي سنة ١٠٦ هـ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروى عنه في حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله ابن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يبلغون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحه وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعبه فيها : فشق على هشام قوله وقال لا قدمنا لشم أحد ولا للعتة . قدمنا حجاجا ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلبه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له أسألك بالله وبجرمة هذا البيت الذي خرجت معظاله ألا رددت عليّ ظلامي قال أى ظلامه قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى : قال فالوليد وسليمان قال ظلمانى قال فعمر : قال رحمه الله ردها عليّ قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمنى وقبضها منى من بعد قبضى لها وهى فى يدك فقال هشام لو كان فىك ضرب لضربتك قال فىّ والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال فى الناس بقايا ما رأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم إلا فى سنة ١١٦ هـ فإن الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ هـ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل فى الحجاز حوادث ولا ثورات فى عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فستسكلم عليه إن شاء الله وحده فى تاريخ مصر هذا بحال حال الأمة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يحاورها من الأعداء إلا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق بنفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والرابعة ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعبا جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزبلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فإذا ضعف



أثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميم فن المؤكد أنه لابقاء الأمة معه وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل

### ولاية العهد

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدل هشام أن يعزله ويولى بدله ابنه مسلمة واحتمل لذلك فلم يفتح وإن كان قد أجابه ببض القوادلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباحد له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن

### وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥)

### صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة : شتم مرة رجلا من الأشراف فقال له الرجل أما استحي أن تشتمنى وأنت خايفة الله فى الأرض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص منى قال إذا أنا سفيه منلك قال نخذ منى عوضا من المال قال ما كنت لأفعل : قال فهبها لله : قال هى لله ثم لك : فنكث هشام رأسه واستحيا وقال والله لأعود لمثلها أبداً قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بنى أمية فلم أردى وأنا أصح ولا أصاح للعامة والساطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على ببض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التى بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف : ولعل هذا هو الذى جعل الناس يصمون به بوصمة البخل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفا حتى يحبه الشعراء والكتتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء إليه كثيرا حتى ساء خلقه . ودعا القوادلى إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

## ١١ - الوليد الثانى

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف

الثقفي كان واليا للمهد بعد هشام وكان مغاضبا له في حياته حتى خرج وأقام في البرية  
كما ذكرناه

ولم يزل مقبلا في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان  
أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيجى  
مافيا من أموال هشام وولده وعياله وحشمه لإمسالة بن هشام فإنه كأم أباه في  
الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد  
شعر كثير في الشمنة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الأحوال المشـوم وقد أرسل المطر وملكتنا من بعد ذا  
لك فقد أورد الشجر فأشكر الله أنه زائد كل من شكر  
وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محله الأوفر قد أنزا  
ليت هشاما عاش حتى يرى مكيله الأوفر قد طبعا  
كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبا  
وما ألفنا ذلك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الأمة  
وأفراد البيت الأموي

كان ممن أجاب هشاما إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان  
فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفي والياً عليها ودفع إليه محمد وإبراهيم  
موثقين في عباةين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند  
الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أي قرابة بيئنا قال فقد نهى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط إلا في حد : قال ففي حد أضربك رقوط أنت  
أول من فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان ( وكان محمد قد أخذه  
وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي إياه )  
ثم أمر به الوليد بجلده هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديداً وأمر أن يبعث بهما  
إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عندهما حتى ماتا  
وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه



إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين  
امراته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالک  
وكان خالد بن عبد القسرى سيداً من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه  
الحکم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن  
أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفي وإلى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل  
بغير وطء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذاباً  
شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاة وهم  
أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبايح ورموه بالكفر وكان أكثرهم  
فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك  
بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام  
التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو  
من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع : أنت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على  
البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنهم لم ينته وبأيعه  
الناس سرراً وبعث دعواته فدعوا إليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان  
وهو بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم  
الفتنه ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد  
إلى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهده فكتبه يزيد الخبر فصدقه ولما  
اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهل أسراً وكان واليه عبد الملك  
ابن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز  
ابن الحجاج بن عبد الملك فذهب إليه وهو بالأغداف عن أرض عمان فقاتله ولما  
أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ  
فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه  
وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على ربح وطيف به في دمشق

وكان قتله لليلتين بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة  
أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية

## ١٢ - يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفرید بنت فيروز ابن يزدجرد بن شهریار بن كسرى وفى ذلك يقول

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقصر جدى وجدى خاقان

بويج بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردّها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب فى البيت الاموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعاده

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد بمن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان ابن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حمص وهو من سادة بنى مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلا فيهم يعقوب ابن هانيء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطرّدوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشا عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حواريين . كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدؤا بقتال هذا الجيش فانهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفيناني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجدأ في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جندا آخر يقدمه عبدالعزیز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عددًا عظيما ولساروا ذلك دانوا ايزيد وبايعوه وكافعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فانهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيناني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفا ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا ففتزق أمرهم وانتهوا بالبيعة ايزيد



وكان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق  
والمشرق فإن يزيد ولي العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب  
منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر  
ابن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم  
فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن  
علي الأزدي المكنى بياقوب بالكرمانى لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد  
الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر تصدية له وبذلك نبض عرق العصية الجاهلية  
بين الحين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرمانى وحبسه  
فاحتالت الأزدي حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع  
بينهما لولا أن سعى الناس بالصالح بينهما ولكنه صلح على فساد لأن كلا منهما كان  
يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئا لدعاة بنى العباس : ولم يكن  
عذولاة الأمر من بنى أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم  
بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فإنه توفي لعشربقين من ذى الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة  
أشهر واثنين وعشرين يوما من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه  
إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفي يزيد قام بالأمر من  
بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة  
وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والى الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية  
إبراهيم فسار إلى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحصص ولما وصل  
عين الحر قابله جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فاتصر عليهم مروان  
وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى  
فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأقتنه مروان ولعدم تمام الأمر  
لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء

## ١٣ - مروان الثاني

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الاشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل ابراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان واليا على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلاق القرآن والقدر وغير ذلك . ويومع الخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملومة بالفتن والاضطرابات منذ يوبع إلى أن قتل وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعيا إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جدا وكان والي العراق عبدالله بن عمر بن عبد العزيز جحد في حربه وكانت العامة تميل إليه لمحبتهم لآبيه فساعد ذلك على أن غلب عبد الله بن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فخاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فمسكر بقسرين وكتاب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسيا فأقبل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عددا عظيما فقتلهم ويقال إنه أحصيت القتلى من جنود سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفا ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فتصدده مروان وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها أما مروان فأتى حمص واستولى عليها . فأتتم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقافا محزنا تبعا لانشقاق البيت



المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص  
لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما في  
أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها  
عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فنبعوه ولما اشتدت  
الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية  
وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك  
ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذذاك  
محاصراً لخص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن  
يسير إلى نصيبين فيمن معه لينبع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار إليها في سبعة  
آلاف فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف  
ولما انتهى مروان من أمر حصص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفر توثا  
فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن  
بهدل الخيبري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وقيه  
مروان ووصل الخيبري إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر  
قلة من مع الخيبري ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان  
وقد جاز المعسكر بخمسة أميال منهزماً فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها  
وبات ليلته في عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا بدله شيان بن عبد العزيز اليشكري فأقام  
يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل  
فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج  
عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جنداً لمساعدة مروان فلما علم شيان بذلك  
كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جنداً وأمر القائد  
أن يقيم حيث يقيم شيان وأن لا يبدأ بقتال فإنه قاتله شيان قاتله فلم يزل يتبعه حتى  
لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكراً ففضى شيان إلى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠  
ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي

حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨ فقال له يا رجل اسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معي فأبى رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان

وبينا الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤس الرماح وهم سبعائة ففرح الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فرأسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بمحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير

فوقروا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلي مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة أنا لم أخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطراً ولا هبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لنار قديم نيل منا ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أقبلنا من قبائل شتى نفرنا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض فدوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدهوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى ثم أقبلوا ليعرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدماهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهتد ذى روثق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون وأتم يا أهل المدينة إن تصرخوا مروان



وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدنا ويشف صدور قوم  
مؤمنين يا أهل المدينة أولكم خير أول وأخركم شر آخر يا أهل المدينة الناس منا ونحن  
منهم إلا مشركاً أو عابداً وثناً أو مشرك أهل الكتاب أو إماماً جائراً يا أهل المدينة  
عن زعم أن الله عز وجل كلف نفساً فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتمرها فهو لله عز وجل  
عدو ولنا حرب يا أهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه  
على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه  
مكابراً محاربا لربه يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلم شباب أحداث  
وأعراب جفاة ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
إلا شباباً أحداثاً شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن  
الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم  
بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية  
شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف قد انتضبت والرماح قد شرعت  
وإلى السهام قد فوقت وأرعدت السكتية بصواعق الموت واستخفوا وعيد السكتية  
لو عيد الله عز وجل ولم يستخفوا لو عيد السكتية فطوبى لهم وحسن مأب فكم من  
عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد  
زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا  
( وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب )

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من  
عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي  
وأمره أن يجد في السير ويقابل الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن  
ويقابل عبد الله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى  
فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار إلى اليمن  
وبلغ عبد الله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله  
وحمل رأسه إلى الشام

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان  
وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشعبة بن العباس ورئيسهم المقدم أبي مسلم

الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضامن بنى العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية ( وسنفضل حديثهم وما كان منهم حينما نشغل بتاريخ الدولة العباسية )

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ بويج بالكوفة لابي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فسكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضى عليه القضاء الأخير فاخترعه عبد الله بن علي قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل من معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراه حتى عثر به نازلاً في كنيسة بقرية بوسير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وأبتدأ عصر الخلافة العباسية ( قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير )



## الخاتمة

في مدينة الاسلام في عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

### الخلافة الإسلامية

لبست الخلافة في عهد الدولة الاموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدح عنه باب وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم في آءوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يتخاطب بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الأمير عمر ابن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمتها ونشهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام ابن عبد الملك

طاب يومى ولدة شرب السلافة وأنا نأى من الرصافة  
وأنا البريد ينعى هشاما وأنا نأى بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل ما يجتزئ به الضعفاء من رعيتهم ويتخنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بنى مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته أما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن

الملك العقيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأباها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحكم الذي في سببتي فبدلت قومي غلظة بليان  
وإذا كنا على رأى من يقول إن الأمة هي التي تخلق ملوكها ( وهو قول حق )  
ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها  
كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد  
الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختار من سلفه  
ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد  
ابن عبد الملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد الملك . ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله . ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم  
فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثاني اختاره يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان : الأول ابن عمه ، والثاني أخوه . وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد : الأول أخوه . والثاني ابنه

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحدا لولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعوا



عنها فكانت سببا مهما من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيذا للعهد والميثاق. وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شدوا أحيانا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة بن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه

#### إدارة البلاد

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهي

- (١) الحجاز : وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقم الامير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير
- (٢) العراق : وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والامير يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يخاطب الخليفة رأسا : وقد يضاف أحيانا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة
- (٣) الجزيرة وأرمينية وتنظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية
- (٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهي فلسطين - والاردن - ودمشق وحمص وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية لجعل قنسرين وأنطاكية ومنبجا جندا برأسه وإنما سمي كل منها جندا لأنه يجمع كورا والتجنيد التجمع وقيل سميت كل ناحية بجنيد كانوا يقبضون أعطيائهم فيه والأقرب أن هذا هو أصل التسمية
- (٥) مصر وإفريقية وتنظم بلاد مصر وشمال أفريقيا وكانت إفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر
- (٦) بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى إفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود إمارته كانت الاعمال التي ترجع إلى الخلفاء وهي :

(١) إقامة الصلاة

(٢) قيادة الجيش

(٣) جباية الخراج . والصدقات ووضع ذلك مواضعه

(٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم : وقد كان الأمير يقوم مقامه الخليفة أحيانا في جميع ذلك ويقوم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائدا للجيش ويعين جايا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبق إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس ونارة كانوا يقصرون الولاية على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع إليه رأسا .

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الإداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالا للنقطة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحمل والمنازعات تقضى في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامه من أن يرفع أمره إلى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضيق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لا ينفذوا حدا من الحدود من قتل أو قطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس والذي دعا إلى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في



دائرة ولايته لظال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا  
مسبب للاضطراب الكثير

ومن اعظم ما يؤخذ على بنى أمية في النصف الثاني من ايام خلافتهم لاذلال الامراء  
ومصادرتهم في اموالهم واحيانا الايتان على انفسهم بعد ان يعزلوا وقد ابتدا هذا  
في عهد سليمان بن عبد الملك فانه اذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد ان  
مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الامر على ذلك من بعد عمر بن عبدالعزيز  
إلى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الأموي ومن أغرب  
ما حصل لهم أن يوسف بن عمر التميمي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبدالله القسري  
اشترى من الوليد بن يزيد خالدا وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع ثيابه وألبسه  
عباءة وحمله في سحبل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى  
الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله في الليل ودفنه من وقته بالحيرة في  
عباءة التي كان فيها وذلك بعد أن ولي خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا  
سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم

#### قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة  
الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية  
في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية في أفريقية والأندلس  
وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام . حيناً مع الخوارج وحيناً مع  
طلاب الخلافة من بنى علي ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية إلا عصر  
الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز . فهي إذاً دولة حربية . ولا جرم إن امتاز  
فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حرمة الوغى واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة  
وحسن التدبير في الحرب وهاتجن نورد على أسماءكم جملة من أولئك الأفراد العظام  
الذين مر ذكرهم

#### من اشتهر بالشرق

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان عليه تاما بمكبدة الحرب والاحتراس من

غوانلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر  
وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعا مقداما لا يرتد شيء عن قصده واشتهر  
بحروبه بما وراء النهر فإنه دقخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلع  
لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وقد  
الدولة صالح خدمتهم

(٣) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال  
واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فإنه رد أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم  
وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه  
خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين  
كانوا غرة في جبين الدولة الأموية

(٤) أسد بن عبد الله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس  
هناك يسمونه ملك العرب وها بوه هبة لم يها بوها قائداً قبله وأخذ عليه عصيته لقومه  
من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا في فساد أهل خراسان واختلافهم  
(٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج  
ابن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل  
في أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر في أرمينية وأذربيجان

(٦) محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شجاعا أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان  
أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان  
(٧) مروان بن محمد بن مروان كان كأييه بطلامقداما سد نفور أرمينية وأذربيجان  
وأبلى فيها البلاء الحسن

(٨) الجراح بن عبد الله الحسكي وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر واشتهر  
في بلاد الروم

(٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية  
المرّة الثانية وافتتح كثيرا من الحصون الرومية وقد تصر به عن الخلافة أن أمه كانت  
أمة ولم يسكن بنو أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر



(١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة

(١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامى مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتي والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وأفريقية

(١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في إحدى تلك الوقائع

(١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام في قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد . لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لحوالاء ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يحمي البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر في الدولة الأموية تقل مهارة وإقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها : وكانت السيادة في الجيوش للعصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

#### القضاء والأحكام

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم إلى سليم بن عزيز ( قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان ) في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى في أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعا إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئا إلا وهبه ووصل به لإخوانه وأفضل به عليهم فلما ولي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفهه والمبذرفرفع غلام من حمير لا تحوى يده شيئا إلا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يا بني قال فن يحجر عليك أيها القاضي والله ما يبلغ في أموالنا عشر معشار من تذكرك فسكت توبة ولم يحجر على سفهه بعد . فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها . وأحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاضى مصر من قبل عمر بن عبد العزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضا في الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضى به قضاتهم أو يحمل مجتهدى كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج قاضى مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابا وكان عنده . قال الكندي جرى الأمر على ذلك

وكانوا يتولون الأحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم فلما كان توبة قال ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء



والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من التواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم ويظهر أن مراتب القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مدا الأيدي إلى السحت رأيت أن عبدالرحمن بن مجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعها القصاص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصاص مئتي دينار ورزقه في بيت المال مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ورأيت في الكندي أمر ابصر مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً

#### الدواوين

كانت الدواوين لعهد بنى أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند

(٢) ديوان الخراج

(٣) ديوان الرسائل : فأما ديوان الجند فإنه مذكور وضع كان بالعربية لأن عمر إنما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يخصص جند كل إمارة وأعطيتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فإنه كان بالعراق باللغة الفارسية وبلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد همروا بعد فيه فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده

زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي  
بجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية تخف على قلبه شعر صالح بذلك  
تخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفني  
ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن ذلك هو أحوج إلى  
مني إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى  
العربية لحولته قال فقول منه أسطر حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث  
إليه الحجاج بطييه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فانفق عقيب ذلك أن قتل  
زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج  
بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في إمضائه فقلعه من الفارسية  
إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى  
عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما  
ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب  
الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن  
منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد  
ابن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزاري من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين  
الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى  
وكان ديوان الخراج ينظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)  
وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال  
في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي تختم فيه السكتب بعد أن  
تسكتب وكاد الخلفاء يختارون من ثقافتهم والامناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم  
خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين  
للخلفاء ومن أشهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبري وكان من البلاغة في مكان مكنين  
ومما اختير له من الشعر

ترجل ما ليس بالقافل وانقب ما ليس بالرائل



فلهني على الخلف النازل ولهني على السلف الراحل  
أبكي على ذا وأبكي لذا بكاء موهبة ثاكل  
تبكي من ابن لها قاطع وتبكي على ابن لها واصل  
فليست تفتر عن عبدة لها في الضمير ومن هامل  
تقضت غوايات سكر الصبي وردت التقي عين الباطل

### السكة الإسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقرئ فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضربية أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلباً للإحسان إلى الرعية فلوجعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة ف ضرب معاوية تلك الدراهم السورداً ناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر تيراطاً تنقص حبة أو حبتين و ضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجرى مجرى الدراهم و ضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل و ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاهم الناس في العطاء

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فخص عن النقود والأوزان والمكاييل و ضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل

وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا لإلحبة بالشامى وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى والقيراط أربع حبات وكل دائق قيراطان ونصف وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن أضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيعها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبد الملك الذهب الذى ضربه دنائير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مائة دينارين أى أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقاله سمير نسبت الدراهم إذ ذاك السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدراهم الدراهمها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه مناهى كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم فى الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولا فأولا وقدر فى كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهى الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهه بطوق وكتب فى الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفى الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبد الملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والواقية والطبرية والعق تبقى مع الدهر وقد جاء فى الزكاة أن فى كل مئتين أو فى كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السود العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عدداً وجبت الزكاة فيها فإن فيه حيفا وشططا على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ماسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم وأف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق لجمعها وكل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فإذا هو لم



يبرح في آباد الدهر موفى محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل  
سوى فأفر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والامر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم  
سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبد الملك ف ضرب الهيرية بالعراق عمر بن  
هيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعاً للبال أمر خالد  
ابن عبد الله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك  
من كل بلد إلا واسطاً ف ضرب الدراهم بواسطة فقطع وكبر السكة فضربت الدراهم على  
السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر  
السكة وأجرها على وزن ستة و ضربها بواسطة وحدها فلما استخلف مروان بن محمد  
ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بجران إلى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا في الجزء الأخير من الخطط وضحيات نافعة  
في أمر الدرهم والدينار في الدول الإسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم  
والدنانير في الأزمنة المختلفة : وحقق أن المئقال والدينار ليسا مترادفين وأن المئقال  
سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها  
قدرها ٢٨٣٢ جراماً فسدسها الذي هو المئقال ٤٧٢ جراماً وهناك مئقال آخر  
يقل عن هذا شيئاً يسيراً إذ أن وزنه ٤٦٩ جراماً وأن الدينار كان وزنه ٢٥٠ جراماً

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة ذات القرشين  
تقريباً لأن وزنها ٣٥٠ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين  
٢٩٤ ج وبين ٢٧٠ ج وأن وزن الدينار كان يساوي في الوزن نصف الجنيه  
الإنكليزي لأن وزنه ٢٥٠ جراماً وقد كان وزن الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين  
٤٦٤ ج وبين ٢٥٢ جراماً

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقوداً إسلامية لأن هذا أول  
علامة من علامات استقلال الدولة المسالي وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع  
اتساع سلطانها أن تبقى عالية على الروم والفرس في الدرهم والدينار  
أسباب السقوط

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لاعتن رضا ومشورة فلان

معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم الأمر ورضى الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته . كان في الأمة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والأولون ذوو أقدام وبسالة الأداء لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لا يصفوه الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعه والتي سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضرور السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما الآن شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يعضى عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجدم مزحاً من العداء تقريباً ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذى يذلل النفوس الجاحجة ويقرب القلوب النافرة إلا أنه نرى فيما زل زلة كبرى قلت من قيمة عمله وهى اهتمامه بالعض من على بن أبي طالب على منابر الأمصار فكان هو وأمرأؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضاً وربما رد الجريء منهم على الأمير وجهاً لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف في العقوبة يزيد الأمر شراً كما حصل من زيادة في أمر حجر الكندي

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموى كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم وهى :

أولاً - ولاية العهد

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولي عهده عبد الملك ثم عبدالعزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده



إلى ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبدالعزیز فلم تبد الأزيمة  
ولكنه هو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان  
خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولى ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين لم يستفد  
سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبدالعزیز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد  
تخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم : أعاد يزيد هذه الغلظة فولى عهده هشام أخاه ثم  
الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان  
كثير من كبار القواد وذوى الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بمالاة هشام  
على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمرا عن ساعد الجد في الانتقام من  
أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان  
ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها فكان من وراء  
ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخذت منهم الأنفاس  
وجعلتهم أترأ بعد عين

ثانيا - إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام معفياً لآثارها ومشدداً في النعي عليها  
لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضمت  
قواهم في جاهليتهم

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التي تلاها قيام  
مروان بالامر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايح الضحاك وكتب  
التي كانت تشايح مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبى وقال في ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهياً يسرت غسان لهسم وكلبا

والسكسين رجالا غلسا وطيبنا نأباه إلا ضربا

والقبن تمشى في الحديد نكبا ومن تنوخ مشمخرا صعبا

لا يأخذون الملك إلا غصبا وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار  
ابن عبيد الثقفى كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش  
وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس  
لواه ونادى بالثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله

وكثير من جند الشام : في الوقت الذي نبض فيه عرق العصية الجاهلية بين قيس  
والين في الشام كان ماهو أشد منه في خراسان فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم  
بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدى والأزد من اليمن  
فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار  
حتى خلفت على خراسان رجلا من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطاقان  
والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبيدالله بن خازم فقال  
من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان  
بين ربيعة والين اكتب لي عهداً على خراسان فمكتب له فسار ابن خازم إلى مرو  
وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك  
على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار إليهم  
ابن خازم واقتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً  
ثم عاد ابن خازم إلى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر فلما صفت له خراسان جنابهم  
فتسكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة : اليمن وربيعة وقيس عيلان  
وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر  
كانت الأمراء تساعد على إتمام هذه الروح الخبيثة فإذا ولي يمان رفع رؤس  
أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الأمصار فإذا تلاه مضرى عكس الأمر وانتقم من  
سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك  
فهناك تجتمع كلتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فإذا عادوا عاد الفساد وكان  
من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الاموى الذين يطالبونه بما في يده  
مما ليس له فإن أبا مسلم الخراساني اتكأ على ذلك فحضر كل شعب بالآخر حتى  
تم له الظفر بجمعهم ولا ننسى أن لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يداً  
كبرى في إتمام هذه العصية فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من  
شعراء القبائل المختلفة ويتجلى له ذلك : لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف



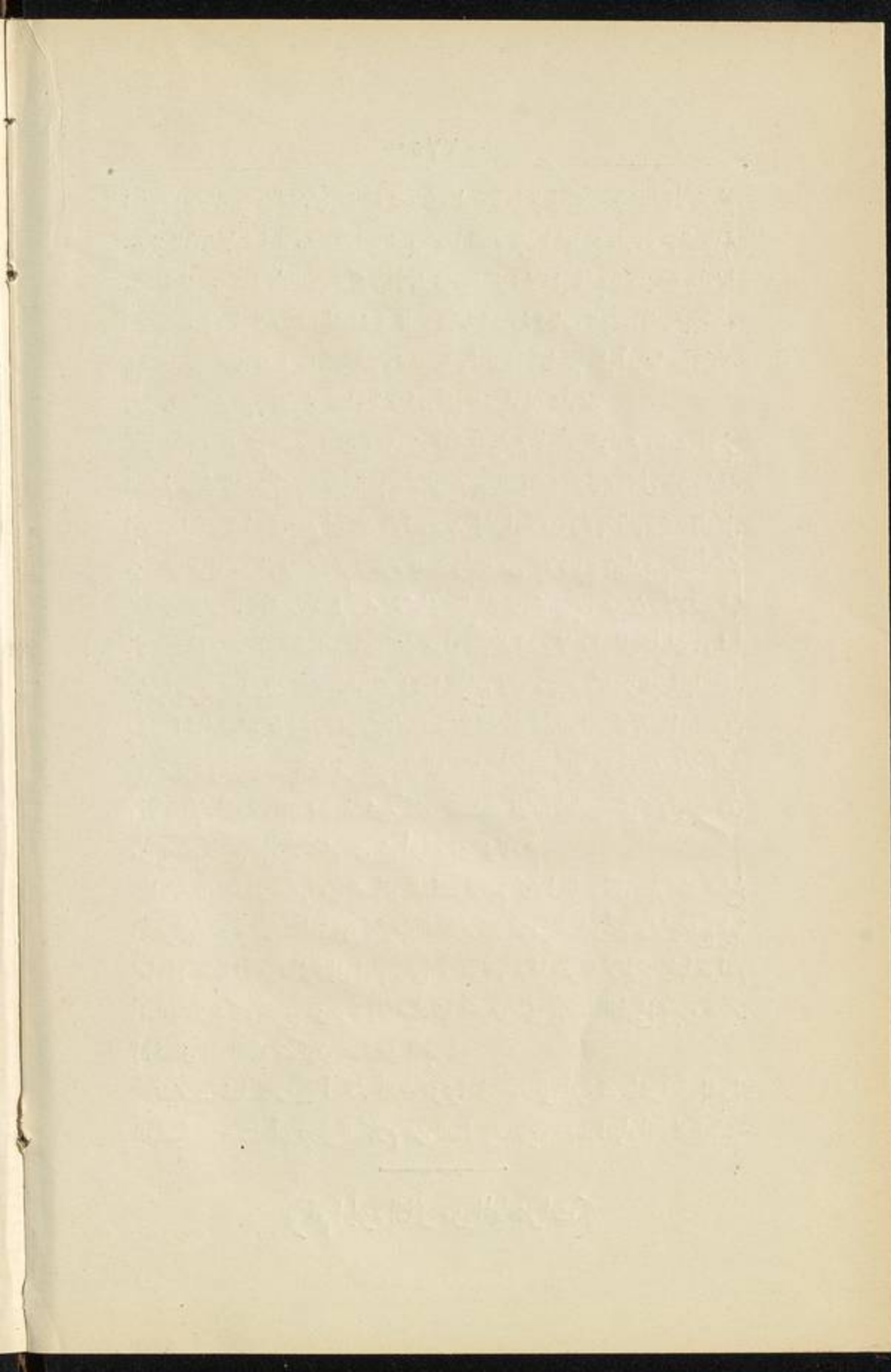
فتنسى إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء فإن الجهل يجعل روح العصية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءهما لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله إن شاء الله

( ثالثاً ) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوى الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثاني فإن سليمان ابن عبد الملك لما ولى بعد أن كان الوليد يريد لإخراجه من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلم وحرم نفسه وأمه من الانتفاع بتجارهم فقدم أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولاذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل إلى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبد الملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج نخاف وهلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بنى أمية والأمة الإسلامية وكان بعدها شيء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم

الأمة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يحنم لها رأى ولا ينضج فيها عمل تتم عليها الأمم سائرة إلى امام وهى فى موقفها ولها حركة لاتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة إلا صادقتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه - لما كان أكثر الذين دونوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسننا أن نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

( تم الجزء الثانى من المحاضرات )





# فهرست

الجزء الثاني من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

صفحة	صفحة
٤٣ أسباب مقتل عثمان	٢ المحاضرة الرابعة والعشرون
٤٧ بيت عثمان	الفتوح في بلاد الروم
علي بن أبي طالب	٣ الواقعة بمرج الروم
كيف انتخف	فتح حصص
٤٩ ترجمة علي	٥ فتح بيت المقدس
أول خطبة له	٨ المحاضرة الخامسة والعشرون
٥١ أول أعمال علي	٨ القضاء في عهد عمر
اضطراب الجبل	١١ سيرة عمر في عماله
٥٦ المحاضرة التاسعة والعشرون	١٣ معاملته للرعية
وقعة الجبل	١٥ عفته عن مال المسلمين
٦٠ أمر صفين	١٧ ميله للاستشارة وقبوله للنصح
٦٦ المحاضرة الثلاثون	١٨ رأى عمر في الاجتماعات
عقد التحكيم	الوصف على الجملة
٦٨ نتائج التحكيم	١٩ بيت عمر
٧١ اجتماع الحكيم	٢٠ المحاضرة السادسة والعشرون
٧٩ المحاضرة الحادية والثلاثون	مقتل عمر
مقتل علي	٢٢ عثمان بن عفان . كيف انتخب
٨٠ بيت علي	٢٤ ترجمة عثمان
٨١ صفة علي وأخلاقه	٢٥ أول قضية نظر فيها
٨٤ الحسن بن علي	٢٦ كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار
٨٥ الخلافة	أول خطبة له
٨٧ القضاء	٢٧ الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان
٨٨ قيادة الجيوش	الفتوح في عهد عثمان
٩٠ الخراج وجبايته	٣٠ المحاضرة السابعة والعشرون
٩٣ الصدقات	الأحوال الداخلية
العشور	٤٣ المحاضرة الثامنة والعشرون

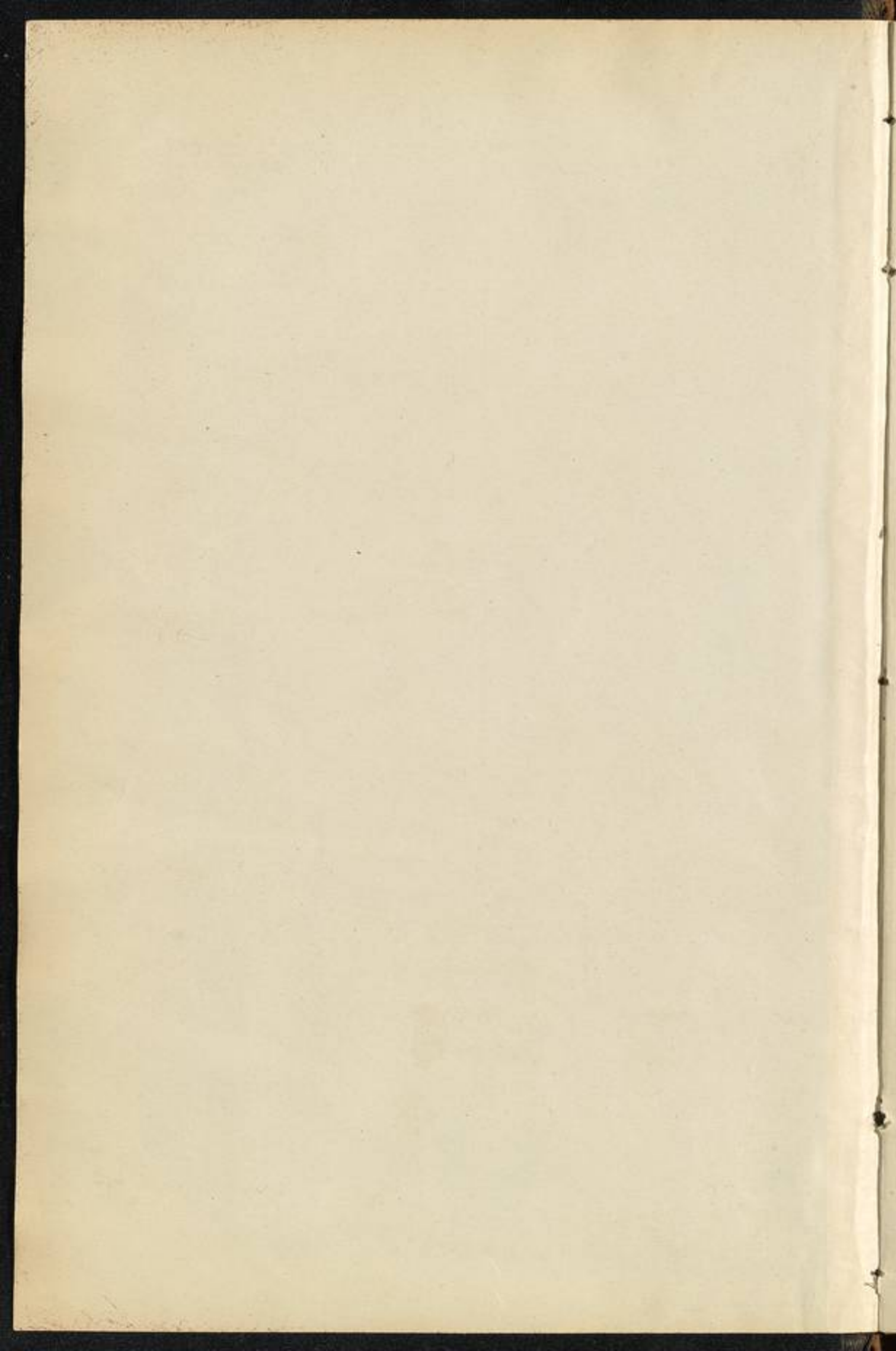


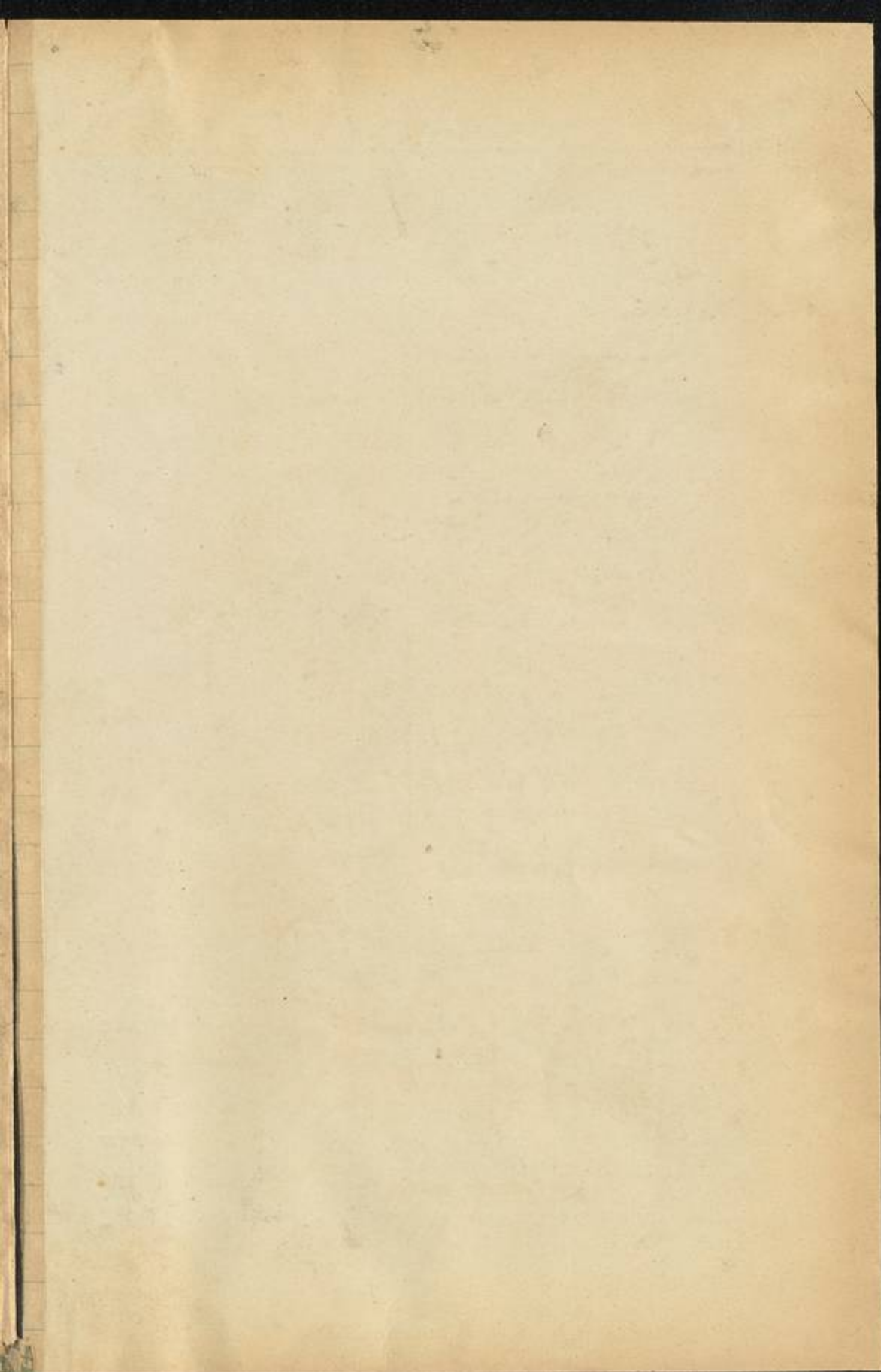
صفحة	صفحة
١٣٤ بيت يزيد	٩٤ النقود
١٣٥ المحاضرة الخامسة والثلاثون	٩٥ الحج
معاوية الثاني - عبدالله بن الزبير	الصلاة
١٣٦ حال الشام	العلم والتعليم
١٣٨ ترجمة مروان	٩٦ المحاضرة الثانية والثلاثون
عبدالمالك	الدولة الاموية
١٤٧ الحجاج بالعراق	٩٩ معاوية بن أبي سفيان
١٤٩ المحاضرة السادسة والثلاثون	ترجمته
الخوارج	١٠٠ طريق انتخابه
١٦١ المحاضرة السابعة والثلاثون	حال الامة عنداستلام معاوية الامر
بناء الكعبة	١٠٢ زياد بن أبي سفيان
الاحوال الخارجية	١٠٨ المحاضرة الثالثة والثلاثون
الفتوح في الشرق	١١٤ الفتوح في عهد معاوية
١٦٣ الفتوح في الشمال	١١٦ البيعة ليزيد بولاية العهد
١٦٤ الحج	١٢٠ مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم
السكة الإسلامية	مدة الخلفاء الراشدين
١٦٥ ولاية العهد	١٢٢ بيت معاوية
وفاة عبدالمالك	وفاة معاوية
بيت عبدالمالك	١٢٣ المحاضرة الرابعة والثلاثون
١٦٦ صفة عبدالمالك	يزيد الأول
١٦٧ الوليد الأول	١٢٤ كيفية انتخابه
الحال في عهد الوليد	حادثة الحسين
الإصلاح الداخلي	١٣٠ وقعة الحزة
١٧٠ المحاضرة الثامنة والثلاثون	١٣٢ حصار مكة
الفتوح في عهد الوليد	١٣٣ الفتوح في عهد يزيد
١٧٥ ولاية العهد	١٣٤ وفاة يزيد

صفحة	صفحة
١٩٨ في الحجاز	١٧٦ وفاة الحجاج
١٩٩ ولاية العهد	١٧٧ وفاة الوليد بن عبد الملك
وفاة هشام	سليمان
صفته	١٧٩ الفتوح في عهده
الوليد الثاني	١٨٠ ولاية العهد
٢٠٢ يزيد الثالث	وفاة سليمان
٢٠٤ مروان الثاني	المحاصرة التاسعة والثلاثون
٢٠٩ الخاتمة	عمر بن عبد العزيز
مدينة الإسلام في عهد الدولة	١٨٧ وفاة عمر
الأموية	يزيد الثاني
الخلافة الإسلامية	١٩٠ ولاية العهد
٢١٠ الانتخاب والبيعة	وفاة يزيد
٢١١ إدارة البلاد	المحاضرة الأربعون
٢١٣ قيادة الجنود	هشام
٢١٥ القضاء والأحكام	الأحوال الداخلية في عهده
٢١٧ الدواوين	في العراق والشرق
٢١٩ السكة الإسلامية	١٩٥ في أرمينية وأذربيجان
٢٢١ أسباب السقوط	١٩٧ في الشمال

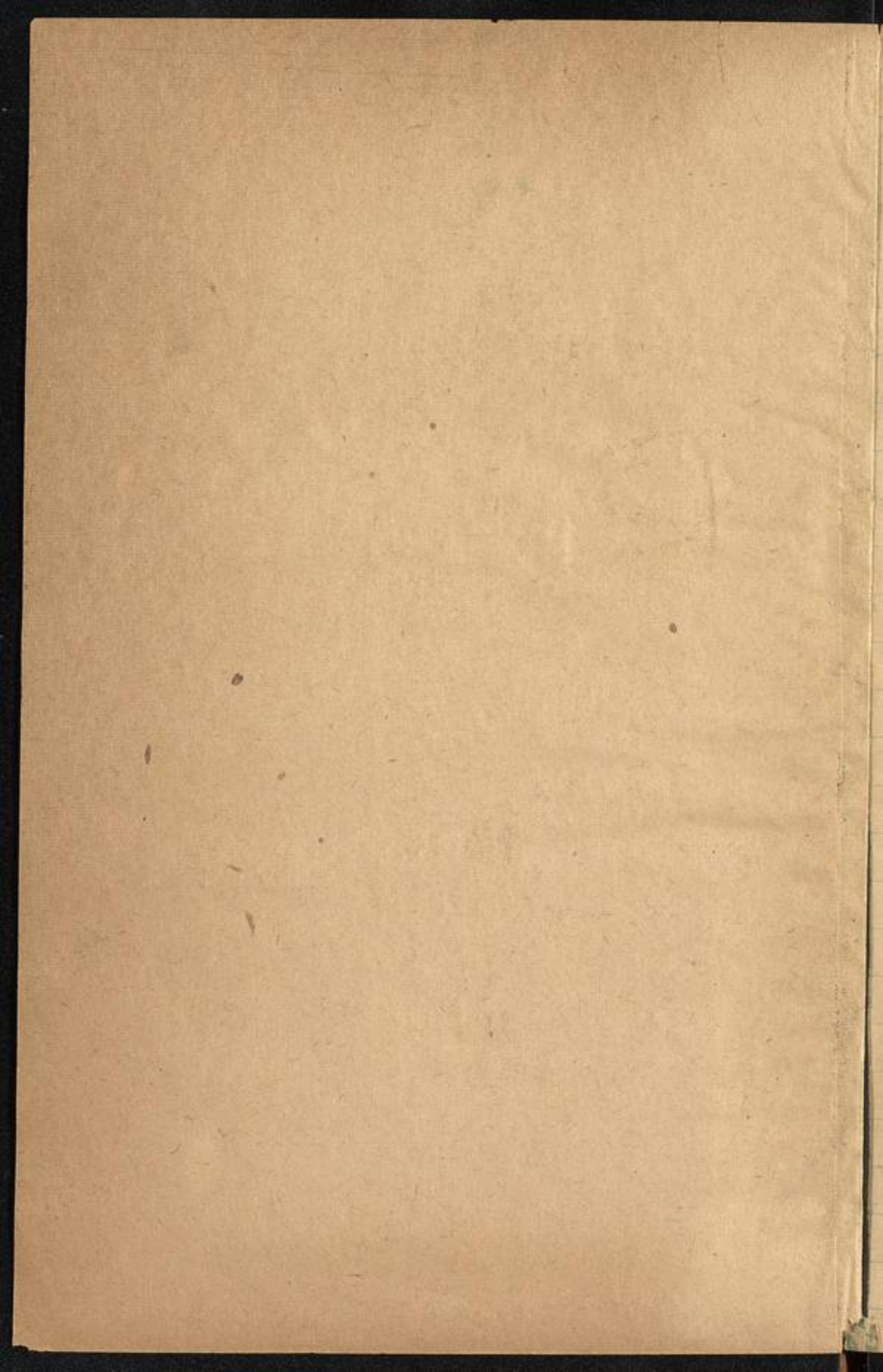
( تمت )















893.712

K5293

2 v. in 1

893.712

K5293

2 v. in 1

Khudri

Muhādarāt ta'rīkh al-umam  
al-islāmiya.

18 1949



COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58902406

893.712 K5293

Muhadarat tarikh al-